

الإمام

الدكتور عبد الحليم محمود

القرآن والنبى



دار المعارف


القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم

الدكتور
عبد الحليم محمود



الطبعة الرابعة



دار المعارف

تصميم الغلاف: محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة : ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه أن رسم لهم سبيل السعادة فى دنياهم وفى أخراهم ، وهو طريق لا استحالة فيه ولا مشقة حقيقة ، قد جربه الكثيرون ففازوا بالسعادتين :

لقد استراحوا فى هذه الحياة الدنيا ، لقد غمرهم الرضا ، وأحاط بهم الاطمئنان ، ولفتهم أردية السعادة .

ولقد ضمن الله لهم حياة هنيئة فى الآخرة : يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله ، ويكفل لهم عدم الخزى حين يغمر الخزى كثيراً من الخلائق ، ويدخلهم الجنة برحمته ، ويريهم وجهه الكريم تفضلا منه سبحانه . هذه السعادة فى الدنيا والآخرة وعد الله بتحقيقها لكل من توفر فيه شرطان .

الأول : الإيمان .

الآخر : العمل الصالح .

يقول سبحانه :

(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون [1]) .

لقد وعد الله بتحقيق الحياة الطيبة فى هذه الآية الكريمة لكل فرد تحقق فيه الشرطان ، ونص الله سبحانه فيها على الأنثى ، وسوى بين الذكر والأنثى : وفى ذلك دعوة صريحة أو ضمنية للنساء إلى القيام بالعمل الصالح والتحلى بمكارم الأخلاق ، مثلهن فى ذلك مثل الرجال سواء بسواء ، وذلك حتى تعم السعادة جميع أفراد الأسرة .

---

(١) سورة النحل آية ٩٧ .

وذكر الله سبحانه ثمرة تحقيق هذين الشرطين فى صورة من التأكيد وهى الحياة الطيبة فى هذه الدنيا . والحياة الطيبة إنما هى السعادة .

ثم بين سبحانه فى صورة أيضاً من التأكيد المؤكد أنه سيجزيهم فى الآخرة وأن جزاءهم لن يكون على مستوى متوسط أعمالهم ، وإنما سيكون بأحسن ما كانوا يعملون .

هذه السعادة تتحقق للفرد باعتباره فرداً إذا حقق ما اشترطه الله سبحانه ، وتتحقق للأسرة باعتبارها أسرة إذا تكاتف أفرادها متعاونين متضامنين على توفير الشرطين : يرى كل من أفرادها أنه مسئول عن نفسه وعن الآخرين ، فيتناصحون من أجل سعادتهم :

ألم تر إلى سيدنا إسماعيل ؟ لقد كان فى نفسه (صادق الوعد) :
أى أنه صدق مع الله فى عهد الإيمان والعمل الصالح .
ولقد كان بالنسبة لأسرته (يأمر أهله بالصلاة والزكاة) .
ومن أجل ذلك (كان عند ربه مرضياً) [1] .

وهذا قانون إلهى عام ، ليس خاصا بسيدنا إسماعيل ولا بفرد معين ، وإنما هو شامل لكل من انضوى تحت لواء الإيمان والعمل الصالح .

وقد بين سبحانه عمومه فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، وبين سبحانه أنه كما يشمل الفرد وكما يشمل الأسرة فإنه يشمل أيضا المجتمع .

فالمجتمع الذى يحقق الشرطين يصل إلى السعادة .

وإذا كانت الآية التى نحن بصددها هنا تعلن فى وضوح تام عن السعادة فى عمومها وشمولها فى الدنيا والآخرة ، فإن آيات تبين زوايا جميلة من السعادة وتحدد فى تفصيل بعض الجوانب ، يقول سبحانه :

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ،

---

(١) هذا الجزء واللذان قبله أجزاء من آيتى ٥٤ ، ٥٥ من سورة مريم

لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم [١]) .

والآيات الكريمة تشتمل على زوايا أكبر من زوايا السعادة منها :

١ – أن الذين آمنوا وكانوا يتقون : أى الذين حققوا الإيمان والعمل الصالح – هم أولياء الله .

٢ – ولأنهم أولياء الله فلا خوف عليهم .

٣ – ولأنهم أولياؤه سبحانه فإنهم لا يحزنون .

٤ – ولأنهم حققوا الإيمان والعمل الصالح فإن لهم البشرى فى الحياة الدنيا .

٥ – ولهم البشرى فى الآخرة .

ثم يؤكد الله كل ذلك بأنه لا تبديل لكلماته ، إن وعده حق ، ومن أوفى بعهده من الله ؟

ثم يوجه الله سبحانه الأذهان ، أذهان الصالحين وأذهان المنحرفين على السواء – بأن ذلك لا غيره إنما هو الفوز العظيم :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون [٢]) .

ويقول سبحانه فى شىء من الإيضاح الجميل الشائق :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون .

نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون

نُزلا من غفور رحيم .

ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين .

ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

---

(١) سورة يونس الآيات : ٦٢ – ٦٤ .   (٢) سورة الأحقاف آيتا : ١٣ – ١٤ .

وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم [١]) .

ولله سبحانه وتعالى فى عالم الروح وفى عالم الاجتماع قوانين لا تتخلف .

وكما أنه سبحانه رسم فى عالم المادة نواميس تسير فى انتظام فإنه سبحانه رسم فى عالم الأخلاق وفى محيط الإيمان ، وفى ظواهر الاجتماع - قوانين تسير فى نظام محكم بل إنه يمكن أن يقال :

إن قوانين الطبيعة إنما هى « عادات الطبيعة » ، أما القوانين التى عبر الله سبحانه وتعالى عنها فى القرآن الكريم أو على لسان رسول الله ﷺ فى الأحاديث القدسية أو فى الأحاديث النبوية وأكدها سبحانه - فإنها نواميس لا تتخلف .

ولقد أبان الله سبحانه منها عما يحتاج إليه الإنسان فى سعادته الخالدة .

من هذه القوانين :

١ - قانون الاستغفار ، أو قانون سعة الرزق .

يقول تعالى :

(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين [٢]) .

ويقول سبحانه :

(فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم أنهاراً [٣])

٢ - قانون التقوى ، أو قانون تفريج الكربات وسعة الرزق .

يقول تعالى :

(ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب [٤]) .

ويقول سبحانه :

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض [٥] ..)

---

(١) سورة فصلت الآيات : ٣٠ - ٣٦ .

(٢) سورة هود آية : ٥٢ .

(٣) سورة نوح الآيات : ١٠ - ١٢ .

(٤) سورة الطلاق من الآيتين : ٢ ، ٣ .

(٥) سورة الأعراف آية : ٩٦ .

٣ – قانون التوكل .

يقول سبحانه :

(ومن يتوكل على الله فهو حسبه [١] ..)

٤ – قانون النصر .

يقول سبحانه :

(ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز [٢]) .

ويقول سبحانه :

(إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم [٣]) .

مع العلم بأن النصر دائما إنما هو من عند الله :

يقول تعالى : (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) [٤] .

٥ – قانون الجهاد ، أو قانون الهداية .

يقول تعالى :

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا [٥]) .

أى جاهدوا أنفسهم من أجل الله ، وجاهدوا أعداء الله سبحانه من أجله تعالى ، إذا فعلوا ذلك فإن الله يهديهم إلى الصراط المستقيم : يسدد خطاهم ، ويمنحهم التوفيق فيما يأتون وفيما يدعون ، ويضعهم على أبواب النصر ، وينصرهم بالفعل .

٦ – قانون التوبة .

ونتيجة التوبة الخالصة النصوح المغفرة ، وفى القرآن ما لا يكاد يحصى من الآيات إثباتاً لذلك .

بيد أن الذى نريد أن نتحدث عنه إنما هو قانون التوبة فى ذروتها :

ومما لا شك فيه أن التوبة أنواع :

---

(١) سورة الطلاق آية : ٣ .

(٢) سورة الحج آية : ٤٠ .

(٣) سورة محمد آية : ٧ .

(٤) سورة آل عمران آية : ١٢٦ .

(٥) سورة العنكبوت آية : ٦٩ .

(ا) نوع هو أدناها ، وهو التوبة من الذنوب والمعاصي والآثام ، وقد وعد الله التائبين من هذا النوع المغفرة .

(ب) ونوع هو توبة من الغفلة عن الله ، وهو نوع وسط بين التوبة من الذنوب والتوبة التي هي عبادة .

(جـ) أما النوع الأسمى فهو التوبة مع عدم ذنب ، والتوبة مع عدم الغفلة : التوبة حيث لا معصية ولا غفلة ، والتوبة لأن الله أمر بالتوبة ، وتكرار التوبة لأن الله سبحانه يحب ذلك .

وقانون هذه التوبة التي ليست للذنب ولا لغفلة إنما لأمر الله هو ما رسمه الله بقوله :

(إن الله يحب التوابين) [١] .

ولقد عبر الله سبحانه بقوله : « التوابين » ولم يعبر بالتائبين ، لأن الله سبحانه يحب الإنابة إليه على الدوام والرجوع إليه باستمرار : أى التوبة دائماً .

ونتيجة ذلك هى هذه المنزلة الكبرى ، وهى حب الله سبحانه للتوابين .

٧ - وللرحمة قوانين عدة :

(ا) الراحمون . . يرحمهم الرحمن .

(ب) ارحموا من فى الأرض . . يرحمكم من فى السماء .

ويتصل بقوانين الرحمة ما يلى من مرويات الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ :

(جـ) من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا . . . نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر . . يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة .

والله فى عون العبد . . ما كان العبد فى عون أخيه .

(د) أما القانون الذى أعلنته السيدة خديجة رضوان الله عليها ، والذى كانت نتيجته عدم الخزى فى الدنيا والآخرة - فهو أيضا من قوانين الرحمة :

لقد قال رسول الله ﷺ ذات يوم للسيدة خديجة رضى الله عنها : لقد خشيت

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢٢ .

عن نفسى . فقالت له فوراً : كلا والله ما يخزيك الله أبداً

هذه النتيجة التي ذكرتها رضوان الله عليها لم تتركها دون ذكر مقدمتها . أما المقدمة فهي : إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق وهذه الأوصاف الخلقية الحميدة إنما تتبلور كلها في كلمة واحدة هي : الرحمة

والمقدمة والنتيجة يكونان قانوناً من قوانين الرحمة ، يعني أن كل من أراد ألا يخزيه الله فليكن رحيماً

(هـ) ومن أحب أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره . . فليصل رحمه ، ومعنى ينسأ له في أثره : أي يؤخر له في أجله وعمره ، كما يقول الإمام النووى

* * *

وإذا كان القرآن الكريم قد رسم طريق السعادة في عمومه وشموله ، وفصل الأمر في زوايا منه ، فإنه رسم طريق الشقاء في عمومه وشموله ، وفصل أيضاً الأمر في زوايا منه .

وطريق الشقاء في عمومه وشموله تصوره الآية القرآنية التي تقابل بالضبط آية السعادة التي افتتحنا بها الحديث ، يقول تعالى :

(ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى [1]) .

إن هذا الذي أعرض عن ذكر الله إبداً وأعرض عنه عملا جزاؤه في هذه الحياة الدنيا معيشة يغمرها الشقاء ، ويوم القيامة يحشره الله متخبطاً لا يهتدى إلى طريق النجاة

إن هذا الذي أعرض عن ذكر الله فأصابه الله بمعيشة الضنك سيشعر بهذا الضنك ولو كان في سعة من المال وبحبوحة من الغنى ، سيصيبه الله بالشعور بالضنك غنياً كان أو فقيرا ويصور الله سبحانه شعوره بالضيق في الرخاء والشدة خير تمثيل

(١) سورة طه آية ١٢٤

حيا بصورة فى حسنة بالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث أى يلهث فى جميع أحواله

يقول سبحانه

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين

ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا . فاقصص القصص لعلهم يتفكرون

ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون [1])

وقد يكون شر هؤلاء عميماً فلا يكون هناك من مخلص لتدميرهم فرادى أو جماعات ، كليا أو جزئيا . ونصر الله هذه الآيات الكريمة من سورة العنكبوت فيها عظة وعبرة للأفراد وللجماعات

للأفراد من أمثال « قارون وفرعون وهامان »

وللجماعات التى ذكر الله فيها : مدين ، وعاداً ، وثمود

يقول تعالى :

(ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين

قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين

ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون .

ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون

وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا

(١) سورة الأعراف الآيات ١٧٥ - ١٧٧

في الأرض مفسدين

فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين

وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين .

وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين

فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون

إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم

وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)[1]

ثم تدبر هذه السورة الكريمة سورة الليل ، فإنها تتحدث عن سعي الناس في الحياة واختلاف أساليبه وطرقه متحدثة عن طريق السعادة وعن طريق الشقاء

يقول تعالى

(والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغني عنه ماله إذا تردى إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى فأنذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى)[2]

لقد بين القرآن القوانين الاجتماعية التي تتعلق بالفرد ، وتتعلق بالأسرة ، وتتعلق

(١) سورة العنكبوت الآيات ٣٩ - ٤٣ (٢) سورة الليل الآيات ١ - ٢١

المجتمع الكبير ، لقد سما بالتعبير الإلهي في دقته وروعته ، وفيها في تأكيد ووضوح

ولقد اتبع سلفنا الصالح هذه التعاليم في فجر الإسلام وصدره الأول في عهد الرسول ﷺ ، وفي عهد الصديق وفي عهد الفاروق رضي الله عنهما . فكانت الحياة الطيبة الراضية ، وكان النصر والفتح المبين . هذا الفتح الذي لا تجد تعبيراً عنه أبلغ من تعبير هذا المؤرخ الذي أخذته الدهشة فتساءل قائلا : أصغرت رقعة الدنيا في عهدهم فجابوها بهذه السرعة المذهلة ، أم أن الأرض كانت تطوى من تحت أرجلهم ، فقطعوها في زمن قصير ؟

وما صغرت رقعة الدنيا ، ولا طويت الأرض ، ولكنه الإيمان الحق الذي يصنع المعجزات .

* * *

ما هي الصورة الإيجابية التي كانوا يتمثلونها ويستشعرونها ويعملون على تحقيقها ؟ إننا نذكر هنا بعض آيات من القرآن ترسم مجتمعة أهم جوانب الصورة الإيجابية الكريمة التي كانوا يتحلون بها ، والتي أحب الله للمؤمنين التحلي بها في كل وقت . يقول تعالى :

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً . والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقراً ومُقاما . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيماً .

ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صُمّاً وعمياناً . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً . أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا

ومقاماً . قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً [١])

ويقول سبحانه :

(قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) [٢]

ويقول عز وجل

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون . العابدون . الحامدون السائحون . الراكعون . الساجدون . الآمرون بالمعروف . والناهون عن المنكر . والحافظون لحدود الله . وبشر المؤمنين [٣])

ويقول .

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون [٤])

ويقول :

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) [٥]

ويقول سبحانه :

(يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله

(١) سورة الفرقان الآيات ٦٣ — ٧٧
(٢) سورة المؤمنون الآيات ١ — ١١
(٣) سورة التوبة آية ١١١ — ١١٢
(٤) سورة الحجرات آية ١٥
(٥) سورة الأنفال الآيات ٢ — ٤

ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين[١]).

هذه الصورة الإيمانية فيها الرحمة وفيها التواضع وفيها العزة إنها في حقيقة الأمر

إسلام الوجه لله في كل ما يحب، أو هي الاستسلام مع الله على ما يريد

إنها إسلام الوجه لله في عباداته، وإسلام الوجه له في الجهاد، الجهاد بكل أنواعه: الجهاد بالنفس، والجهاد في الأسرة حتى يستقيم أمرها، والجهاد في المجتمع حتى يستقيم أمره، والجهاد في العمل تجارة كان أو زراعة أو صناعة، والجهاد الحربي أقوى ما تكون الصورة عدة وعتاداً وروحاً معنوية

فما دان العالم للمسلمين دون أن يصعر رقبته تعبا ودون أن تطوى الأرض من تحت أرجلهم، ولكن ببيعهم النفس والنفيس لله سبحانه

ثم خلف من بعدهم خلف استقام أمرهم بمقدار قربهم من الصورة الإيجابية السليمة، واختل أمرهم حين ابتعدوا عن الصورة الإيجابية الصادقة

على أن الأمة الإسلامية لم تخل في عصر من العصور من هؤلاء الذين يرفعون أصواتهم بالإيمان وبكلمة الحق مصداقاً لقول رسول الله ﷺ على حسب ما رواه الإمام البخاري: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون، وهم أهل العلم» ويروى الإمام البخاري: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسماعيل، عن قيس، عن المغيرة بن شعبة، عن النبي ﷺ، قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون».

لقد احتضن الإسلام على وجه العموم بدايته مستقيمة حقة، وكان المسلمون على وجه العموم يلجئون إلى القرآن وإلى السنة معتصمين مسترشدين، وكان الكل فرادى وجماعات يتدبرون القرآن والسنة قراءة وعملاً، وكانوا كلما وجدوا أنفسهم

(١) سورة الصف الآيات ١٠ - ١٣

انتفعوا فى قليل و فى كثير ، عن الروح الإسلامية الصادقة فحاولوا جاهدين أن يستعيدوها ، وقام فيهم الموجه والمرشد من أمثال الحسن البصرى ، وسفيان الثورى ، ومالك ، وعمر بن عبد العزيز ، وأحمد بن حنبل ، و الشافعى ، رضوان الله عليهم .

* * *

واستمرت الأمة الإسلامية فى صورتها الإيمانية بين جزر ومد ولكن كان مدها فى الجملة أكثر من جزرها ، إلى أن جاءت بدعة ترجمة كتب الإلهيات اليونان وكتب أخلاق اليونان أى إلى عهد المأمون

ونريد قبل أن نتحدث عن بدعة الترجمة هذه أن نعود إلى عصر النبوة فنرى أمراً يجب أن نتدبره

لقد رأى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وبيده صحيفة يقرأ فيها ، فقال : ما هذا !

فقال سيدنا عمر : إنها صحيفة من التوراة

فلم يرض رسول الله ﷺ عن ذلك ، وقال : والله لو كان موسى حيا ما حل له إلا اتباعى !

وبطبيعة الحال ترك سيدنا عمر الصحيفة ولم يعد إليها

لماذا كان ذلك ؟ ما تفسيره ؟ وما الحكمة فيه ؟

الحكمة فى ذلك هى

أولا : إن الوحى القرآنى وأحاديث الرسول ﷺ قد بينا الحق فى صورة لا لبس فيها ، وفى يقين لا تردد فيه . وفى وضوح وصفاء ، وبيناه فى صورة من الدقة لا يتأتى أن يوجد ما يماثلها فى أسلوب آخر . وذلك أنها التعبير الإلهى نفسه فكان ينبغى على سيدنا عمر فيما رآه رسول الله ﷺ وكان ينبغى على كل مسلم أن يتركها

ثانيا : أن الرسالة الإسلامية جامعة الرسالات ، مهيمنة عليها . تصدقها . وأثبتت وتنفى ، تحق الحق وتبطل الزائف ، وهى من أجل ذلك تفصل و توجه فى

كل أمر. وقد أنزلت على خير مخلوق وأفضل رسول (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)[1] ومن أجل ذلك كانت أفضل وأكمل رسالة.

وما دامت هي المرجع وهي الفيصل، وما دامت هي أفضل رسالة، فإن الحكمة تقتضي ألا يصرف المسلم وقته ولا بعض وقته في غيرها.

ثالثاً: أن للإسلام شخصية خاصة، وذاتية محددة، وطابعاً معيناً فيدا من حفظ المسلم ذلك بغيره وإذا ما أنف هذا (الغير) بالتفكير والعقيدة - فإن ذاتية الإسلام تضيع في ذهنه، وتختلط في تفكيره، فلا يتأتى له أن يتبينها في وضوح أو أن يتعمقها في دقة.

والشخصية الإسلامية ليست شخصية مادية، فهي ليست طبيعة، ولا فلكا، ولا كيمياء، ولا علم أحياء، من أن الزوايا المادية لا تكون ذاتية، ولكن الذاتية تتكون من العقيدة والأخلاق والمبادئ والمثل، إنها فكرة وطابع وشعور، ولابد أن يكون للشعور والطابع والفكرة محدده معينة ويجب من أجل هذا التحديد والتعيين ألا تلوث الفكرة بغيرها حتى تستمر الذاتية واضحة في الذهن مصدراً للإحساس والشعور، ومبدأ للسلوك والتصرف.

وسار الأمر على ذلك إلى أن كان عهد المأمون

مهما أشاد المؤرخون بعهد المأمون فإنه مما لا ريب فيه أن المأمون دخل في حمق أحمق. وسهر سهور في النزاع الديني الذي كان بين المعتزلة من جانب ورجال الحديث وأهل السنة من جانب آخر. وهو لم يدخل في هذا النزاع للصلح أو للتهدئة، وإنما جعل نفسه طرفاً في الخصومة بكل ما لدولة من سلطة وجاه ومالاً مع طائفة ضد الأخرى!

لقد أخذ صف المعتزلة محاربا رجال الحديث، أو محارباً الصالحين العابدين الأصفياء.

وظن المأمون أنه إذا ترجم هيئات اليونان وترجم أخلاقهم فإن في ذلك نصراً له.

(١) سورة البقرة آية ٢٥٣

وبعد ما رأى ترجمة إلهيات اليونان ، وأمر بترجمة أخلاقهم ، وأمر أيضاً بترجمة إلهيات غير اليونان وترجمة أخلاقهم

ولقد كان موقف المتدينين تديناً صادقاً من ذلك موقفاً صريحاً

لئن كانت هذه الآراء البشرية اليونانية أو هندية أو فارسية حقاً فعندنا ما هو أحق ، وهو الوحى الإلهى الإسلامى ، وهذا الوحى الإسلامى بالغ فى دقته ، أى كان بالأسلوب الإلهى نفسه أى أنه إلهى معنى وأسلوباً ، ولسنا من أجل ذلك فى حاجة إلى فكر بشرى فى هذه الجوانب

أما إذا كانت هذه الآراء البشرية اليونانية أو هندية أو الفارسية باطلا فإننا فى غنى عنها ، وذلك أن الحياة الدينية أو الحياة الجادة لا تحتمل ولا تقبل إضاعة الوقت فى الباطل . هذا موقفهم فيما يتعلق بالإلهيات والأخلاق وهو موقف واضح

أما فيما يتعلق بالطب والكيمياء والطبيعة والفلك والعلوم المادية على وجه العموم — فإنهم رحبوا بها باعتبارها عاملا أساسيا فى تدعيم قوة الدولة ، ولكن المأمون لم يعبأ بذلك وأمر بترجمة التراث اليونانى — فلسفة أو أخلاقا وشجع الآخرين من الأثرياء والوجهاء وكبار رجال الدولة على أن يحذوا حذوه وينهجوا نهجه ونافس هؤلاء فى إرضائه ، وتملقوه بالترجمة كما كانوا يتملقونه بقول ما يرضيه وبعمل ما يرضيه

وأخذت هذه الكتب تشيع فى أرجاء الأمة الإسلامية

وكما تقرب الأمراء والوجهاء والأثرياء إلى المأمون بترجمة الإلهيات والأخلاق فقد تقرب المثقفون إليه بدراستها وتفهمها وتدريسها وإذاعة ما فيها من آراء مهدمة كانت تلك الآراء أو ضالة ، وكانت آراء المعارضين ، ونكل بخصوم المعتزلة : أى نكل بالصالحين من رجال الحديث والسنة .

وشاعت الآراء الدخيلة ، وذاع المنهج البشرى الأرسطى فى الأجواء التعليمية ، وألف الناس الأمر شيئاً فشيئاً

وبعد ذلك أخذت الفكرة الصحيحة عن الدين الإسلامية تأرز شيئاً ، وأخذ الجو الإسلامى الصادق يغمره نوع من الغربة .

وبقي القرآن في نضرته الدائمة، والسنة في صفائها ووضوحها السمحة كانا دائماً منبعث إلهام وتوجيه. فكان يقوم من آن لآخر فرد أو أفراد يوجهون المسلمين إلى الصراط المستقيم بسلوكهم وبتدريسهم وبكتبهم وعلى رأس هؤلاء الإمام الغزالي حجة الإسلام الذي أحيا المفاهيم الإسلامية بسلوكه وبكتابه الخالد (إحياء علوم الدين) الذي قضى على الفلسفة في المشرق قضاء لم تقم لها بعده قائمة.

وسار في هذا الطريق نفسه الإمام عبد القادر الجيلاني، والإمام الرفاعي والإمام الشاذلي، والشيخ العرب، والإمام الدسوقي وغيرهم من كل هؤلاء المهتدين الذين كرسوا حياتهم لهداية الناس إلى الله ورسوله بسلوكهم وبتعاليمهم وكتبهم وكان لهم أتباع ساروا على سننهم، وسلكوا طريقهم فاهتدوا وهدوا.

* * *

ولقد غزانا الغرب في العصور الحديثة بكل ما يملك: بالسلاح وبالعلم

وقد كانت مهمة القلم في هذا المجال واسعة متفرعة، لقد كان منها

١ - محاولة الحط من شأن الشرقيين على وجه العموم ومن شأن العرب على وجه الخصوص باعتبارهم جنساً من الأجناس

لقد صور كتابهم العرب قبل الإسلام وبعده يحطون من شأنهم باعتبارهم جنساً من الأجناس لا باعتبارهم طوراً من أطوار الحضارة، وحكموا عليهم باعتبارهم جنساً بالانعدام الحضاري

ونسي هؤلاء الحضارة الإسلامية التي ازدهرت عصوراً طويلة، تناسوها متعمدين، فإذا ما تحدثوا عنها مضطرين قللوا من شأنها وبعثوا حولها الشكوك

وكان غرضهم من ذلك كله أن ينتشر عدم الثقة في نفوس العرب حتى يكونوا باستمرار تابعين للغرب مقلدين له

٢ - وتناول كتابهم الإسلام عقيدة وتشريعاً وأخلاقاً وتاريخاً محاولين أن يزيفوا الحقائق في كل ميدان من ميادين الدين

٣ - حاولوا أن يغضوا من شأن الإسلام ومن شأن العرب، وحاولوا بكل ما أوتوا من وسائل في الدعاية أن يبثوا في النفوس روح التحلل وإفساد الأخلاق

وأخذت شخصية الإسلام بذلك كله تذوب وتتلاشى، وكان لابد من أن تتضافر أقلام المخلصين لدينهم، وتجتمع كلمة على توضيح ذاتيته متكاتفة على إحياء مفاهيمه

* * *

وهذا الكتاب وما سبقه من سلسلة «في إحياء المفاهيم الإسلامية» إنما هو مساهمة متواضعة في بيان ذاتية الإسلام وتوضيح مفاهيمه، أرجو الله أن يتقبله خالصة لوجهه الكريم

وأرجوه أن يهدي بها وأن يهدي لها

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

الكتاب الأول

القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون [1])

---

(١) سورة البقرة الآيات ٥

تمهيد

الحديث في القرآن وعن القرآن لا ينتهي ، إنه لا يحده فكر بشري ولا يقيده تصور إنساني . ولقد كان من الحكمة العميقة أن رسول الله ﷺ لم يأخذ في تفسيره كلمة كلمة وآية آية ؛ وإنما فسر كلمة من هنا وآية من هناك . ولم يقل صلوات الله وسلامه عليه - إن تفسيره يحد المعنى ويحدده ويقيده . وفسره رسول الله ﷺ بسلوكه أكثر مما فسره بقوله المباشر في معناه لقد كان خلقه ﷺ القرآن ، فكان خلقه تفسيراً للقرآن ، ومن هنا كان قوله تعالى :

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا[1]) .

وفسره ﷺ بأحاديثه الكثيرة - عن طريق غير مباشر - أكثر مما فسره بطريق مباشر .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد تحلى بالقرآن فكان سلوكه تفسيراً له ، وإذا كان قد امتزج بالقرآن فكان نطقه - وما ينطق عن الهوى - تفسيرا له ، وإذا كانت حياته كلها سلبا وإيجابا قولا وصمتا حركة وسكونا إنما هي تفسير للقرآن فإن الصحابة ساروا على منواله بقدر استطاعتهم . ولم يحاول أحد منهم أن يفسر القرآن كلمة كلمة وآية آية وإنما حاولوا أن يستهدوا بالقرآن وأن يكون القرآن - ما استطاعوا - خلقهم .

لقد كانوا يعظمون القرآن ، ويتخذونه إماما وقائدا . إنهم لم يتخذوه دراسة نظرية ، وإنما اتخذوه هداية عملية حتى إن بعضهم ما كان يتجاوز في الحفظ السورة إلى غيرها إلا إذا حقق ما فيها من أوامر ، وانتهى عما فيها من نواه . لقد اتخذوه دستورهم في الحياة ، وأقاموه إمامهم في حياتهم . لقد طبقوا قواعده والتزموا

(1) سورة الأحزاب آية 21

مبادئه من جهاد ، وصبر فى الحياة ، وصدق فى القول ، وإحسان فى العمل ، وعبودية أسمى وأقوى وأخشع ما تكون العبودية لله سبحانه وحده ، وحققوا بذلك الأمة التى أحبها الله ورسوله

ولقد ربى القرآن على مر العصور رجالا اتخذوه إماما وهاديا فكانوا مثلا عاليا فى الإنسانية لا يدانيهم غيرهم من سائر الدول ولا يزال القرآن للآن هو القرآن الذى وحد قبائل وجمع أشتاتا ، وألف بين قلوب ، وكون أمة ، وأرسى قواعد حضارية تعتز بها لأنها حضارة بنيت على التقوى من أول يوم .

والآن ونحن فى شرقنا العربى وفى عالمنا الإسلامى فى سبيل النهوض والتطور والبحث والرقى فى حاجة أمس ما تكون الحاجة إلى الاسترشاد بمصدر الهداية ومنبع القوة

(إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم)[1]

ولقد استرشدت فى كل ما كتبت بالآية القرآنية الكريمة .

(اقرأ باسم ربك الذى خلق)[2]

لقد بدت أمامى كروضة يانعة يقتطف الإنسان منها أجمل الزهور ، ويشم من عبيرها أزكى الروائح ، وبدت أمامى كنهر مبهج حياة ، وبدت أمامى موحية موجهة . فسرت فى البحث مستلهما على الخصوص هذه الآية الكريمة .

إنها أول آية نزلت فى القرآن الكريم ، وهى ثرية بالمعانى ، وعلى الرغم من أنها كانت جوهر موضوع الكتاب فى ألفاظها وفى جوهرها فإنى لم أقل عنها كل ما يمكن أن يقال ولكنى وأنا أسير فى جوها أحببت أن يكون الحديث خطوة فى سبيل إيضاح الطريق إلى النهج على سنن الصدر الأول فى الاستهداء بالقرآن عمليا . وفى الأخذ فى الناحية العملية عبادة كانت أو ضربا فى الأرض .

ولقد استرشدت بالآية الكريمة فى عدة مجالات منها .

مجال العلم وهو أساس الحضارة والبعث والنهضة ، ولن تنهض أمة أبدا لم تتخذ العلم أساسا من أسس نهضتها ، العلم بأوسع وأشمل ما تدل عليه كلمة العلم

(١) سورة الإسراء آية ٩ (٢) سورة العلق آية ١

واسترشدت بها في مجال الغزو الفكري وموقف الإسلام منه . وذلك لنرجع إلى النبع الصافي مصدر حضارتنا وأساس هدايتنا .

ولما كان الكتاب عن القرآن الكريم فقد كان من الضروري أن نتحدث عن وصف القرآن وعن فضله ، ولقد استفضت في بيان أوصاف القرآن من القرآن نفسه ؛ فتعبير القرآن عن القرآن كله توجيه للمسلم وبيان له عن مصدر هدايته ، ووصف صادق لكتاب النور والهداية

واستفضنا أيضا في موضوع الذكر وموضوع الدعاء مستندين في كل منهما إلى القرآن ، وذلك لأنهما تعبير من أهم وأصدق مظاهر التعبير عن العبودية لله . ونحن في عصرنا الراهن أشد ما نكون في حاجة لتحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى يجب فيها الاستغناء به عمن سواه . فإذا اتجه المسلم الصادق إلى الله فقد استغنى به ، واعتز به ، ومن كان لله كان الله له « أليس الله بكاف عبده ؟ » وإذا حقق المسلم العبودية لله فإن الله يتكفل بنصره

إن تنصروا الله ينصركم

ولينصرن الله من ينصره .

وكان ختام البحث عن توجيهات القرآن الكريم في النصر بإذن الله

وإنا نرجو الله جلت قدرته وعظم سلطانه أن يوجه الأمة الإسلامية الوجهة التي ترضيه ، وأن يمدها بمدد من عنده ، وأن يكتب لها النصر ، وأن يعيد لها مجدها السابق .

إنه نعم المولى ونعم النصير

د . عبد الحليم محمود

الفصل الأول

الجو الذى نشأ فيه الإسلام

١

الحنفاء [1]

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخراً ثقالا
دحاها فلما استوت شدها ... سواء وأرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذباً زلالا
إذا هي سيقت إلى بلدة ... أطاعت فصبت عليها سجالا

بهذه الأبيات كان يترنم زيد بن عمرو بن نفيل، ثم يستقبل البيت ويقول لبيك حقاً حقاً تعبداً ورقاً، البر [2] أرجو لا الخال [3]. وهل مهجر [4] كمن قال [5] ثم ينشد:

عذت بما عاذ به إبراهيم ... مستقبل الكعبة وهو قائم
يقول أنفي لك عان راغم ... مهما تجشمني فإني جاشم [6]

ثم يسجد.

كان زيد بن عمرو عربياً أصيلاً، فهو ابن عم سيدنا عمر بن الخطاب وهو أبو سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة. وكان أحد من اعتزل عبادة الأوثان، وامتنع عن أكل ما ذبح باسمها، وكثيراً ما أنكر على قريش ذبحها على غير اسم الله قائلا:

يا معشر قريش، أيرسل الله قطر السماء، وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة

1) من مصادر هذا الفصل: الأغاني ج٣، [illegible] في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين، سيرة ابن هشام والروض الأنف، تمهيد لتاريخ الفلسفة للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق، فجر الإسلام للمرحوم الدكتور أحمد أمين، الملل والنحل للشهرستاني.
(٢) البر: الطاعة والخير
(٣) الخال: الخيلاء
(٤) المهجر: السائر في الهاجرة
(٥) قال: نام في القائلة
(٦) الأغاني: الجزء الثالث ص ١٢٤

فيه ، وتدعوها لغيره !

ولقد أثارت حالته هذه اهتمام بعض علماء الكلام من قديم الزمان ، وهم من أجل ذلك يذكرونه عند تعريفهم للنبي ، ويتساءلون أخارج عن التعريف أم داخل فيه : يقول الجلال الدواني في تعريف النبي

« هو إنسان بعثه الله تعالى إلى الخلق لتبليغ ما أوحاه إليه ، وعلى هذا لا يشمل من أوحي إليه ما يحتاج إليه لكماله في نفسه ، من غير أن يكون مبعوثاً إلى غيره ، كما قيل في زيد بن عمرو بن نفيل ، اللهم إلا أن يتكلف [1] »

ولعل من الأسباب التي وجهت بعض المتكلمين إلى ذكر زيد عند حديثهم عن النبوة ما روي عن سعيد بن زيد بن عمرو قال : سألت أنا وعمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن زيد فقال :

« يأتي يوم القيامة أمة وحده » .

وسواء أكان نبياً أوحي إليه بما يكمل نفسه ، أم لم يكن نبياً فإنه كان من هؤلاء الذين يتلمسون المعرفة الحقيقية ويسعون وراءها جاهدين كان يعتصر ذهنه ، ويشحذ شعوره يريد أن يحل ألغاز الكون ، ويكشف أسرار العالم ، ويجيب عن

من أين ؟

وإلى أين ؟

ولم ؟

ولكنه يتلفت يميناً ، ويتلفت يساراً ، فلا يجد نفسه إلا في سديم مظلمة ، وفي ضلال محيط . ويثور شعوره الديني فينشد وكأنه يصرخ أو يستغيث

أرباً واحداً أم ألف رب ... أدين ، إذا تقسمت الأمور ؟
عزلت اللات ، والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ، ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني عمرو أزور
ولا هبلا أدين ، وكان رباً ... لنا في الدهر ، إذ حلمي يسير

(1) العقائد العضدية ص٣

عجبت، وفي الليالي معجبات ... وفي الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالاً ... كثيراً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم ... فيربو منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثر ثاب يوماً ... كما يتروح الغصن المطير
ولكن أعبد الرحمن ربي ... ليغفر ذنبي الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها ... متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرار دارهم جنان ... وللكفار حامية سعير
وخزي في الحياة، وإن يموتوا ... يلاقوا ما تضيق به الصدور

ولكن الهداية إلى الدين القويم لم تكن إذ ذاك سهلة هينة

وإذا كانت الوثنية ضلالاً فأين الهداية؟

وإذا ترك اللات والعزى وهبل فإلى أين يتجه؟

ويستولي عليه شعور ديني، ويغمره فيض من التطلع إلى المعرفة، فلا يجد مفراً من الهجرة يستنشئ في أثنائها الصدق ويلتمس عند غيره من يرشده إلى سبيل الله القويم

وقصة ابتدائه توضح لنا - سواء أصحت أم لم تصح - الكثير من جوانب نفسه، ومما كان يشعر به نحو اليهودية والنصرانية حينئذ

وها هي ذي كما رواها صاحب الأغاني:

إن زيد بن عمرو خرج إلى الشام يسأل عن الدين لكي يتبعه فلقي عالماً من اليهود، فسأله عن دينهم فقال: لعلي أدين بدينكم، فأخبرني بدينكم

فقال اليهودي: إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله

فقال زيد بن عمرو: لا أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً، وأنا أستطيع، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا؟!

قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً

قال: وما الحنيف؟

قال: دين إبراهيم.

فخرج من عنده وتركه، فلقي عالماً من علماء النصارى فقال له نحواً مما قال لليهودي

فقال له النصراني : إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله

فقال : إني لا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً وأنا أستطيع ، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا

فقال له نحواً مما قال اليهودي ، لا أعلمه إلا أن يكون حنيفاً

فخرج من عندهم وقد رضي بما أخبراه ، واتفقا عليه من دين إبراهيم ، فلما برز رفع يديه وقال :

اللهم إني على دين إبراهيم

ستمر زيد يجاهد في سبيل الوصول إلى الله

كان يجاهد تارة بمنطقه وتفكيره ، وتارة يسأل كل من يصادفه من ذوي المعرفة الدينية ، كان يسأل الناس إذا أقام ، ويسألهم إذا ارتحل ، حتى انتهى في النهاية إلى مذهب اطمأنت إليه نفسه فخاطب قريشاً قائلا

« يا معشر قريش ، والذي نفسي بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري »

ويقول الدكتور (طه حسين) عن زيد :

إنه كان «رجلا رقيقاً ، ليناً ، مرهف الحس ، ذكي القلب ، نقي الطبع ، مستعداً للإيمان الصادق ، مبغضاً للقديم ، شديد النشاط للتجديد ، شك في وثنية قومه ، ثم جحدها ، والتمس ديناً صفواً ، وملة نقية ، وجعل ينكر على قريش ما كانت فيه ، فكانت قريش تسمع منه وتعرض ، ولا تحفل بما كان يقول

وكان الخطاب بن نفيل ثبت له ، ثم قاومه ، ثم جد في فتنته حتى أشقاه ، ثم حبسه في مكة ، ثم أغرى به الشباب حتى اضطره إلى أن يستخفي ، وأن يحتال في الفرار من مكة ، ليلتمس ما كان يحب من دين من عند اليهود والنصارى [1]

وقد فر زيد بدينه الجديد أو باستعداده للدين الجديد وجعل يلتمس ما يحب عند اليهود مرة ، وعند النصارى مرة ، حتى استيئس من أولئك وهؤلاء . . . »

(١) عن مجلة الهلال سنة ١٩٣٧ م

كيف انتهى زيد إلى حقيقة مذهبه ؟ وماذا كان سبيله إلى الاطمئنان الروحي ؟
وماذا كان يرى في مشكلة النفس ، ومشكلة المصير ، ومشكلة الغاية
عن كل ذلك يصمت التاريخ .

ولكن الذي لا شك فيه أنه قد اطمأنت نفسه إلى منطق ، أو إلى إلهام في
يتعلق بما وراء الطبيعة

ولم يكن زيد الوحيد في جزيرة العرب الذي بحث عن الله ، بل كان هناك كثير غيره ، كان هناك

أمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور

وكان على حسب ما يروي صاحب الأغاني

« قد نظر في الكتب وقرأها ، ولبس المسوح تعبداً »

وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية ، وحرم الخمر وشك في الأوثان

وكان محققاً ، والتمس الدين ، وطمع في النبوة ، لأنه قرأ في الكتب أن نبياً
يبعث من العرب ، فكان يرجو أن يكون هو »

وشعره حافل بذكر الرسل والأنبياء ، والجنة والنار والثواب والعقاب ، حتى
لقد قال ابن سلام

« كان أمية كثير العجائب ، يذكر في شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر
الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء ! »

ونحن وإن لم نصدق كل شعره فقد دلنا ما جمعه منه الأستاذ شلتس على كثير
من منازعه ، ومن شعره الذي يدل على اتجاهه :

ألا أيها الإنسان إياك والردى	فإنك لا تخفى من الله خافيا
وإياك لا تجعل مع الله غيره	فإن سبيل الرشد أصبح باديا
رضيت بك اللهم رباً ، فلن أرى	أدين إلهاً غيرك الله ثانيا
أدين لرب يستجيب ، ولا أرى	أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا
وأنت الذي من فضل منٍّ ورحمة	بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له اذهب وهارون فادعوا	إلى الله فرعون الذي كان طاغيا

وقولا له : أأنت سويت هذه ... بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له : أأنت رفعت هذه ... بلا عمد أرفق إذا بك بانيا
وقولا له : أأنت سويت وسطها ... منيراً إذا ما جنه الليل هاديا
وقولا له : من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له : من ينبت الحب في الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رءوسه ... وفي ذلك آيات لمن كان واعيا
وأنت بفضل منك نجيت يونساً ... وقد بات في أضعاف حوت لياليا
وإني لو سبحت باسمك ربنا ... لأكثر إلا ما غفرت خطائيا

ويقول مترجمه في دائرة المعارف الإسلامية

« إنه يمكن قسمة قصائده بحسب موضوعها إلى قسمين كبيرين : أصغرهما يتكون من قصائد وأبيات قيلت في مدح أشخاص ، وبخاصة في مدح رجل من أغنياء مكة هو عبد الله بن جدعان ، وهي لا تختلف في جوهرها ومصادرها عند غيره من شعراء العرب القدماء .

أما القسم الأكبر الذي يبدأ بالقصيدة الثالثة والعشرين من طبعة شلتس فيدل دلالة كاملة على النزعة التي يمكن تسميتها بالحنيفية .

وأساسها القول بإله واحد ، وهو رب العباد ، ونرى فيها صوراً شتى مما يوحي عن مقام الله وملائكته . وحكايات عن الخلق وآراء تتعلق بيوم القيامة والجنة والنار . وفيها دعوة إلى عمل الخير . وإشارات إلى غير أحد بعضها من أخبار العرب عن عاد وثمود . وبعضها من قصص التوراة عن الطوفان وإبراهيم ولوط وفرعون .

وابن أبي الصلت مولع إلى جانب هذا ببعض حكايات على ألسنة الحيوانات ويلاحظ في شعره أيضاً ذكراً للأعمال السحرية »

وكان أمية - كما كان زيد - يريد دين إبراهيم ، فلم يكن يهودياً ولا نصرانياً وهو يثبت هذا في غير لبس ولا إبهام بقوله

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور ولكنه على خلاف ما ك

متوقع قد عادى الرسول ، وحاربه فغلبت عليه شقوته ، وصح فيه قول رسول الله :

« آمن شعره وكفر قلبه »

ويخيل إلينا أنه قد ندم فى آخر حياته ندماً شديداً على موقفه ذلك من الرسول ، فتمنى أن لو كان – بدل معرفته وعلمه – راعياً فى رءوس الجبال يرعى الوعول ، لقد قال وهو على فراش الموت هذا الشعر البائس الحزين الرائع

كل عيش وإن تطاول دهراً منتهى أمره إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى فى رءوس الجبال أرعى الوعولا
جعل الموت نصب عينيك ، واحذر غولة الدهر إن للدهر غولا

وكان أبو قيس بن أبى أنس من الحنفاء ، وهو من بنى النجار ، وكان ترهب ولبس المسوح ، وفارق الأوثان وهم بالنصرانية ، ثم أمسك عنها ودخل بيتاً له ، فاتخذه مسجداً لا يدخله طامث ولا جنب وقال : أعبد رب إبراهيم

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلم وحسن إسلامه ، وقال فى رسول الله ﷺ شعراً يمتدحه [١]

ومن الحنفاء خالد بن سنان وهو من بنى عبس ، ويقول ابن قتيبة . وروى أن رسول الله ﷺ قال :

ذلك نبى أضاعه قومه .

وأتت ابنته رسول الله ﷺ فسمعته يقرأ : (قل هو الله أحد) فقالت : كان أبى يقول ذا [٢] .

بعض من رأى التدين بالنصرانية

وكانت النزعة إلى الحنيفية شائعة فى جزيرة العرب ، ولكن من العرب من رأى التدين بالنصرانية أو اليهودية ، بيد أنهم لم يكونوا يدينون بواحدة منها إلا بعد أن يجولوا فى شعب التفكير ، ويضلوا فى متاهات ما وراء الطبيعة : فيروا بعد بحث وتفكير أن الأسلم التزام دين يأمنون فى رحابه من ضلال الأوهام

(١) المعارف لابن قتيبة ص ٢٨ (٢) المعارف لابن قتيبة ص ٢٩

ذكر ابن هشام المتوفى بالفسطاط سنة ٢١٨ هـ في سيرته ص ٢٣٧

قال ابن إسحق: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده ويديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً.

فخلص منهم أربعة نفر نجياً، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل. وهم: ورقة بن نوفل ... وعبد الله بن جحش بن رئاب ... وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل ... فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم! ما حجر نطيف به لا يسمع ... ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم، التمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شيء. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم

فأما ورقة بن نوفل، فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب

وأما عبد الله بن جحش ... فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ... فلما قدمها تنصر...

وأما عثمان بن الحويرث ... فقدم على قيصر ملك الروم، فتنصر وحسنت منزلته عنده.

وأما زيد بن عمرو بن نفيل: فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان، والميتة والدم، والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد رب إبراهيم ... وبادى قومه بعيب ما هم عليه»

كان من هؤلاء ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو عربي أصيل من ذروة بيوتات قريش.

وهو كما يروى صاحب الأغاني «أحد من اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية وطلب الدين، وقرأ الكتب، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان»

طلب ورقة الدين ، ولم يكتف فى طلبه باللغة العربية ، بل لعل اللغة العربية إذ ذاك لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة فتعلم العبرانية «وكان يكتب الكتب العبرانى ، فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب» .

ولم يكن أمر معرفته وعلمه مجهولا بين قومه ، ولذلك انطلقت خديجة بنت خويلد إليه بالنبى ﷺ لتستفسر عما عرض للرسول من أمر الوحى ، فأفادها وطمأنها ، وتمنى أن لو عاش حتى يرى الرسول قد أمر بنشر دعوته ، فينصره نصراً مؤزراً .

وكان ورقة شاعراً ناصع التفكير فى شعره ، ومثال ذلك قوله :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم	أنا النذير ، فلا يغرركم أحد
لا تعبدن إلها غير خالقكم ،	فإن دعوكم فقولوا بيننا حدد [1]
سبحان ذى العرش ، سبحانا نعود به	وقبل قد سبح الجودى [2] والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له	لا ينبغى أن يناوى ملكه أحد
لا شىء مما ترى تبقى بشاشته	يبقى الإله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه	والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ دان الشعوب له	والجن والإنس تجرى بينها البرد [3]

ويروى أن رسول الله ﷺ سئل عنه فقال : «قد رأيته فى المنام كأن عليه ثيابا بيضا ، فقد أظن أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض» .

لم يكن أمثال ورقة ، وأمثال زيد من المتدينين فى العرب ، ولم يكونوا يسخطون بآرائهم ، فكثيراً ما كان يدور النقاش بينهم وبين قومهم ، فضلا عن دورانه بين بعضهم وبعض .

ولقد عاب زيد فى يوم ورقة على اعتناقه النصرانية ، وأراد منه التخلى عنها فقال : «إنما أستمر على نصرانيتى رجاء أن يأتى النبى الذى تبشر به الأحبار» .

---

(١) المنع
(٢) الجودى والجمد جبلان
(٣) البرد جمع بريد وهو الرسول

وحين اطمأن زيد إلى التوحيد، وأعلن ذلك قال ورقة له

رشدت وأنعمت ابن عمرو، وإنما تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك رباً ليس رب كمثله وتركك جنّان(١) الجبال كما هيا

٢

الحكماء :

كان الطابع العام لهؤلاء الذين ذكرنا هو البحث عن السبيل المستقيم، والتطلع إلى الهداية السماوية. ولكن ميدان التفكير الناضج في أرجاء الجزيرة العربية كان أوسع من أن يكون مقصوراً على هؤلاء.

يقول الشهرستاني: «ومنهم ـ أي الفلاسفة ـ حكماء العرب، وهم شرذمة قليلة، لأن أكثرهم حكمتهم فلتات الطبع، وخطرات الفكر وربما قالوا بالنبوات»

وحكماء العرب هؤلاء هم العلماء الذين يرجع إليهم فيما يعرض من مشاكل. وهم في الجملة: أعظم العرب حظاً في الثقافة.

وكان مثلهم في الحكمة مثل حكماء اليونان، فقد أثرت عنهم الحكم القصيرة التي تركزت فيها التجربة والحكمة، مثل «مقتل الرجل بين فكيه»

«من طلب شيئاً وجده وإن لم يجده يوشك أن يقع قريباً منه»

«الحرب خدعة»

«إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى!»

وإذا ما قارن هؤلاء الحكماء بمن كانوا يماثلهم من حكماء اليونان وجدنا أنهم يتشابهون في كثير من النواحي. يقول أفلاطون:

واجتمعوا ـ أي الحكماء ـ في دلف وأرادوا أن يقدموا لأبولون في هيكله بواكير حكمته، فاختصروه بالآيات التي يرددها الناس الآن مثل

«اعرف نفسك» و«لا تسرف» و«الصلاح عسير» فكانوا مصيبين

---

(١) جنان الجبال: الذين يأمرون بالفساد من شياطين الجن

ومشرعين، ولم يكونوا فلاسفة بمعنى الكلمة[1]

وكذلك كان حكماء العرب.

وقد روي عن حكماء العرب بعض الآراء التي تدل على تفكيرهم

كان منهم عامر بن الظرب الذي يقول فيه الميداني: «كان من حكماء العرب، لا تعدل بفهمه فهماً ولا بحكمه حكماً»

ومن كلامه في استدلاله على وجود الله وعلى تصرفه بالكون:

«إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء».

ومن حكماء العرب أكثم بن صيفي بن رباح

وكان من حديثه كما ذكر الألوسي أنه لما ظهر النبي ﷺ بمكة ودعا إلى الإسلام بعث أكثم ابنه حبيشاً، فأتاه بخبره، فجمع بني تميم وقال:

يا بني تميم، لا تحضروني سفيهاً، فإنه من يسمع يخل[2]، إن السفيه يوهن من فوقه ويثبط من دونه، لا خير فيمن لا عقل له. كبرت سني ودخلتني ذلة، فإذا رأيتم مني حسناً فاقبلوه، وإن رأيتم مني غير ذلك فقوموني أستقم.

إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة، وأتاني بخبره، وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله تعالى، وخلع الأوثان، وترك الحلف بالنيران، وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه.

إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم، فإن يكن الذي يدعو إليه حقاً فهو لكم دون الناس، وإن يكن باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه وبالستر عليه. وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله، وسمى ابنه محمداً، فكونوا في أمره أولاً ولا تكونوا آخراً، ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين.

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص٨

(٢) «من يسمع يخل» أي من يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقع في نفسه عليهم المكروه. من مجمع الأمثال للميداني

ن الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً لكان فى أخلاق الناس حسناً أطيعونى واتبعوا أمرى ، أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبداً ، وأصبحتم أعز حى فى العرب ، وأكثرهم عدداً ، وأوسعهم داراً ، فإنى أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذل . ولا يلزمه ذليل إلا عز . إن الأول لم يدع للآخر شيئاً وهذا أمر له ما بعده ، ومن سبق إليه غمر المعالى واقتدى به التالى والعزيمة حزم ، والاختلاف عجز

فقال مالك بن نويرة : قد خرف شيخكم

فقال أكثم : ويل للشجى من الخلى وهى على أمر لم أشهده ولم يسبقنى مذهب مثلاً

وكان منهم قس بن ساعدة الذى يقول فيه رسول الله ﷺ : كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق ، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ، ما أحفظنى أحفظه ، وخطبته بسوق عكاظ مشهورة « أيها الناس اسمعوا وعوا ... إلخ »

ودليله على وجود الله أيضاً مشهور إنه يستدل بالأثر على المؤثر

وهو يصف الإله فيقول : كلا بل الله إله واحد ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، وإليه المآب غداً

ثم ينشد :

يا باكى الموت والأموات فى جدث عليهمو من بقايا بزهم خرق

دعهم ، فإن لهم يوماً يصاح بهم كما ينبه من نوماته الصعق

وأما عبد المطلب جد الرسول وهو من حكماء العرب المشهورين فقد رويت عنه سنن أقر القرآن أكثرها كالمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى عن قتل الموءودة (١)

ولم تكن الناحية الأخلاقية مهملة لدى الشعراء ، وزهير بن أبى سلمى يتحدث عنها فى كثير من شعره ، وهو القائل :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر ، فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب ، أو يعجل ، فينقم

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١١٠

ويقول في تصوير الحرب والدعوة إلى السلم :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم [١]
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضرى إذا ضريتموها فتضرم [٢]
فتعرككم عرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشافا ، ثم تنتج فتتئم [٣]
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمر عاد ، ثم ترضع فتفطم [٤]
فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها ... قرى بالعراق من قفيز ودرهم [٥]

٣

رأي الحمس :

وإذ كان ما سبق يعتبر من الجوانب المحدودة برغم كثرته فإن قريشاً قد غمرتها نزعة روحانية ، ففكرت في أمر الدين وقداسته ، والبيت وحرمته . وبعد تأمل وتروٍّ – ابتدعت رأي الحمس

والحمس جمع أحمس . والأحمس – كما يقول صاحب المختار – هو الشديد الصلب في الدين والقتال ، ولم يكن هذا الرأي الذي ابتدعوه إلا تحمساً دينياً ، وعاطفة روحانية قوية

وكانوا يذهبون فيه – كما يقول السهيلي – « مذهب التأله والتزهد » وكان مثلهم في ذلك مثل من قال الله فيهم (ورهبانية ابتدعوها) سورة الحديد / ٢٧

قال ابن إسحق « وقد كانت قريش – لا أدري قبل عام الفيل أم بعده – ابتدعت

---

(١) المرجم من الحديث : المقول بطريق الظن ، لا عن تحقيق أي : وما حديثي عن الحرب وتخويفكم ويلاتها بالحديث المفترى ، بل أنتم قد علمتم ويل الحرب وذقتموها

(٢) متى تهيجوا الحرب تهيجوها مذمومة ويشتد حرها وتضطرم نارها

(٣) الثفال : جلدة توضع تحت الرحى . كشافا : تلقح مرتين متواليتين . تتئم : تلد توأمين والمعنى : تحمل مرتين في عامين متتاليين وتلد في كل مرة توأمين

(٤) أي أمر هذه الحرب يطول وينتج لكم غلمان كلهم في الشؤم كمثل عاقر ناقة صالح عليه السلام وتعيش هذه الغلمان حتى ترضع وتفطم ، يريد بذلك أن يكنى عن طول الحرب وشرورها

(٥) وهي تغل الحب الذي يكال بالقفيز ، أو يباع بالدرهم إذ هي لا تنتج إلا الموت والهلاك

رأى الحمس رأياً رأوه ، وأداروه ، فقالوا نحن بنو إبراهيم ، وأهل الحرمة ، وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم ، وقالوا قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم

فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها ، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ﷺ ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها ، وأن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا نحن أهل الحرم ، وليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ، ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس ، والحمس أهل الحرم » اهـ .

ولقد كانوا في سبيل ذلك يشقون على أنفسهم ، ويشقون على غيرهم فيحرمون على أنفسهم أشياء ، ويفرضون عليها أخرى ، وكذلك كانوا يفعلون بالنسبة للحاج وللمعتمر

قال ابن إسحق « ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن لهم حتى قالوا لا ينبغي للحمس أن يأتقطوا الأقط [1] ولا يسلئوا السمن وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم [2] ما كانوا حرماً

ثم رفعوا في ذلك فقالوا لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرام إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً ، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس ، فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها ، ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً .

فحملوا على ذلك العرب ، فدانت به ، ووقفوا على عرفات ، وأفاضوا منها وطافوا بالبيت عراة أما الرجال فيطوفون عراة ، وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها

(١) الأقط اللبن لا يصنعون الجبن ولا يصنعون السمن

(٢) بيوت الأدم الأخبية التي تصنع من الجلد

كلها إلا درعاً مفرجاً عليها ثم تطوف فيه

وكان الغرض من طوافهم عراة ، إن لم يجدوا ثياب أحمس ، هو خلع الثياب التي اقترفوا فيها الذنوب ، فقد تدنست كما أنها من معصية.

٤

حلف الفضول

هذه العاطفة الدينية معها كلازم من لوازمها – عمل أخلاقي كريم قد بلغ من السمو حداً لا يكاد يحدث في التاريخ إلا نادراً . إنما نريد أن نتحدث عن حلف الفضول . قال صاحب الروض الأنف :

وكان حلف الفضول [1] هذا قبل المبعث بعشرين سنة ، وكان أكرم حلف وأشرفه ، وأول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب .

وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاصي بن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف : عبد الدار ، ومخزوماً وجمحاً وسهماً ، وعدي بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على العاصي ، وزبروه (انتهروه) فلما رأى الزبيدي الشر أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر ، لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر !
إن الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال

(١) ذكروا في سبب تسمية هذا الحلف بهذا الاسم أن جرهم في الزمن الأول ، قد سبقت قريشاً إلى مثل هذا الحلف ، فتحالف منهم ثلاثة هم ومن تبعهم ، أحدهم الفضيل بن فضالة ، والثاني الفضل بن وداعة ، والثالث الفضيل بن الحارث . وقيل بل هم الفضيل بن شراعة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن قضاعة . فلما أشبه حلف قريش هذا حلف هؤلاء الجرهميين سمي حلف الفضول .

وقيل بل سمي كذلك لأنهم تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها ، وألا يغزو ظالم مظلوماً

ما هذا منزلك !

فاجتمعت هاشم ، وزهرة ، وتيم بن مرة ، في دار ابن جدعان فصنع لهم طعاماً وتعاقدوا ، وكان حلف الفضول ، وكان بعدها أن انتصروا للزبيدى من العاصى [1] ،

ويقول ابن هشام راوياً عن ابن إسحاق .

تداعت قبائل من قريش إلى حلف ، فأجمعوا له في دار عبد الله بن جدعان بن عمرو لشرفه وسنه ، فكان حلفهم عنده (بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة) فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه ، حتى ترد إليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول »

كان بحق – كما يقول السهيلى أكرم حلف وأشرفه . ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ في شأنه :

« لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت » .

---

(١) عن الروض الأنف

الفصل الثاني

تصحيح الفكرة العامة عن العرب

الفكرة العامة عن العرب وتصحيحها :

ومع كل ذلك فإنه لا يخفى علينا أن الفكرة العامة عن العرب هي أنهم كانوا في تدهور ديني لا حد له .

لقد كانوا يشربون الخمر

وكانوا يعبدون الأصنام ، كانوا يعبدون قطعاً من الحجارة منحوتة بأيديهم ، ويدعونها آلهة ويعبدونها .

وهل من دليل على تدهورهم الديني أوضح من تركهم أبرهة يسير إلى البيت الذي يقدسونه ويعظمونه ليهدمه بدون أن يجشموا الحسام لصده ؟ إنهم تركوه وما يريد دون أن يثيروا عليه شعواء !

هذه شبهات تعلق بالذهن وتثار في كل آونة ، ولابد من أن نتحدث عنها .

أما الخمر فقد تركها طائفة في الجاهلية ، ودعت إلى تركها ، ومنهم قيس بن عاصم التميمي ، وصفوان بن أمية الكناني ، وعفيف بن معد يكرب الكندي ، وغيرهم ومما يقول قيس فيها :

وجدت الخمر جامحة وفيها   خصال تفضح الرجل الكريما

إلى آخر القصيدة

أما الأصنام فلم يكن العرب يعبدونها لذاتها ، ولم تكن عندهم مجرد قطعة من حجر ، وإنما اتخذوها على (شكل الهياكل العلوية[1]) فكانوا يعبدونها باعتبارها رمزاً « للهياكل العلوية » .

وكانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى

أما مسألة تركهم أبرهة فإن الصورة التي عند العامة في هذا الأمر غير صحيحة ، ولنحو والتاريخ يقول :

إن أبرهة أراد أن يصرف العرب عن الحج إلى بيت الله الحرام ومن أجل ذلك

---

(١) الشهرستاني

« بنى – كما يقول ابن هشام – القليس بصنعاء ، فبنى كنيسة[1] لم يُرَ مثلها في زمانها بشيء من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب »

وتحدث العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي وثار بهم الغضب ، فخرج رجل من كنانة حتى أتى القليس فقعد فيها – أي أحدث فيها – يريد أن يعرف أبرهة أنها ليست لذلك بأهل ».

وكان ما فعل هذا الكناني يعبر عما كان يريده كثيرون من العرب إذ ذاك ، ولكنه أغضب أبرهة غضباً لا حد له ، وحلف ليهدمن البيت الحرام . ويدع بعد ذلك ابن هشام يتحدث :

« وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقًّا عليهم حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة ، بيت الله الحرام .

فخرج إليهم رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له (ذو نفر) ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة ، وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخرابه ، فأجابه إلى ذلك من أجابه ، ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو نفر وأصحابه . .

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلة خثعم : شهران ، وناهس ، ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة .

فلما نزل أبرهة المغمس (بالقرب من مكة) همت قريش وكنانة وهذيل ، ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك »

ترى من هذا أن العاطفة الدينية عند العرب لم تكن فاترة ضعيفة إلى الحد الذي يتصوره بعض المؤرخين والكتاب

---

(١) سميت القليس لارتفاع بنائها ، وعلوها ، وكان أبرهة ينقل إليها الرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان في موضع هذه الكنيسة على فراسخ ، وكان يستخدم مع أهل اليمن العنف الذي لا حد له ، حتى إنه كان يقطع يد العامل إذا طلعت عليه الشمس قبل أن يأخذ في عمله

٢

الأديان في جزيرة العرب

على أن لدينا سبيلا إلى أن نلاحظ أن جزيرة العرب لم تكن كلها وثنية «فكانت النصرانية في ربيعة وغسان، وبعض قضاعة.

وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة.

وكانت المجوسية في تميم، منهم زرارة، وحاجب بن زرارة، ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسياً.

وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة»[1].

ومن العرب من كان يدين بالرجعة، يقول صاحب لسان العرب: «والرجعة مذهب قوم من العرب في الجاهلية معروف عندهم».

ولم يكن القول بالجبر أو القول بالاختيار بعيداً عن العقلية العربية.

يقول يحيى بن متى راوية الأعشى: كان الأعشى قدرياً وكان لبيد مثبتاً، قال لبيد:

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

وقال الأعشى:

استأثر الله بالوفاء وبالعدل وولى الملامة الرجلا

والحق أن جزيرة العرب لم تكن، كما يظن عادة، بمعزل عن التفكير الديني القوي إنكاراً وجحوداً، أو إثباتاً وتأييداً. وسنرى فيما بعد إيضاحاً لجوانب أخرى من تفكيرهم الديني عندما نتحدث عن موقف القرآن منهم.

ونريد الآن أن نذكر آراء بعض الكتاب في شأن العرب بالنسبة له فيما ذكرنا.

---

(١) ابن قتيبة: كتاب المعارف.

٣

بعض الآراء عن العرب

يقول الجاحظ: «وذكر الله تعالى حال قريش في بلاغة المنطق ورجاحة الأحلام، وصحة العقول

وذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء[1] والمكر، ومن بلاغة الألسنة واللدد عند الخصومة فقال

(فإذا ذهب الخوفُ سلقوكم بألسنة حداد)[2]

ثم ذكر خلابة ألسنتهم واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم فقال

(وإن يقولوا تسمع لقولهم)[3] ثم قال:

(ومن الناس مَن يعجبك قوله في الحياة الدنيا) البقرة/٢٠٤ مع قوله

(وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل[4]) البقرة/ ٢٠٥

وقال جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية

«وقد يتبادر إلى الذهن أن أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجية لبعدهم عن التمدن، وانقطاعهم للغزو والحرب، ولكن يظهر مما وصل إلينا أنهم كانوا كبار العقول، أهل ذكاء، ونباهة واختبار وحكمة، وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم، وهي تدل على صفاء أذهانهم وصدق نظرهم في أحوال الإنسان بما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة. فإن قول زهير بن أبي سلمى في معلقته «رأيت المنايا خبط عشواء» إلى قوله:

«وإن خالها تخفى على الناس تعلم[5]» لا يقل شيئاً عن أحكام أكابر الفلاسفة» جزء ١ ص ٢٩.

---

(١) النكراء: الدهاء والفطنة

(٢) سورة الأحزاب آية ١٩

(٣) سورة المنافقون آية ٤

(٤) البيان والتبيين ج ١

(٥) نذكر هنا الأبيات التي أشار إليها الكاتب نقلاً عن كتاب المعلقات ليرى القارئ بنفسه مبلغ ما وصل إليه زهير من عمق

ويقول فضيلة الشيخ محمد خضر حسين شيخ الأزهر الأسبق

« في الشعر الجاهلي معان سامية وحكمة صادقة . ومن تقرأه خالي الذهن من كل ما قيل فيه يقضي العجب من ذكاء منشئيه وسعة خيالهم . وإنصائهم لطرق تأليف المعاني والتصرف في فنون الكلام »

وكما عتمد الجاحظ على القرآن فيما ذكرناه له من رأي سابق – فإن الدكتور (طه حسين) يرى أن القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية

وهذه القضية – كما يقول الدكتور (طه حسين) غريبة حين تسمعها ، ولكنها بديهية حين تفكر فيها قليلاً

فليس من اليسير أن نفهم أن الناس قد أعجبوا بالقرآن حين تليت عليهم آياته ، إلا أن تكون بينهم وبينه صلة – هي هذه الصلة التي بين الأثر الفني البديع وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون إليه

وليس من اليسير – أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن وناهضوه وجادلوا النبي فيه إلا أن يكونوا قد فهموه ، ووقفوا على أسراره ودقائقه

وفي القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من الوثنية

وفيه رد على اليهود

= سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولاً – لا أبا لك – يسأم
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه ... إلى مطمئن البر لا يتجمجم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف في غير أهله ... يكن حمده ذماً عليه ويندم
ومن يعص أطراف الزجاج فإنه ... يطيع العوالي ركبت كل لهذم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدواً صديقه ... ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وفيه رد على النصارى

وفيه رد على الصابئة والمجوس

وهو لا يرد على يهود فلسطين، ولا على نصارى الروم ومجوس الفرس، وصابئة الجزيرة وحدهم، وإنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم في البلاد العربية نفسها.

ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها، وإنما يمثل شيئاً آخر غيرها لا نجده في هذا الشعر الجاهلي، يمثل حياة عقلية قوية، يمثل قدرة على الجدال والخصام أنفق القرآن في جهادها حظاً عظيماً:

أليس القرآن قد وصف أولئك الذين كانوا يجادلون بقوة الجدل، والقدرة على الخصام، والشدة في المحاورة؟

وفيم كانوا يجادلون ويخاصمون ويحاورون؟ في الدين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفقوا لحلها: في البعث، في الخلق، في إمكان الاتصال بين الله والناس، في المعجزة وما إلى ذلك.

ويمضي الدكتور (طه حسين) في الحديث عن تصوير القرآن للأمة العربية من الناحية الاقتصادية ومن ناحية اتصال العرب بغيرهم من الأمم، ويتمشى مع القرآن في أن العرب لم يكونوا كلهم سواء واحدة، بل كان فيهم الأعراب في جفوتهم وغلظتهم وإمعانهم في الكفر والنفاق، وقلة حظهم من العاطفة الرقيقة التي تحمل على الإيمان والتدين.

(الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله)[1]

ونعود إلى الجاحظ في مقارنة له بين العرب في عصرها الجاهلي وغيرهم من الأمم. وهذه المقارنة قد اعتقد قوم أنها مقارنة بين العرب كجنس أى بين العرب في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم وبين غيرهم ولكن ذلك خطأ واضح

فالجاحظ يقارن بين العرب في طور من أطوارهم هو الطور الجاهلي فحسب وبين غيرهم، ولذلك لم يتحدث في هذه المقارنة عن الدين، أو فلسفة الكندى وهو

---

(١) سورة التوبة آية ٩٧

عربي صميم أو نسميه المعتزلة ، فقد كانوا منها على حظ وافر

ولم يتحدث عن تشريع أبي حنيفة أو الشافعي ، وقد كان في ذلك – لو أراد – ميدان من أخصب الميادين لتأييد رأيه

يقول الجاحظ : « إن الهند لهم معان مدونة ، وكتب مجلدة ، لاتضاف إلى رجل معروف ، ولا إلى عالم موصوف ، وإنما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة

ولليونان فلسفة ، ولكن صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان ، ولاموصوف بالبيان

وفي الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد وخلوة

وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولامكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام فتأتيه المعاني إرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا » .

من كل ما سبق نرى أن العرب لم يكونوا – كما يظن كثير من الناس – أهل جهل مطبق أو ضلالة شاملة ، وإنما كانوا أصحاب شعر وحكمة ودين ، كان فيهم بلاغة المنطق ، ورجاحة الأحلام ، وصحة العقول ، وشعور ديني قوي يضحون في سبيله بأموالهم وأنفسهم

٤

العرب على حسب ما نعتقد :

أما مانريد أن ننتهي إليه من كل ماسبق فهو الرأي الذي رآه فضيلة المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية »

« ومهما يكن من أمر العرب عند ظهور الدين المحمدي فإنهم لم يكونوا في سذاجة

الجماعات الإنسانية الأولى من الناحية الفكرية التي تهمنا ، يدل على ذلك ما عرف من إيمانهم وماروى من آثارهم الأدبية .

وكان العرب عند ظهور الإسلام يتشككون بأنواع من النظر العقلي شبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العميقة ، لاتصالها بما وراء الطبيعة من الألوهية وقدم العالم أو حدوثه والأرواح ، والملائكة ، والجن ، والبعث ، ونحو ذلك .

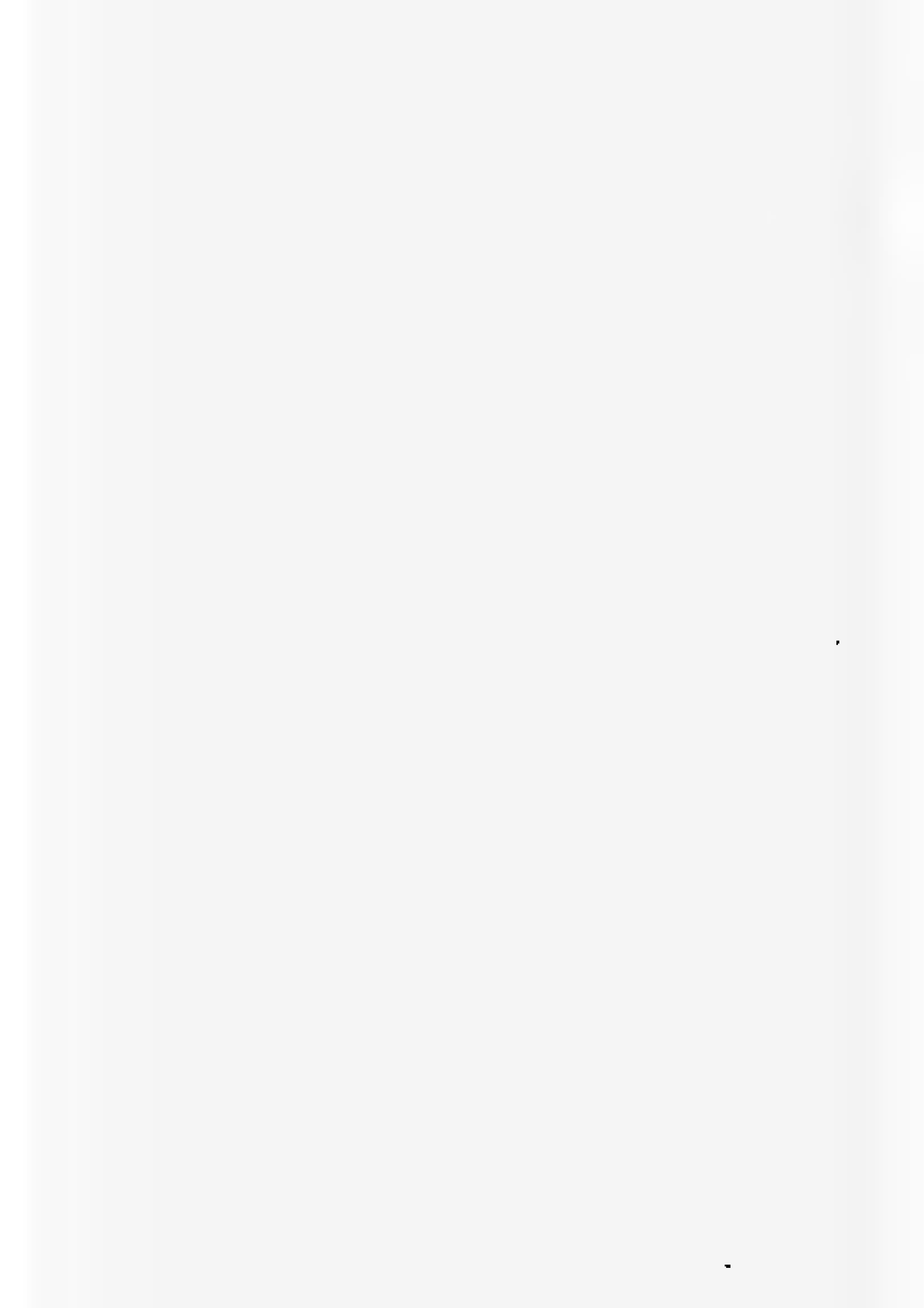
٥

الدهماء لايمثلون الأمة :

ومع ذلك فإن من الحق العلم أن الأكثرية العظمى في جزيرة العرب كانت من البدو الرحل الذين شغلهم البحث وراء لقمة العيش عن التفكير في الدين وفيما وراء الطبيعة . وليس من الطبيعي أن تنتظر من شخص يقاسي في عنف شظف الحياة أن يفكر تفكيراً مجرداً .

إن الأغلبية العظمى من جزيرة العرب صحراء قاحلة ، وليس لساكنيها استقرار ما ، وليس لها أمن مستتب ، والحروب والغارات في حدها ووهادها لاتكاد تنقطع ، فمن الطبيعي ألا يكون عند هؤلاء أوقات فراغ يقضونها في التفكير فيما وراء الطبيعة .

ولكن إذا كنا لا نتخذ من عقلية الفلاح الحافي القدمين الذي يقوس انحناؤه على الفأس ظهره مثالاً لحضارة المصريين وثقافتهم ، سواء كان ذلك في العصر القديم ، أو في العصر الحديث ، وإذا كنا لانتخذ من الفرنسي الريفي الجاهل مثالاً لحضارة فرنسا وثقافتها ، فإنه من غير الطبيعي أن يكون البدو الرحل مقياساً للثقافة العربية قبل الإسلام .



الفصل الثالث

فى العقيدة

١

وصف القرآن :

كانت جزيرة العرب – كما تحدثنا سابقاً – تعج بمختلف الآراء الدينية ، كان فيها النصرانية واليهودية والحنفاء ، وكان فيها الزندقة والدهرية ، ومن ينكرون البعث ، ومن ينكرون إرسال الرسل ، وكان فيها من يقول بالرجعة ، ومن يقول بالجبر ، ومن يقول بالاختيار .

كان فيها توحيد وإلحاد ومؤمنون ومشركون . ولكن هؤلاء وأولئك كانوا جميعاً يتطلعون لرقة شرق عليهم فتبدد حيرتهم ، وتحسم ما بينهم من جدل واختلاف .

في هذه الآونة قام رسول الله ﷺ بدعوته ، ودعوته لم تنشأ عن تفكير إنساني شخصي ، إنما هي وحي أنزل عليه .

وهي معصومة لأنها وحي ، إنها معصومة عن التخبط في الآراء ، معصومة عن متاهات الخيال .

والقرآن وهو كتابها المقدس يقول فيه رسول الله ﷺ كما روى عن علي رضي الله عنه :

« عليكم بكتاب الله فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله .

هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم .

هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه .

من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به أفلح ، ومن دُعي إليه هدي إلى صراط مستقيم » ا . هـ

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن هذا القرآن

مأدبة الله ، فاقبلوا مأدبته ما استطعتم .

إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولاتنقضي عجائبه ولايخلق من كثرة الرد .

اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته ، كل حرف عشر حسنات . أما إني لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » رواه الحاكم

٢

تواتر القرآن .

وقد وصل إلينا القرآن بطريق التواتر ، بحيث لا يمكن الشك مطلقاً في أنه وصل إلينا كما نزل على سيدنا محمد ﷺ ، دون زيادة أو نقص .

والمستشرقون — برغم تحامل الكثيرين منهم على الإسلام — لايجدون مطعناً صحيحاً من تلك الجهة أبداً .

ولقد قال المستشرق الفرنسي الأستاذ «ديرمنجم» بحق ، في كتابه عن الإسلام .

إن المصحف لامناص له من أن نقرر بأن القرآن الحاضر هو القرآن الذي كان يتلوه محمد ﷺ

٣

السبب في أن مهمة الرسول كانت شاقة .

ومع استشراف نفوس العرب إلى هاد يقودهم إلى السبيل السوي فإن مهمة الرسول ﷺ لم تكن سهلة ميسورة ، وذلك

(١) لأن النفوس إذا ألفت شيئاً فترة طويلة من الزمن لم يكن من السهل انصرافها عنه .

والإله لا يعقل ولا ينطق هو الذي يعرقل دائماً عمل مصلحين خلال التاريخ .

(ب) وكان التنافس بين الأسر في قبيلة واحدة ، وبين القبائل المختلفة من العوامل أيضاً التي دفعت الكثيرين إلى المعارضة

(ح) ورأى اليهود أن اعتزازهم بدينهم سينهار إذا انتشر الدين الجديد

(د) ورأى النصارى أن مصير دينهم هو الآخر الاندثار

(هـ) وضاق تفكير طائفة كبيرة من العرب ، فلم يروا العظمة إلا في الثروة ، ولم يكن محمد ، ﷺ ، ثرياً ، فقالوا .

(لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)[1]

وتضامنت عوامل الشر هذه كلها ، وتألبت ، وزادت طوال مدة الدعوة القصاء عليها .

٤

القيمة الذاتية للدعوة الإسلامية

ولكن الدعوة الإسلامية كانت تحمل في طياتها من القيمة الذاتية ما يفرضها ويكتب لها الانتشار والسيادة

إنها تمتاز عن النصرانية المنتشرة إذ ذاك – بعدم اقتصادي حلت منه الأثانية ، وبمنطق عقلي لا يوجد فيما كان مأثوراً حينئذ من كلام السيد المسيح عليه السلام ، ثم هي تصحيح للمسيحية التي كانت موجودة إذ ذاك محرفة ، كما سنرى فيما بعد

وهي تمتاز عما كان موجوداً إذ ذاك من اليهودية بما فيها من بساطة ، وبنصرة ، وتنزيه لله ورسله وأنبيائه ، لا يوجد ما يماثله في العهد القديم .

ثم هي رجوع باليهودية إلى الحق قبل أن يحرفها ذوو أهلها .

وهي هداية للحنفاء إلى دين إبراهيم الذي يتطلعون إليه .

(١) سورة الزخرف آية ٣١

ثم هي معصومة وليست رأياً يجوز بالبحث أن يكون وهماً من الأوهام.

وهي بعد كل ذلك نظام كامل للحياة الإنسانية. فيها العقيدة، وفيها التشريع، وفيها الأخلاق، إنها ترضي العقل وترضي الوجدان

٥

وسائل الدعوة لهداية العرب:

ولكن العرب قابلوها بصراع، فاتخذت الدعوة الإسلامية من أجل هدايتهم أحكم الوسائل

نبهتهم إلى أنه ليس من المنطق أن يكون الإلف، وأن تكون العادة أو العرف مقياساً للحق؛ فليس من المنطق إذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل الله — أن يقولوا «بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا» لأنه من الجائز أن يكون آباؤهم «لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون»

وليس من المنطق أن يقولوا: (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) الزخرف/٢٣

وسخر القرآن من الذين حرموا على أنفسهم مزية الفهم والتبصر، فقال في أسلوب لاذع:

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) الجمعة/٥

ثم أضاف الإسلام إلى ذلك تقدير المسئولية الفردية، ليجتث بذلك كل محاولة من الفرد لإلقاء التبعة على الجماعة، أو على البيئة، أو على الآباء والرؤساء:

(ألا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) النجم/٣٨، ٣٩.

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) الزلزلة/٧—٨.

ثم صرح في وضوح واضح بالمسئولية، فيما يتعلق بالآراء خاصة، ورتب

العقاب الشديد على من قلد غيره في ضلالته وأهوائه فقال تعالى:

(وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) (1)

وإذا كان الإسلام قد قرر المسئولية الفردية — أي أن كل إنسان مسئول عن عمله — فإنه مع ذلك لم يخل الفرد من المسئولية بالنسبة لغيره. فالرسول ﷺ يمثل الجماعة الإنسانية بسفر على سفينة أخذ بعضهم في إفسادها، فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا. عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

«مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» البخاري وغيره

ويقول الله تعالى:

(واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) الأنفال/ ٢٥

ويقول في موضع آخر:

(يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون) (2)

روى أن عمر رضي الله عنه قال حين نزلت هذه الآية

(1) سورة سبأ الآيات ٣١ - ٣٣ (2) سورة التحريم آية ٦

«يارسول الله ، بل آمستنا فكيف لنا نأهيث ؟»

فقال عليه الصلاة والسلام :

«تنهون عما نهاكم الله عنه ، وتأمرونهن بما أمركم الله ، فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار» .

على أن الرسول ﷺ يصور هذا النوع من المسئولية تصويراً جميلاً في غير ماحديث . إنه يصور الأمة في توادها وتراحمها بجسم إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى

وهو يقول في روعة أخاذة

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»

ثم يفصل هذا الإجمال ويضرب بعض الأمثلة

«الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل في بيته راع ومسئول عن رعيته ، والزوجة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها . والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته» .

إذن الآباء والأجداد ليسوا مقياس الحقيقة ، وكذلك العرف والعادة ، والفرد مسئول عما يفعل ، وكل إنسان مأمور بأن يصلح من نفسه ويصلح من أمر الآخرين

في هذا الجو أخذ محمد ﷺ ينشر دعوته

٦

الدعوة الإسلامية دعوة موحدة

وهي دعوة موحدة لا مفرقة ، إنها دعوة نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام

(شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[1] .

(١) سورة الشورى آية ١٣

وعلام الاختلاف . والإسلام دعوة لاتهدف إلا إلى عبادة الله وعدم الشرك به وعدم اتخاذ أرباب من دونه ؟

(قل : يأهل الكتب ، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ، ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[1]

هذه الدعوة الإسلامية التي هي دعوة الرسل من قبل تقرر أصولاً في ناحية العقيدة ، وشعائر للعبادة ، ومبادئ في القانون ، وقواعد للأخلاق ، والذي يعنينا هنا على الخصوص هو العقيدة

٧

إثبات الرسالة :

إن أشق مرحلة يصادفها كل رسول من الرسل إنما هي إقناع الناس برسالته . وقد اختلفت وسائل هذا الإقناع ، وتنوعت أساليبه . وقد بدأ الرسول ﷺ كأسلافه بتقرير أنه رسول ، وأنه متصل بالسماء ، وأن الوحي ينزل عليه تباعاً .

وقد أرسله الله تعالى لحكمة سامية قد رددها القرآن في غير ماموضع

هي تزكية النفوس وتطهيرها ، تزكيتها وتطهيرها خلقيًّا ، واجتماعيًّا ، مؤسساً ذلك على تطهيرها وتزكيتها من ناحية العقيدة .

(لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)[2]

(ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم)[3]

ومن أجل ذلك كان إرساله رحمة للعالمين .

---

(١) سورة آل عمران آية ٦٤

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٤

(٣) سورة البقرة - ١٢٩

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء/ ١٠٧

لكن العرب سخروا من دعوته، ولكن لابد من أن يفحمهم بآيات من آيات الله، فلم تخرج هذه الآية عن أن تكون القرآن.

لقد تحداهم به في عنف، وتحداهم متدرجاً بهم من أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، إلى أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم انتهى بهم أخيراً إلى أن يأتوا بسورة من مثله. قال تعالى

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (1)

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) (2)

(وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) (3)

---

(1) سورة الإسراء آية ٨٨ (2) سورة هود آية ١٣

(3) سورة البقرة آية ٢٣ – ٢٤ في هذه الآيات نرى القرآن قطعاً (مثل) والمثلية لا تختص بجانب دون جانب وإنما تعم جميع النواحي

والواقع أن النقاش في القرآن معجز بأسلوبه، أو بمعانيه أو بقصصه أو بأخباره عن المغيبات أو بغير ذلك من وجوه إنما هو نقاش لا يتمشى مع الفكرة القرآنية التي هي في الحقائق من جميع النواحي

قال صاحب البحر المحيط

(والمثلية في حسن النظم وبديع الوصف، وغرابة الأسلوب والإخبار بالغيب بما كان وما يكون، وما احتوى عليه من الأمر والنهي والوعد والوعيد، والقصص والحكم والمواعظ والأمثال والصدق، والأمن من التحريف والتبديل) ج ١ ص ١٠٤ هـ ١

ومنشأ الاختلاف في تحديد وجوه الإعجاز في القرآن يرجع إلى اختلاف درجة الاستعدادات الفطرية، والاتجاهات الفكرية، لإدراكها ومعرفتها

فمثلاً من وجد القرآن مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل وأخبار السابقين والمغيبات التي لا تحيط بها بشرية عصراً — حصر وجوه الإعجاز فيما أدرك

ومن نظر إلى القرآن من ناحية اللفظ وحسن السبك وجزالة الأسلوب وماله من روعة تعنت على السامع شعوره ووجدانه حصر الإعجاز في ذلك ومن أحال فكره فيما حواه القرآن من الأسرار الكونية التي تكشف عنها العلوم والبحوث أن كانت فهو مصدق لما في الطبيعة، والفطرة (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) وإلخ هذا الاتجاه ... إلخ متفرقين =

ولم نشك في أمر الرسول ﷺ مع أنه لو أخبرهم أن خيلا وراء الوادي ستغير عليهم لصدقوه ، لأنهم لم يعهدوا عليه كذباً ؟

على أنه قد لبث فيهم من قبل ذلك أربعين عاماً ، فلم يحدث بنبوة ولا برسالة ذلك أن هذا الأمر إنما يرجع إلى مشيئة الله فحسب

(قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ؟) يونس / ١٦ [١] .

ويطلب إليهم القرآن أن يتفكروا في أمر صاحبهم هذا الذي نشأ بينهم . وترعرع على مرأى ومسمع منهم . ممن كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم بالصدق . والأمانة ورجاحة العقل . قال تعالى

(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) سبأ / ٤٦

ولم الشك في أمره مع أنه قد تجرد من كل مطمع دنيوي؟

(قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله ، وهو على كل شيء شهيد) سبأ / ٤٧

ولم التشكك في أمره وهو أمي لايقرأ ولايكتب ؟ ومن كانت حاله هذه لايمكنه أن يستمد مايقول من كتاب . قال تعالى .

فالمثنى اثنين اثنين ، وواحدا واحدا ، ثم تفكروا في أمر محمد ﷺ وما جاء به

أما الاثنان ، فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين لا يميل بهما اتباع هوى ، ولاينبض بهما عرق عصبية ، حتى لايهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه

(١) والآية رقم ٤٦ من سورة سبأ ومعنى ما ورد في الزمخشري في تفسيره إنما أعظكم بواحدة ، إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ، وهي أن تقوموا لوجه الله خالصا ، وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفة ، من غير تحيز ، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده ، من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم

والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويمنع من الروية ، ومع ذلك يقل الإنصاف ويكثر الاعتساف

وقد علمتم أن محمدا ﷺ مابه من جنة بل علمتموه أرجح قريش عقلا وأرزنهم حلما وأحدهم أذهانا ، وأصدقهم قولا ، وأزكاهم نفساً ، فكان مظنة لأن تعظموه ... وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون)[1]

هذه الظروف، وهذه الملابسات، فضلاً عن القرآن، ترشد إلى أن محمداً ﷺ كان صادقاً في دعواه

٨

معارضة العرب

بيد أن العرب تمادوا في معارضته حتى لقد وصلوا أحياناً إلى حد السخف، ولكن القرآن كان لهم بالمرصاد، وكان دائماً يفحمهم في قوة

لقد قالوا: (مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق)[2] فرد الله عليهم بما يقطع حجتهم

(وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) الفرقان ٢٠ وقال: (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية) الرعد/٣٨

ولم يجد اليهود ولا النصارى مفراً من الاعتراف بأن الرسل السابقين كانوا حقاً كذلك

وقال العرب: (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة؟) الفرقان/٣٢

فإذا بالقرآن يعلل ذلك تعليلاً في غاية القوة والوضوح

(كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً)[3] الفرقان/ ٣٢

(١) سورة العنكبوت آية ٤٨ (٢) سورة الفرقان آية ٧

(٣) وهذا أيضاً من اعتراضاتهم، واقتراحاتهم الدالة على شرودهم عن الحق [illegible] عليه جملة واحدة في وقت واحد، كما أنزلت الكتب الثلاثة [illegible] والقائل [illegible] اليهود

وهذا فضول من القول، ومماراة بما لا طائل تحته لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرقاً، وقوله تعالى (كذلك لنثبت به فؤادك) جواب لهم أي كذلك أنزل مفرقاً

والحكمة فيه أن نقوي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء وجزءاً عقب جزء، ولو ألقي عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا بحفظه والرسول ﷺ فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى =

وقالوا: (لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم[1]) الزخرف/٣١

فرد عليهم القرآن في أسلوب لاذع

(أهم يقسمون رحمة ربك) الزخرف/٣٢

ورأوا أن يكون الرسول ملكاً. فإذا بالقرآن يجيبهم في منطق صارم

(ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون) الأنعام/٩

ويذكر ذلك في موضع آخر مصوراً تعنتهم في إنكار النبوة فيقول

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً؟) الإسراء/٩٤

ويرد عليهم القرآن معللاً الأمر بتعليل آخر غير السابق فيقول

(قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً) الإسراء/٩٥

وهذا التعليل في غاية العمق، فإنه ينطوي على سبب من أهم أسباب إرسال الرسل فالملائكة ليسوا – بطبيعتهم – في حاجة إلى من يهديهم من الناحية الأخلاقية، إنهم ملائكة

ويتعمد القرآن أن يصفهم بأنهم «يمشون مطمئنين» فيثبت بذلك توضيح طبيعتهم الملائكية في أذهاننا، ومع ذلك يقول:

(لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً)

لم؟ إنهم ملائكة، وهم يمشون مطمئنين فما حاجتهم إلى الرسالة؟

الواقع أن مهمة الرسول الأولى ليست الأخلاق، وإنما هي معرفة الله والملأ الأعلى وما وراء الطبيعة، وذلك لا تأتي في صحة لا يشوبها خطأ بمنطق عقلي أو قياس نظري، وإنما يأتي عن الله سبحانه إلى عباده وهم الرسل

والملائكة كالبشر عاجزون عن معرفة الله إلا به. ولقد قالوا كما حكى القرآن

= عليه السلام حيث كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ، فأنزل عليه منجماً في عشرين سنة، وقيل في ثلاث وعشرين، وأيضاً فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين» عن الزمخشري ج٢ ص١٠٩ ».

عنهم في سورة البقرة .

(سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا)[1] . أما الأخلاق فهي في المرتبة الثانية بعد معرفة الله

وزعموا أن محمداً ﷺ يستمد القرآن من شخص معين فرد عليهم القرآن في قوة

(لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) النحل ١٠٣

ولما استيئس العرب من الجدل المنطق تقمصوا عقلية الصبيان :

(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه)[2] .

فيجيبهم القرآن في سهولة قوية لادعة حادة ساخرة

(قل سبحان ربي ! هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟) الإسراء/٩٣

ويثور العرب ، حين يرون منطقهم ينهار فينادون

(يا أيها الذي نزل عليه الذكر ، إنك لمجنون ، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ؟) الحجر/ ٦ ، ٧

ويرد عليهم القرآن مبينا هم ما فقد خفي عنهم

(ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين) الحجر/ ٨

ويصور القرآن في النهاية موقفهم الحقيقي الذي لا يخرج عن أن يكون عناداً لا شائبة فيه لطلب الحق ، ولا نزعة في الهدى فيقول

(ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)[3]

(ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا

---

(١) البقرة ٣٢

(٢) سورة الإسراء الآيات ٩٠ - ٩٣

(٣) سورة الحجر الآيتان ١٤ ، ١٥

سحر مبين) الأنعام / ٧

فإن أخذتهم الحجة من جميع أقطارهم ورأوا أنهم أضعف من أن يعلوا بالمنطق أعرضوا وقالوا :

(قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجابٌ فاعمل إننا عاملون)(١)

فيذكرهم القرآن موقف الأمم قبلهم ، وينذرهم بعذاب كما هي سنته مع هذا النوع من المعاندين .

(فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود) فصلت ١٣

حقاً لقد كانت خصومة العرب للرسول ﷺ عنيفة قوية ، ولقد صور لنا القرآن في قوتها وفي عنفها ، ولم يأب أن يذكر ما ذهب به العرب مما يسيء للرسول ﷺ ، فذكر وصفهم له بالجنون ، وبالشعر ، وأنه ساحر أو مسحور ، وأنه ليس من عظماء القريتين (٢) وبأنه يأخذ القرآن عن غيره ، أو بأن القرآن ليس إلا سحراً ، أو أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً .

ذكر القرآن كل ذلك ، وصور الخصومة في عنفوانها عارضاً أدلة الجاحدين ذلك أن القرآن هداية الله ، وهدايته سبحانه وتعالى هي الحق الذي يقذف على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .

٩

وجود الله

لقد كان من الطبيعي بعد أن ثبتت أسسه أن يتلقى العرب كل ما جاء في القرآن بالقبول ، ولكن القرآن لم يكن يلقي القول على علاته ، وإنما يأتي بالقضية مبرهناً عليها بالدليل تلو الدليل فيرضي العقل ، ويطمئن النفس ، ويقود الضمير إلى الإذعان .

---

(١) سورة فصلت ٥

(٢) مكة والطائف

وزعم أن وجود الله أوضح من أن يبرهن عليه فقد وجد في كل الأزمنة من جحدوا الصانع المدبر العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه وبلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان كذلك كان، وكذلك يكون أبداً (١)

على هؤلاء في كل زمان ومكان يرد القرآن في استفاضة وفي تنوع. وما من شك في أن مسألة إثبات وجود الله لم تكن في يوم من الأيام هدفاً من أهداف القرآن، ولم تكن في يوم من الأيام هدفاً من أهداف الرسول ﷺ، أو أحد صحابته، وذلك أن الإيمان بوجود الله مسألة فطرية وبديهية، ولكن هذا يسير على أنه يمكن أن يؤخذ من القرآن أدلة على وجود الله وإن لم يكن ذلك هدفاً من الأهداف القرآنية، وقد سيقت الأدلة ونظائرها فإنما يرجع ذلك إلى استنتاج من نصوص هدفها الصحيح بيان عظمة الله وتدبيره وقدرته وهيمنته على كل ما في العالم من صغيرة وكبيرة وبيان عناية الله ورعايته وإحكامه المحكم وإبداعه المتقن لكل ما يسري في العالم من قوانين ونواميس. إن القرآن يمكن أن يؤخذ منه الرد على من انحرفت فطرتهم فيقال: إنه يرد عليهم أولاً بضرورات فكرية، فيثبت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق:

(أفي الله شك فاطر السموات والأرض) (٢)

(ومن آياته: أن خلقكم من تراب) (٣)، (ومن آياته خلق السموات والأرض) (٤)

ويؤكد هذا مبادئ مقررة يعرفها كل إنسان عندما يفكر فيها تفكيراً بسيطاً أنه من البين أن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة ولا يمكن من جانب آخر أن تكون علته صنيعة نفسه

(أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون؟) (٥)

(١) المنقذ من الضلال للغزالي طبعة دار الكتب الحديثة
(٢) سورة إبراهيم آية ١
(٣) سورة الروم آية ٢
(٤) سورة الروم آية ٢٢
(٥) سورة الطور آية ٣٥

ولايقتصر القرآن على ذلك بل يورد في غير ما موضع وفي غير ما سورة ذلك الدليل الذي يقول عنه «كانت» إنه يذكر مع الاحترام. أعني الدليل الذي يطلق عليه أحياناً، دليل العناية، وأحياناً أخرى دليل النظام، أو التدبير، أو الغائية، وهذا الدليل، هو الذي يستند إلى ما نراه في العالم من تناسق، وتضامن وانسجام، ومن تدبير محكم، وعناية تامة بكل صغيرة وكبيرة، وترابط لا انفصام له بين أجزاء العالم وأجزائه وحداته أيضاً.

وقد استخدم الفلاسفة هذا الدليل، ولايزال المحدثون يستخدمونه، ويعتبره بعضهم أوضح الأدلة على وجود الله، بل أقواها، وهو في الوقت نفسه أسهلها مناسبة للإدراك الإنساني.

قال الله تعالى:

(وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم)[1] (الله الذي سخر لكم البحر)[2]

(هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً)[3]

(وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته)[4]

(والله جعل لكم الأرض بساطاً)[5]

(ألم نجعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً، وخلقناكم أزواجاً، وجعلنا نومكم سباتاً، وجعلنا الليل لباساً، وجعلنا النهار معاشاً، وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً، لنخرج به حباً ونباتاً، وجنات ألفافاً)[6]

وإذا تصفحت القرآن تبينت مصداق قوله تعالى: (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها)[7]

وكثير من آي القرآن يجمع بين دليل الخلق ودليل العناية

(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري

---

(١) سورة النحل آية ١٥
(٢) سورة الجاثية آية ١٢
(٣) سورة البقرة آية ٢٩
(٤) سورة الأعراف آية ٥٧
(٥) سورة نوح آية ١٩
(٦) سورة النبأ الآيات ٦ - ١٦
(٧) سورة إبراهيم آية ٣٤

فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)[١]

وفى سورة الروم آيات متتالية تجمع بين الدليلين : الخلق والعناية ، وهى قوله تعالى

(يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون) ،

(ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون)

ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ،

ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين

ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون

ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ،

ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون)[٢]

هذه الأدلة تكاد تتضمن كل ما عداها من أدلة قديمة كانت أو حديثة برغم اختلاف أساليب التعبير ، بحسب اختلاف البيئة أو الزمن .

إنها تتضمنها فى صورتها السهلة : الأثر يدل على المؤثر

وتتضمنها فى صورتها الفلسفية القديمة : الممكن والواجب

وتتضمنها فى صورتها الفلسفية الحديثة سواء رجعنا فيها إلى شعور الوجدان أو فكرة الكمال أو غير ذلك .

(١) سورة البقرة آية ١٦٤ (٢) سورة الروم الآيات ١٩ - ٢٥

الإنسان في رحلة البحث عن الله عز وجل

من روائع مناجاة ابن عطاء الله السكندري قوله :

« إلهي ، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ »

« متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ »

« ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك »

إن مسألة وجود الله (١) لم تكن في يوم من الأيام محل بحث عند ذوي الشعور الديني السليم

ولم ينشأ الجدل في هذه المسألة إلا في العصر اليوناني ، فهو العصر الذي جعل منها مشكلة قابلة للأخذ والرد ، والقبول والرفض .

والواقع أن ظروف العصر اليوناني القديم هي التي جعلت منه مثلاً سيئاً في كل ما يتعلق بالدين والخلق .

لقد كان عصراً خلا من الدين الحق ولم ينعم بالمعرفة الصحيحة عن طريق الوحي . فحاولت طائفة منه أن تصل إلى الوحي عن طريق الكهانة ، ومن ذلك كاهنات معبد دلفي المشهورات

وحاولت طائفة أخرى أن تصل إلى الوحي عن طريق التأمل والعبادة والتذكر ومن هؤلاء فيثاغورث وأتباعه وأفلاطون والأفلاطونيون القدماء منهم والمحدثون ، لقد حاولوا أن يقتنصوا الوحي اقتناصاً ، وأن يكشفوا عن الحجب وأن يزيلوا الأقنعة ، وأن يصلوا إلى الله ، فتخبطوا بالجهل والضلال والحيرة والقلق

بيد أن الطريق الذي سلكوه إنما هو طريق خاطئ ؛ لأنه لم يؤسس على وحي يرسم طريق الهداية الصحيح ، وإنما أسس على نهج عقلي بشري ، أو على تقاليد متوارثة

(١) حين يكتب الكاتبون في مثل هذا الموضوع يبدءون عادة بإثبات وجود الله سبحانه وتعالى ، ويحتجون بأن هذه مسألة أهم ما في الموضوع [illegible] نهج سبيل أن الدين لا يجعل مسألة وجود الله موضع بحث ، وأن الفطرة السليمة لا تقر ذلك

ومن أجل ذلك لم ينتج الثمرات المرجوة ، ثم هو طريق صعب المرتقى ، لأنه يعترض النزعات الحيوانية في الإنسان ، ويدعو السمو بها وإعلائها ، ويريد أن يرقى بالإنسان إلى مايقرب من المستوى الروحي الملائكي

ولكن بني البشر لأغلب منهم يخلدون إلى الأرض ، ويتبعون أهواءهم ولذلك كانت قلة قليلة تلك الفئة التي حوت اتباع هذا التيار في صرامة وإخلاص

أما الأغلبية العظمى من اليونان فقد اتبعوا التيار الذي يعتمد على العقل البشرى اعتماداً كلياً ، وكان زعيمهم الأكبر في ذلك أرسطو فهو الذي وضع أركان العقل البشري وأشاد به كأساس للبحث في عالم ماوراء الطبيعة ، وفي عالم الغيبية أو الخير

وما كان العقل في يوم من الأيام عند حكماء المصريين أو حكماء الهنود أهلاً لأن يكون مصدر المعرفة في عالم الغيب

وأخذ العقل عقل أرسطو ومن لف لفه يجادل ويماري في الحقائق صغرت أو كبرت ، ودقت أو جلت ، واضحة كانت كوضوح النهار ، أو خفية كأنها عمت بقطع من الليل المظلم ، وتجرأت أقلامهم على تناول عالم الغيب وعالم الخير بالإنكار أو الشك ، أو ترجيح الوجود أو ترجيح العدم

وحاول كل زعيم أن يصور الأمر في هذين الميدانين ميدان ماوراء الطبيعة ، وميدان الأخلاق بحسب مزاجه وأهوائه ، وبحسب ماتمليه عليه ثقافته وبيئته ، وبحسب ما تمليه عليه طبيعته الجسمانية وجبلته الخلقية

وانتهى الأمر بأن حاول المثبتون الرد ، فحاول المنكرون تحيين الرفض وراثت فلسفة الموضوع وأصبحت تموج جواً من اللجاج والمهاترة لاتليق بجلال الله وعظمته (وماقدروا الله حق قدره)[1]

ولو قيض الله بيئة اليونانية جواً من خير وهدى ، ولو أنعم الله عليهم بنشأة رسول منهم لما كان هذا الانحراف لدى مفكريهم منذ زمن أرسطو انتشار الوباء

---

(١) سورة الحج آية ٧٤

الخبيث ، والذى تعمق حتى وصل به الأمر وهو انحراف منحرف إلى أن أصبح وكأنه الوضع الطبيعي — فساداً فى كل بيئة ، وعمّ كل عقل ، وكلما تقدم به الزمن ازداد رسوخاً وثباتاً ، وازداد انتشاراً ، حتى لقد عز الأديب التى تأبى أن تقره أو تعترف به

لقد تغلغل فى المسيحية ، فوضع رجال المسيحية مسألة وجود الله وقضية العصبية موضع البحث ، ونزلوا إلى مجال المجادلة والمماراة !

وأخذ هذا الوضع يتخطى القرون حتى جاء الإسلام ، فوضع الأمر فى نصابه ، ووجه الأذهان إلى أن الأمر الأساسي إنما هو مسألة الوحدانية « أشهد أن لا إله إلا الله » وجه الإسلام الأذهان فى عنف وفى قوة إلى التوحيد ، لا إلى إثبات الوجود

لقد وجه الإسلام الأذهان إلى أن الله لا يحتاج فى إثباته وفى وجوده إلى دليل وهو — على العكس — الدليل على غيره ، فغيره ثبت به ، والعالم ثابت بثبته السموات والأرض والعرش والكرسي ، كل ذلك موجود بوجوده ، ثابت بثبته ، والوجود بأكمله محتاج فى كل لحظة إليه فضلاً عن احتياجه إليه فى نشأته الأولى ووجوده الأصلى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا)[1]

إنه يمسكهما فى كل آونة وفى كل لحظة ، فإذا ما تخلى عنهما طرفة عين تلاشتا فكانت هباء ، وكانت عدماً . وكل ذرة فى العالم ، وكل حبة فى كائناته إنما ثباتها بالله وقيامها به .

ومثل الإنسان كمثل أى كائن آخر من حيث وجوده وقيامه بالله ، وقد كرمه الله وأعطاه الكثير من المنح والمزايا ووهب له هذا التفكير والفهم ، وسخر له الكثير من العوالم الأخرى وجعله خليفة فى الأرض

ومن أجل ذلك كانت مسئوليته فيما يتعلق بتصحيح الصلة بينه وبين الله عظيمة خطيرة .

أما تصحيح هذه الصلة فإن ذروتها العليا ومثلها الأسمى إنما هو ما أمر به صلوات الله وسلامه عليه فى قوله تعالى :

(١) سورة فاطر آية ٤١

(قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) [١]

وفرق هائل بين من يتخذ هذه الآية القرآنية شعاراً ، ومن يحاول – متجاوزاً قدره – الاستدلال على وجود الله بمخلوق من مخلوقاته

إن الفرق بينهما هو الفرق بين طريق الهدى والصواب ، وطريق الحدس والشك

وجاء الإسلام – كما قلنا – ليضع الأمور في نصابها ، وليصحح الأوضاع التي انحرفت

ومن هذه الأوضاع المنحرفة الشرك بالله . والإنسان يشرك بسبب الضعف على وجه العموم ، وقد يكون هذا الضعف فقراً ، وقد يكون جهلاً ، وقد يكون طمعاً وجشعاً ، وقد يكون خوفاً وفزعاً ، وقد يكون غير ذلك . ومهما يكن من أمر الشرك فيه – أيما وجد – ليس إلا مظهراً من مظاهر الضعف .

وحاول الإسلام أول ما حاول أن يطهر النفوس من هذا الضعف ، وأن يعيدها بالتوحيد – إلى مجالات العزة والكرامة : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) [٢] ، فكانت دعوته للتوحيد

أما ما في القرآن مما تحمله بعض الناس استدلالاً على وجود الله ، واعتقد أن القرآن قصد بذكره الاستدلال على وجود الله ، فليس إلا بياناً لمظاهر قدرة الله وعنايته بالعالم ومن ذلك مثلا :

(وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل) [٣]

وإن الله سبحانه وتعالى جعل :

(الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ، وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنات ألفافاً) [٤]

---

(١) سورة الأنعام آيتا ١٦٢ ، ١٦٣
(٢) سورة المنافقون آية ٨
(٣) سورة الرعد آية ٤
(٤) سورة النبأ الآيات ٦ – ١٦

و(تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير)[1]

وما مثل هذا في تصوير قدرة الله إلا كمثل .

(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا . يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا . يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما . وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً)[2]

إلى ذلك وكثير غيره إلى ذكر سنن عظمة الله وجلاله وقدرته . وسنن رحمته بعباده وعنايته بهم

وما من شك في أنه يمكن أن توجد من ذلك أدلة كثيرة على وجود الله

وما من شك في أن الأدلة التي توجد من ذلك يمكن أن تصاغ في أسلوب منطقي في قياس يشتمل على المقدمات والنتائج ، ويكون متفقاً مع قواعد المنطق الأرسطي ومبادئه . لكان ذلك لن يكون أبداً تصوير هدف من أهداف القرآن ، فالقرآن لا يضع أبداً وجود الله موضع شك حتى يحتاج إلى الاستدلال عليه

ومن القصص التي تروى على نحو شيق . وبأساليب مختلفة تتفق في الجوهر وتختلف في الرسم ما يحكى من أن بعض مشاهير العلماء ألف كتاباً ضخماً في إثبات وجود الله . فأقام له أصدقاؤه حفلة تكريم من أجل عمله الضخم هذا . ومر بهم بعض الصالحين فأخذوا يحدثونه عن عبقرية المؤلف ، فسأل :

ومتى غاب الله حتى يكون في حاجة إلى إثبات ؟

فوجم الجميع . ولم يستطع المؤلف الإجابة وتركهم الرجل الصالح وهو يردد

(١) سورة الملك الآيات ١ - ٤ (٢) سورة طه الآيات ١٠٥ - ١١١

(قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون)[1]

وقال رجل للثوري الصوفي المعروف: ما الدليل على وجود الله؟

قال: الله.

قال الرجل: فما العقل؟.

قال: العقل عاجز، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله

كل ذلك يؤيد مقالة الشاعر:

من رام بالعقل مسترشداً ... سرحه في حيرة يلهو

وشاب بالتلبيس أسراره ... يقول من حيرته هل هو؟

والنتيجة التي نريد أن نصل إليها هي

أن روح القرآن إذن هي قيادة النفوس إلى التوحيد

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)[2]

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين. قل إنما يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون)[3]

وتأتي مشكلة الملاحدة والوجوديين المنكرين وجود الله. ماذا نفعل إزاءهم؟

إن مثل هؤلاء لا وجود لهم في مجتمع سليم طاهر، ويكفي اعتزالهم كمرض خبيث ينفر الإنسان منه، ويكفي عزلهم عن أن يفسدوا الآخرين تلاميذ كانوا أو طلبة، أو عمالاً أو زارعين، ولن تمر فترة طويلة عليهم في هذا الوضع حتى يرتدعوا ويعدلوا عن اتباع أهوائهم وشهواتهم

وما الوجودية إلا الهوى، إنها هوى النفس التي لا تعترف بالواجب الاجتماعي والديني

والإلحاد ضعف؛ لأنه محاولة للفرار من التكاليف

ومع كل ما تقدم فإنه لا يتأتى لي أن أترك هذا البحث دون أن أذكر قصة سمعتها

---

(١) سورة الأنعام آية ٩١

(٢) سورة الأنبياء آية ٢٥

(٣) سورة الأنبياء آيتا ١٠٧، ١٠٨

حديثاً هزتني من الأعماق هزاً، ووقعت من نفسي موقعاً من الروعة والجلال لا يمكن تصوير مداه

لقد ذكر لي هذه القصة فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ مدثر الحجاز وكيل جامعة أم درمان ورئيس الطريقة التجانية بالسودان :

في إحدى القرى النائية المعزولة من قرى السودان، كان يعيش رجل عابد صالح، وكان يقضي وقته بين المسجد والبيت، لم يكن يفارق القرية يوماً ما، والقرية في مجالها كأنها – بالنسبة له – العالم كله

وفي يوم من الأيام، ولظروف معينة غادر هذا الرجل الصالح القرية بصحبة صديق له، وجدّا في السير حتى وصلا إلى الطريق الذي يؤدي إلى المدينة

وما إن وصلا إلى الطريق حتى رأيا – بطريق المصادفة – رجلاً من رجال الجيش الإنجليزي بملابسه العسكرية مترف المظهر، متحلياً بكل ما يمكن أن يتزين به رجل الجيش المترف الأنيق. ولم يكن الشيخ الصالح قد أتاحت له الظروف رؤية مثل هذا المنظر في قريته أو في عالمه المعزول النائي الذي اختصره الشيخ – مع عمره – من قرية إلى بيت إلى مسجد.

وتأمل الشيخ رجل الجيش الإنجليزي في دهشة، ثم سأل صديقه مشيراً إلى هذا الشيء الغريب

– ما هذا ؟

– هذا خواجة. وما كانت كلمة خواجة قد دخلت في قاموس الشيخ

فقال لصديقه: وما خواجة ؟

– هذا كافر

وعاد الشيخ يسأل في دهشة أشد، وفي استغراب أقوى

– أهو كافر بالله ؟

فقال صديقه: نعم

وما إن نطق صديقه بذلك حتى تملك الشيخ شعور بالاشمئزاز منعه من أن يتلفظ أو ينطق، وعمره إحساس بالغثيان أخذ يقوى ويزداد بسرعة سريعة وإذا

بالشيخ يتقايأ اشمئزازاً وغثياناً وتقززاً من هذا الكافر . !

هذه هي القصة

أترى تصويراً أدق للشعور بالنسبة للملحد من هذا الاشمئزاز ؟

وأي قلم يبلغ في التعبير ما بلغ هذا الشيخ ؟ وأى أسلوب ؟

إن جميع الأعراف في جميع أرجاء الكون تتفق في الاشمئزاز ممن ينكر الجميل ، وهذا الاشمئزاز يتفاوت بنسبة قيمة الجميل الذي يسدى . وبنسبة درجة النكران التي تقابله وبنسبة صفاء النفس التي تعلم أوترى هذا النكر

والإنسان يجداً وخلقاً وتصويراً من صنع الله وهو بصراً وسمعاً وذوقاً وإحساساً وشعوراً من صنع الله وهو عقلاً وفكراً من صنع الله .

وكل نعمة ظاهرة وباطنة - ونعم الله لاتعد - إنما هي من صنع الله

(وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها)[1] (ومابكم من نعمة فمن الله)[2]

من نعم يتقلب فيها ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساء - إن كل ذلك من الله

فإذا ما كفر إنسان بالله فإنه يكون أخس من أن يعاقبه الإنسان بالصفع ، وأحقر من أن يبصق الإنسان في وجهه ، ولايستأهل إلا الاشمئزاز إلى درجة التقايؤ . .

أما الجزاء في الدين الإسلامى فإنه معروف :

يستتاب ، فإن لم يتب قتل مرتداً .

ومما لاشك فيه أن من الوسائل الكريمة التي تحول دون انتشار هذه القيادات الفاسدة الملحدة في المجتمع مايرجع إلى علماء الدين فإنهم وقد هيأ الله لهم أن يتولوا قيادة المجتمع دينياً لاشك يكون تأثيرهم جارفاً إذا كانوا مثلاً عالية للفضيلة للفضيلة في أسمى معانيها وأشملها أي إذا كانوا حقاً بالمنزلة التي ترضى الله ورسوله علماً وخلقاً وحباً للخير ، وإخلاصاً في كل مايأتون ومايدعون وقد بين الله مقاييس الخير وموازين الفضيلة ؛ وبين طريق الخير وسبل الضلال ، وعلماء الدين أعرف بذلك من غيرهم ، فمسئوليتهم أشد ووجباتهم أضخم ، وتأثيرهم في المجتمع - بادية وحاضرة - ، لاشك كبير والله يهدينا جميعاً سواء السبيل

---

(١) سورة النحل آية ١٨ (٢) سورة النحل آية ٥٣

١٠

الوحدانية

وإذا كان القرآن لايجعل من أهدافه إثبات وجود الله فإنه يجعل من أهدافه الكبرى إثبات التوحيد والإسلام هو دين التوحيد والله سبحانه وتعالى واحد لاشريك له ويستدل القرآن بالمشاهدة الصادقة (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[1]

هذه المشاهدة العادية تلبس صورة منطقية رائعة، فلو كان هنالك إله غير الله إذن (لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض)[2]

على أن القرآن لايكتفي بالمشاهدة والمنطق، وإنما يرجع بالإنسان إلى وجدانه ويثبت الوحدة عن طريق العدم والعناية والتدبير فيقول في آيات رائعة:

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، آلله خير أمّا يشركون، أمّن خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها؟ أإله مع الله؟ بل هم قومٌ يعدلون

أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً؟ أإله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون.

أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله؟ قليلاً ما تذكرون.

أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته؟ أإله مع الله؟ تعالى الله عما يشركون.

أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض؟ أإله مع الله؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)[3]

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٢
(٢) سورة المؤمنون آية ٩١
(٣) سورة النمل الآيات ٥٩ – ٦٤

١١

العلم

والله سبحانه وتعالى عالم ، إنه عالم الغيب والشهادة .

(الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار)[1]

والله تعالى لا يعلم الماضي والحاضر فحسب ، ولكنه يعلم المستقبل أيضاً

(ما أصاب من مصيبة في الأرض ، ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير)[2]

وهو يسخر ممن جعلوا لله شركاء ، ويسألهم في سخرية وإنكار

(وجعلوا لله شركاء ، قل سموهم ، أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول)[3]

وفي القرآن آية يرى بعضهم أنها تشير إلى العقل الباطن أو اللاشعور

(وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى)[4]

والقرآن يرشد إلى أن علمه ليس مقصوراً على ذاته كما يرى أرسطو ، وليس مقصوراً على الذات والكليات كما يرى بعض الفلاسفة ، ولكنه علم شامل للذات والكليات والجزئيات جميعها على الوجه التام

(يعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور ، وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ، عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك

(١) سورة الرعد الآيات ٨ – ١٠ .
(٢) سورة الحديد آية ٢٢
(٣) سورة الرعد آية ٣٣
(٤) سورة طه آية ٧

ولا أكبر إلا في كتابٍ مبين)[١]

(وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين

وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون)[٢]

أما دليل القرآن على علم الله فهو في غاية الوضوح والقوة

(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟)[٣]

١٢

مظاهر صفاته

الله عالم ، وهو مريد ، قادر ، وحكيم ، ومن مظاهر صفاته هذه الشاملة هذا الكون وما حواه من بديع صنعته ، والقرآن تحدث في صفحاته عن مظاهر هذه الصفات في كثير من السور ، بل لاتكاد تخلو سورة من هذه المظاهر كلها أو بعضها وإليك نموذجاً يحدثك بذلك :

(الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون

وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون

وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان ، وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)[٤]

---

(١) سورة سبأ آية ٣
(٢) سورة الأنعام آية ٥٩ ، ٦٠
(٣) سورة الملك آية ١٤
(٤) الرعد الآيات ٢ - ٤

١٣

البعث

الله سبحانه وتعالى خالق، وهو واحد مريد، عالم قادر ... إلخ، وهو أيضاً باعث. ومسألة البعث مسألة أنكرها قوم يطلق عليهم الإمام الغزالي: الطبيعيون، وهم قوم أنكروا البعث مع اعترافهم بالصانع.

لقد اعترفوا بالصانع لما رأوه في عجائب الطبيعة من تناسق محكم لا يمكن أن يكون وليد المصادفة، ولكنهم رأوا أن النفس تابعة للبدن، ولذلك تفنى بفنائه وكانت نتيجة ذلك أن جحدوا الآخرة، وأنكروا الجنة والنار والحساب.

على هؤلاء وأضرابهم على اختلاف بيئاتهم وأساليبهم يرد القرآن في غير ما موضع وطبيعيو العرب لم يكن عندهم في هذه المسألة منطق جدلي فلسفي، وليس لهم من دليل سوى الإنكار والاستبعاد.

(وقالوا: أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً)[1]

(قال من يحيي العظام وهي رميم؟)[2]

والقرآن يرد عليهم بتذكيرهم بمظاهر قدرة الله السائدة في الكون، وبأنه ليس من العدالة الإلهية أن يترك الإنسان سدى فلا يجازى على ما قدم

(أيحسب الإنسان أن يترك سدى؟ ألم يك نطفة من مني يمنى؟ ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟)[3]

وفي القرآن كثير من الآيات ترد عليهم مستندة إلى مظاهر قدرة الله وعدالته

وفيه آيات متتابعة في آخر سورة يس تحدثت عن رأي منكري البعث، ثم ردت عليهم ردوداً متنوعة مقنعة وصحيحة قوية. ونحن نذكر هذه الآيات، ونذكر تفسير الكندي لها نقلاً عن كتاب الكندي للأستاذ أبي ريدة

---

(١) سورة الإسراء آية ٤٩

(٢) سورة يس آية ٧٨

(٣) سورة القيامة الآيات ٣٦-٤٠

(قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ، وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون)(1)

ويقول الأستاذ أبو ريدة عن تفسير الكندي هذه الآيات:

إن فيه يبرز فيلسوفنا الأصول النظرية التي تتضمنها هذه الآيات من جهة، ويستخرج النتائج التي تلزم عنها من جهة أخرى، وهي:

١ – وجود الشيء من جديد، بعد موته وعدمه السابقين، ممكن بسبيل مشاهدة وجوده بالفعل مرة ولاسيما أن جمع المتفرق أسهل من إحداثه وإبداعه عن عدم. وإن كان لا يوجد بالنسبة لله شيء هو أسهل وشيء أصعب. هذا الدليل موجود في الآيات في كلمات قليلة

(قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم)

٢ – ظهور الشيء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن ، وواقع تحت الحس.

وإذن يمكن أن تدب الحياة في الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى.

وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر وهو: أن الشيء يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق.. هذا الدليل موجود في آية

(الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون)

وقد انتفع به الأشعري في إمكان البعث.

٣ – خلق الإنسان أو إحياؤه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن. وهذا هو مضمون آية

(أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم)

---

(1) سورة يس الآيات ٧٨ – ٨٣

٤ — الخلق والفعل مطلقاً مهما عظم المخلوق لايحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مدة ولا إلى زمان ، خلافاً لفعل البشر الذي لايتم إلا في زمان ، ويحتاج إلى مادة تكون موضوع الفعل ، وهذا هو معنى آية .

(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)

وهذه الآية — في رأى الكندى — يجيبه عما في قلوب الكفار من التكبر بسبب ظنهم أن الفعل الإلهى المتجلى في خلق العالم الكبير يحتاج إلى زمان يناسب عظمته قياسا منهم لفعل الله على فعل البشر ، لأن فعل البشر لما هو عظيم يحتاج إلى مدة زمانية أطول فجاءت الآية حاسمة في بيان نوع الفعل الإلهى وأنه إبداع

فالإرادة الخالقة والقدرة المطلقة لاتحتاج إلى مدة ولا إلى امتداد زمانى

« فأى بشر — كما يقول الكندى — يقدر بفلسفة البشر أن يجمع في قول بقدر حروف هذه الآيات ماجمع الله — جل وتعالى — إلى رسوله ﷺ فيها من إيضاح أن العظام تحيا بعد أن تصير رميماً ، وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض ، وأن الشيء يكون من نقيضه ؟ كلّت عن ذلك الألسن المنطقية المتحايلة ، وقصرت عن مثله نهايات البشر ، وحجبت عنه العقول الجزئية » ا هـ[1]

على أننا لانترك موضوع البحث دون أن نوجه ذهن القارئ إلى هذا التصوير البديع الذى ذكره القرآن الكريم بين الأرض الموات التى يحيها الله فتنبت من كل زوج بهيج ، والعظام والرفات التى يحيها الله ويصورها فيحسن تصويرها

(يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر في الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج — ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور)[2]

(١) رسائل الكندى ص ٥٧ ، ٥٨ — (٢) سورة الحج الآيات ٥ — ٧

١٤

مشاهد القيامة :

ويسبق البعث ويعقبه أمور تحدث عنها القرآن فى كثير من الآيات ووصفها فى روعة أخاذة . إنها تصف يوم القيامة ، وتتحدث عن الحساب والميزان وتصف حالة المؤمنين والكافرين وتصور النار فى صورتها البشعة الكريهة ، والجنة فى روحها وريحانها وصورها وروائعها المبهجة . ونكتفى من كل ذلك بآيات من آخر سورة الزمر

(وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون . ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت ، وهو أعلم بما يفعلون .

وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين .

قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين .

وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين .

وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله رب العالمين)[1]

---

(١) سورة الزمر الآيات ٦٧ - ٧٥

١٥

القرآن ومعتقدات العرب :

إن ما قدمناه سابقاً لم يكن إلا نماذج موجزة من العقيدة الإسلامية لم نستوعبها ، فنحن لم نتتبع القرآن آية آية ، أو سورة سورة ، لنصل من ذلك إلى إعطاء فكرة تامة عن العقيدة الإسلامية

على أن إيضاح هذه العقيدة يستلزم حتماً توضيح موقف القرآن مما كان منتشراً في جزيرة العرب من معتقدات .

لقد قلنا سابقاً : إن جزيرة العرب كانت ملأى بمختلف العقائد ، سواء ما استند منها إلى الخيال والوهم ، أو ما استند منها في أساسه إلى كتاب سماوي ، والقرآن يتحدث عن هؤلاء وأولئك ، ويناقشهم ويجادلهم ، ليقودهم في النهاية إلى الطريق المستقيم .

وإذا كان القرآن قد تحدث عن هذه المعتقدات فلم يكن ذلك ؛ لأنها في جزيرة العرب فحسب ، وإنما كان ذلك لأنها أنماط من معتقدات منتشرة في جزيرة العرب وفي خارجها ، وكان هدفه من ذلك طبعاً تخليص فكرة الألوهية عن كل ما يشوبها من خطأ ووهم وضلال

تحدث القرآن عن معبودات تتصف بصفة الحياة كالأصنام والكواكب ، وفي قصة سبأ ذكر لعبادة الشمس ، وفي قصة إبراهيم ذكر هذين النوعين وفيها ما يبطلهما

أما فيما يتعلق بالكواكب فإنه من البين أن الإله لا يطرأ عليه المغيب ، والإله منزه عن ذلك .

(فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال : هذا ربي ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين

فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين

فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم إني بريء مما تشركون)[1]

بيد أن عبادة الأصنام كانت متغلغلة في جزيرة العرب إلى درجة هي من القوة بحيث اقتضت القرآن أن يفتنّ في الرد عليها ، وتختلف أساليب رده بين الجدل الصارم ، والسخرية اللاذعة ، والتهكم المرير

(واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه : ماتعبدون ؟

قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين

قال : هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ؟)[2]

أما الأسلوب المنطقي الساخر المتهكم فإنه يتمثل في الآيات التالية

(ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟

قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين .

قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين

قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟

قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون

قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين

قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم

قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون

قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟

قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون قال : أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئاً ولايضركم ؟ أفٍّ لكم ولما تعبدون من

(١) سورة الأنعام الآيات ٧٦ – ٧٨ (٢) سورة الشعراء الآيات ٦٩ – ٧٣

دون الله أفلا تعقلون ؟)(١)

أما عجل بني إسرائيل فقد كان له خوار ، ثم إنه (ألا يرجع إليهم قولاً ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا)(٢)

ومع ذلك اتخذوه إلهاً . يقول تعالى

(واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين)(٣)

ولم يقتصر القرآن في تصحيح فكرة الألوهية في العالم – على الرد على عبدة الأصنام أو الكواكب ، إذ كان هناك عبدة فرعون ، وعبدة الجن ، وعبدة الملائكة .

وقد ذكر القرآن كل هؤلاء ، وهم جميعاً ينطبق عليهم ما ينطبق على الذي حاج إبراهيم في ربه فليس في استطاعتهم أن يغيروا مجرى سير الكواكب الذي رسمه الله لها منذ أن وجد العالم

(ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ؟ إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال ، أنا أحيي وأميت

قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين)(٤)

وليس في استطاعتهم ، مجتمعين أن

(لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)(٥)

وإذا كانوا قد عجزوا عن أن يغيروا سنة واحدة من سنن الله الكونية ، وعجزوا عن أن يخلقوا ذبابة ، بل يعجزون عن أن يستنقذوا منها ما سلبته منهم ، إذ كانوا قد عجزوا عن ذلك فليسوا آلهة ؛ لأن من خصائص الإله القدرة التامة الشاملة

(١) سورة الأنبياء الآيات ٥١ – ٦٧
(٢) سورة طه آية ٨٩
(٣) سورة الأعراف آية ١٤٨
(٤) سورة البقرة آية ٢٥٨
(٥) سورة الحج آية ٧٣

المسيحية .

على أن نصرع القوى بما كان بين الإسلام من جانب ، والمسيحية واليهودية من جانب آخر فقد كان اليهود يعترفون بالتوراة ، ويعترفون بإبراهيم وموسى ، وينظرون إلى كل من عداهم نظرة احتقار ، ينبذونها أحياناً ، ويعلنونها حينما تواتيهم الظروف

وكان المسيحيون يعترفون بالإنجيل ، ويعترفون بعيسى وموسى وإبراهيم ، وينظرون إلى غيرهم نظرتهم إلى قطيع الضأن يتطلب راعياً يقوده إلى الحظيرة

وقد زاد اغترارهم بأديانهم حينما اعترف القرآن بموسى وعيسى ، واعترف بما أنزل الله عليهم من توراة وإنجيل

وحقاً لقد كان موقف القرآن كريماً بالنسبة إلى المسيحيين انظر إليه في سموه إذ يقول

(إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين

قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ؟ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين[1])

وبينما يرمي اليهود مريم بأشنع النقائص حملها بدون زواج إذا بالقرآن يقول (يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين)[2]

ولكن القرآن لا يعرف المجاملة في الحق ، وقديماً قال أرسطو كلمته المشهورة

(١) سورة آل عمران الآيات ٤٥-٤٩ (٢) سورة آل عمران آية ٤٢

وأحب أفلاطون وأحب الحق وأوثر الحق على أفلاطون».

وإذا كان القرآن يعترف بأن أقرب الناس مودة إلى المؤمنين هم الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون فإنه لا يجامل في بيان الحق، وتوضيح الجادة، وتصحيح فكرة الألوهية التي حرفها النصارى بعد عيسى.

لقد أرسل الله عيسى برسالته إلى بني إسرائيل فحرفها من بعده الذين انتسبوا إليه أفظع تحريف، وشوهوها أبشع تشويه وأبعدوا في الضلال.

فزعموا تارة أن المسيح هو الله، وزعموا أن الله ثالث ثلاثة، بل لقد ألهوا مريم! وكل هذا ضلال تتنزه عنه الرسالة الإلهية.

وقد رد عليهم القرآن من طريق المنطق تارة، ومن طريق كتبهم وما جاء فيها تارة أخرى، وفي كلتا الحالتين كان أسلوبه قوياً عنيفاً كأنه الصواعق تنزل على افترائهم فتحطمه تحطيماً.

(وقالوا اتخذ الرحمن ولداً! لقد جئتم شيئاً إدًّا! تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدًّا، أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً. إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً)[1]

ويرد عليهم القرآن وعلى غيرهم في هذا متخذاً أساس الرد عقيدة من عقائدهم، إنهم يعتقدون أن ليس لله تعالى زوجة فيقول القرآن:

(بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم)[2]

---

(١) سورة مريم الآيات ٨٨ - ٩٣

(٢) يقول صاحب البحر المحيط في تفسير هذه الآية من سورة الأنعام ١٠١: «وكيف يكون له ولد وهذه حاله، أي أن الولد إنما يكون من الزوجة وهو لا زوجة له فلا ولد له. وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه: أحدها: أن مبدع السموات والأرض — وهي أجسام عظيمة — لا يستقيم أن يوصف بالولادة، لأن الولادة من صفات الأجسام ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون والداً. والثاني: أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد، وهو تعالى متعال عن المجانس، فلم يصح أن تكون له صاحبة، فلم تصح الولادة. والثالث: أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنياً عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج إليه» ا هـ باختصار من البحر ج ٤ ص ١٩٤

ثم إن النصارى ألهوا المسيح وأمه عليهما السلام ، ونجد القرآن يرد عليهم في هذا مختلف الردود

﴿وإذ قال الله : ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ! مايكون لي أن أقول ماليس لي بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ماقلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾[1] .

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ؟ ولله ملك السموات والأرض ومابينهما يخلق مايشاء والله على كل شيء قدير﴾[2] .

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾[3]

وينبه القرآن المسيحيين إلى أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام[4] ومن البين أن الذي يأكل الطعام ، فتتحول في جسمه دماً ولحماً وعظاماً ، وتصبح عرقاً ، ويخرج فضلة لو بقيت في الجسم لضرته من الواضح أن كائناً من هذا النمط لايمكن أن يكون إلا بشراً ، خاضعاً لكل قوانين البشرية التي لاتؤدي إلى نقص في مرتبته كرسول

لقد كان لميلاد المسيح بدون أب أثر قوي في زيغ كثير من النصارى وكثير من اليهود لقد غالى النصارى فقالوا إنه ابن الله . وأسرف اليهود في عنادهم فرموا أمه الطاهرة بالفجور

---

(١) سورة المائدة الآيات ١١٦ - ١١٨ (٣) سورة المائدة آية ٧٢ - ٧٣
(٢) سورة المائدة آية ١٧ (٤) سورة المائدة آية ٧٥

على هؤلاء وأولئك يرد القرآن في بساطة ووضوح بأن

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)[1]

واليهود والنصارى يعترفون بأن آدم خلقه الله دون أب وأم . فأمره إذن أعجب وأغرب من أمر عيسى . فما كان لهم أن يغالوا في أمره غير الحق ، أو يسرفوا في الانتقاص من أمه

اليهود .

وإذا كان المسيحيون هم أقرب الناس مودة للمسلمين فإن أشد الناس عداوة للمسلمين هم اليهود ، ومثلهم في ذلك مثل الذين أشركوا . هكذا يصفهم القرآن ويستفيض في الحديث معهم استفاضة تتناسب مع تاريخهم الطويل ، وعنادهم الشديد ومكرهم الخبيث

ولقد كان الصراع قوياً عنيفاً بين الإسلام واليهود . كان صراعاً بالمنطق والبرهان ، وكان صراعاً بالسيف والرمح . ولا يعنينا هنا التحدث عن السيف والرمح وإنما نتحدث عن الصراع بالمنطق والبرهان .

وقد خص القرآن آل عمران من بني إسرائيل سورة من أكبر سوره هي سورة آل عمران سماها باسمهم وسورة المائدة ، وهي من أكبر سور القرآن أيضاً تكاد تكون مقصورة عليهم وفي القرآن سورة يوسف وسورة إبراهيم وسورة مريم وسورة الأنبياء وكلها ملأى بالحديث عن بني إسرائيل ، أما سورة الأعراف فإنها تروى قصة موسى مع فرعون ومع السحرة المصريين ، وتتحدث عن إخراج بني إسرائيل من مصر ، ومناجاة موسى لربه وأخذه الألواح . وتذكر انحراف بني إسرائيل ، واتخاذهم العجل معبوداً وغير ذلك من شئونهم

على أن القرآن لايقتصر في الحديث عن بني إسرائيل على هذه السور التي ذكرناها ، وإنما يتخلل الحديث عن بني إسرائيل كثيراً من السور

(١) سورة آل عمران آية ٥٩

من ذلك نرى مبلغ الأهمية التي وجهها القرآن إلى بني إسرائيل لإرشادهم إلى الهداية . ولقد صور القرآن في أحاديثه هذه أخلاقهم في وضوح . وكان في ذلك كطبيب يشخص المرض تشخيصاً دقيقاً حتى يسهل العلاج ، ولكن اليهود الذين نعوا من موسى مبلغاً جعله يقول

(رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين)[1]

كانوا عصيين على الصلاح ، حتى لقد أيئسوا داود وعيسى عليهما السلام فلعناهم

(لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)[2]

ولقد وصل بهم الأمر إلى أن كانوا يقتلون أنبياءهم بغير حق

بيد أن هذه الناحية الأخلاقية ليست من أهدافنا الأولى في هذا الكتاب وتصفح القرآن خير هاد لمعرفتها ، والذى يعنينا هنا إنما هو عقيدة اليهود

والقرآن يذكر أنهم اتخذوا العجل معبوداً وأنهم قالوا : «عُزَيْرٌ ابن الله» وأنكروا رسالة سيدنا محمد وعيسى – عليهما السلام – وقد تحدثنا عن رد القرآن على هذه الأمور فيما سبق

تحديد فكرة الإلهية :

وإذا بدد القرآن كل شبهة حلقت في سماء فكرة الألوهية ، وثنية كانت تلك الفكرة أو كتابية فإنه خص فكرة الألوهية بسورة واضحة ، جلية ، سهلة ، موجزة ، سماها سورة الإخلاص ، تخلصها تلك الفكرة من شوائب كل باطل وضلال

(بسم الله الرحمن الرحيم
قل هو الله أحد الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)[3]

---

(١) سورة المائدة آية ٢٥
(٢) سورة المائدة آيتا ٧٨ ٧٩
(٣) سورة الإخلاص

وقد ورد في الخبر أنها تعدل ثلث القرآن ، لأن من عرف معناها حق المعرفة ، وأدرك ما أشارت إليه إدراك صاحب البصيرة المستنيرة لم يكن بقية ماجاء في التوحيد والتنزيه عنده إلا تفصيلاً لما علم ، وشرحاً لما حصل)[1]

في هذه السورة يوصف الله بأنه واحد ، وكلمة (أحد) أبلغ في الدلالة على الوحدة من كلمة (واحد) فأحدية الله لاتركب فيها بوجه من الوجوه ، إنها ليست كواحدية الإنسان الذي يتركب من أعضاء ووحدات

وفي هذه الآية فكرة الإسلام في مقابل فكرة التعدد على أى وضع كانت

(لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة)[2]

إنها نفي التثليث ونفي التركيب ، إنها رد على النصارى ، وعلى مشركي العرب ، وهي رد على مشبهة الإسلام فيما بعد

و (الله الصمد) فإليه يرجع الأمر كله ، وهو وإن كان قد سبب الأسباب وأجرى سنته على أوضاع محددة ، وطلب إلينا أن نتخذ الأسباب مع ذلك هو المرجع الأول والأخير لكل ما يجري في هذا العالم من شئون ، فإذا ماتوجهت الآمال إلى سواه فقد ضلت وانحرفت ولقد ضلت بسبب ذلك النصارى واليهود فقد (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)[3]

وفي هذه الآية ، بصورة عامة توجيه لكل من كان يعلق آماله على غير الله

(لم يلد ولم يولد)

ينزه الله عن أن يلد أحداً ويشير إلى فساد رأى القائلين بأن له ابناً ، أو بنات ، وهم مشركو العرب ، واليهود ، والنصارى ، وغيرهم ، ويبين لهم أن الألوهية تستلزم الولادة والتعبير بالاشتقاق ونحوه لايغير المعنى ، والولادة إنما تكون من الحي الذي له مزاج ، وما له مزاج ، فهو مركب ، ونهايته إلى الانحلال — والفناء ، وهو جل شأنه منزه عن ذلك .

وقوله لم يولد يصرح ببطلان مايزعمه بعض أرباب الأديان من أن ابن الله

(١) الشيخ محمد عبده — جزء عم ص ١٧٦ (٣) سورة التوبة آية ٣١

(٢) سورة المائدة آية ٧٣

يكون إلهاً ، ويعبد عبادة الإله ، ويقصد بما يقصد به الإله ، بل لا يستحي العاقل منهم أن يعبروا عن والديه ، وأم الله لعاذره ، في موجود حادث . ولا يكون إلا بمزاح ، وهو لا يسلم من عاقبة الفساد

ودعوى أنه ابن مع تنبيه بما لا يمكن تعقله ، ولا تعبير من حقيقة الأمر شيئاً

فإذا أراد أحد من هؤلاء أن يدعي التنزيه في عقيدته إلا أن يقلع عن هذه الألفاظ ونسبت ويقول كما نقول

(الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد)

وهو نفي لما يعتقده بعض المبطلين من أن لله نداً في أفعاله يعاكسه في أعماله على نحو ما يعتقده بعض الوثنيين في الشيطان مثلاً

فقد نفى بهذه الصورة جميع أنواع الإشراك . وقرر جميع أصول التوحيد والتنزيه(١)

١٦

القرآن وأسئلة العرب

في هذه الفترة من صدر الإسلام فترة حياة الرسول ﷺ كان القرآن ، وكان الرسول في أحاديثه يلبي حاجات الأمة ، اعتقادية كانت ، أو تشريعية ، أو خلقية ، وكانت الأسئلة تترى موجهة إلى الرسول ﷺ ، فيجيب عنها الوحي القرآني تارة ، وتجيب عنها أحاديث الرسول تارة أخرى ، وأسئلة المجتمع إذ ذاك لم تكن تنتهي إلى حد وكانوا يسألون الرسول في كل صغيرة وكبيرة فقد سألوه عن الروح ، وسألوه في القدر ، وسألوه عن الأنبياء ، وسألوه عن المصير وسألوه عن الله ، وعن الإيمان والإسلام ، والإحسان ، والساعة

وسألوه عن الخمر والميسر ، والمأكل والمشرب ، والأهلة والمحيض ، وسألوه عن كل ما كان يجول في أذهانهم

(١) الشيخ محمد عبده تفسير جزء عم ١٧٨ - ١٧٩

وكان القرآن سجلاً يصور الكثير من الأسئلة ويعطي الإجابة عنها ، وهاهي ذي آيات متتالية من سورة البقرة توضح هذه الفكرة

(يسألونك ماذا ينفقون ، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم . كتب عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون

يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم

يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما

ويسألونك ماذا ينفقون ، قل العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة

ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم ، إن الله عزيز حكيم ، ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولاتنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ، ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون

ويسألونك عن المحيض ، قل : هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ، ولاتقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)[1] .

---

(١) سورة البقرة الآيات ٢١٥-٢٢٢

أظن أننا بعد الذي قدمناه لسنا في حاجة إلى الرد على الأستاذ دي بوي في قوله :

«جاء القرآن للمسلمين بدين ، ولم يجئهم بنظريات ، وتلقوا فيه أحكاماً ولكنهم لم يتلقوا فيه عقائد»

لقد رأينا بوضوح فيما سبق أن القرآن جاء للمسلمين بدين ، وبنظريات ، وبأحكام وبعقائد

ولاشك أن الإمام الرازي كان أصدق رأياً ، وأعمق غوراً إذ يقول معبراً عن الحقيقة

«إن الآيات الواردة في الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية ، وأما البواقي ففي بيان التوحيد ، والنبوة والرد على عبدة الأوثان ، وأصناف المشركين»

ويقول «وأما محمد عليه الصلاة والسلام فمشتغله بالدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد — أظهر من أن يحتاج فيه إلى التطويل» هـ .

ولم يرفع الرسول ﷺ إلا وقد أكمل الله دينه ، وأتم نعمته على المسلمين .

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً)[1] .

لقد أكمل الله للمسلمين الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً وقد أتمه عز وجل فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً .

(١) سورة المائدة آية ٣

الفصل الرابع

في تفسير القرآن

﴿حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناه في ليلة مباركة . إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمراً من عندنا . إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك . إنه هو السميع العليم﴾ (1) .

لقد أنزله الله في ليلة مباركة منه سبحانه . ولقد أنزله في ليلة القدر ، ليلة السلام والهداية ، ليلة السلام الفردي ، والهداية الفردية ، وليلة السلام الجماعي ، والهداية الجماعية .

إن القرآن رسالة رب العالمين الرحمن الرحيم إلى الكون كله بجميع عوالمه وهو رسالة رحمة : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (2)

وهو لم ينزل لعصر دون عصر ، ولا لبيئة دون بيئة ، وإنما أنزل للإنسانية حاضرها وباديها وحاضرها ومستقبلها . ومن أجل ذلك فإن الزمن هو الذي يجلي معانيه على مر الأيام ، وإن خير تفسير له هو الزمن .

والقرآن بهذا جديد باستمرار ، نضر على الدوام ، لا تنقضي عجائبه ، ولا يبلى على الزمن ، وكل شرح مطول له مهما استقصى لا يؤدي كل معانيه

ولقد تجنب رسول الله ﷺ أن يملي له شرحاً مستفيضاً ، أو تفسيراً له مطولاً رغبة منه صلوات الله وسلامه عليه في أن يقرأه القارئون بالأسلوب الإلهي النضر المانع . وتوجيهاً منه صلوات الله عليه في أن يقرأه القارئ وكأنما يتلقاه من فم الوحي مباشرة غضاً نضراً ، فيكون له مصدر هداية ، وباعث رشد ، وينبوعاً فياضاً بالحكمة .

وتجنب كبار الصحابة رضوان الله عليهم أن تستفيض أقلامهم بشرحه وتفسيره متأسين في ذلك بالرسول صلوات الله عليه ، ورغبة منهم في ألا تقوم الآراء البشرية ستائر تحجب النور القرآني أن يصل إلى القلوب مباشرة صافياً نقياً . ولم يحاولوا أن يكونوا حجاباً بين القرآن وقلوب القراء . وكان في استطاعتهم أن يكتبوا في تفسيره

(1) سورة الدخان الآيات ١-٦ (2) سورة الأنبياء آية ١٠٧

وتأويله ما شاء الله أن يكتبوا . وقد روى عن بعضهم أنه كان يتأتى له أن يكتب فى تفسير فاتحة وحدها حمل بعير من الأسفار . ولكنه لم يفعل ، كذلك لم يفعل كبار الصحابة حتى لا تتدخل البشرية المحدودة فى الخطاب الإلهى اللامحدود . ومما لا ريب فيه أن التفسير تحديد ، وأن الشرح تقييد ، وأن التأويل يتخلله عنصر من التحكم . وذلك كله تحديد لما لا يمكن أن يحد ، وتقييد للإطلاق النورانى وتحكم فى خطاب يتسامى عن التحكم .

﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾[1] .

﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾[2]

أرأيت إلى شعاع الشمس فياضاً مسترسلاً ، يغمر الكون بلألائه الذهبى . لا يحجبه غيم ولا يستره سحاب ؟ أرأيت إلى ضوء القمر فضياً متألقاً ، لا يستره سحاب ولا يحجبه شىء ؟ أرأيت إلى النور والضياء ينزل من السماء مباشرة صافياً نقياً فيتلقاه الإنسان ، وينعم به ؟ إن مثل ذلك كمثل نور القرآن ولألائه ، يصل إلى القلب مباشرة بطبعه طابع الجلال الإلهى والجمال الربانى لا يحجبه شرح ، ولا يستره تفسير ، ولا يحول بينه وبين القلب تأويل متحكم ، ولا تتدخل فيه البشرية بأى نوع من أنواع نقصها وقصورها .

وتجنب كبار الصحابة إذن أن يصل القرآن إلى قلوب الناس من خلال شروحهم وتأويلاتهم الموجهة ببشريتهم ومحدودية أذهانهم .

وقد أنزل الله القرآن ، لنعمل بما فيه ، لا لنتبارى فى جعله كتاباً فى علم الكلام نضرب بعضه ببعض ، لننتهى برأى بشرى يعارضه رأى بشرى ، فأم هو الآخر على جعل كتاب الله كتاباً فى علم الكلام ، أخذ يضرب بعضه ببعض .

لقد أنزل الله القرآن هداية ، لنعمل بآياته المحكمات التى هى أم الكتاب ، ونبتعد عن الخوض فيما تشابه منه ، ولنجعله فى كل حالة من الحالات إماماً نلتزم

---
(١) سورة الكهف آية ١٠٩ (٢) سورة لقمان آية ٢٧

هديه وتتخلق بأخلاقه ، حتى نكون نحن قرآناً ، متأسين في ذلك برسول الله صلوات الله عليه ، الذي كان على وجه الأرض قرآناً كريماً

١ – الإمام النسفي

من علماء المذهب الحنفي المشهورين ، وممن لهم قدم راسخة في كثير من العلوم ، المفسر حافظ الدين ، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ، المنسوب إلى نسف ببلاد السند بين جيحون وسمرقند

كان عالماً بالفقه وأصول الدين وأصول الفقه والتفسير ، وامتازت مؤلفاته بجودة التحري ودقة التعبير وشدة التركيز وحشد المعلومات المتنوعة في حيز بسيط ، حتى يتعسر على غير المتخصص الأخذ عنها وفهم كل ما يشير إليه .

وقد استفاد من شتى طرق البحث السابق عليه ، فخرج عن استدلالات المتكلمين وجدل الأصوليين وبساطة الفقهاء ، وتميز بطريقته الخاصة في التأليف ، كما استفاد من شيوخه المشاهير ومنهم شمس الأئمة الكردي ، وأحمد بن محمد العتابي ، وغيرهم من كبار العلماء المتخصصين

وللإمام النسفي مؤلفات كثيرة اشتهر بها كمفسر وفقيه وباحث في أصول الدين وباحث في أصول الفقه ومنها

١ – عمدة العقائد في الكلام
٢ – شرح عمدة العقائد وسماه الاعتماد
٣ – منار الأنوار في أصول الفقه
٤ – الكافي في شرح الوافي في الفقه الحنفي
٥ – كنز الدقائق في الفقه الحنفي

وكان على نسق غيره من كبار علماء المسلمين معروفاً بالزهد والصلاح والتقوى ، فضلا عن تفرغه للعلم والدراسة والبحوث . وقد اشتهر علمه وفضله في عصره وبعد عصره ، وبارك الله في مؤلفاته ، فأصبحت مرجع الباحثين ، وعال

البحث بين الدارسين ، لما فيها من تدقيق وتحقيق واكتفاء بالإشارة عن التفصيل وبالإيجاز عن الإطناب

وقدره العلماء حق قدره . فقد كتب عنه صاحب (درر الكامنة) . ووصفه بهذه الكلمة الملونة : (علامة الدنيا) .

وكتب عنه الحافظ عبد القادر في طبقاته ، فقال : « أحد الزهاد المتأخرين ، صاحب التصانيف المفيدة في الفقه والأصول . له المستصفى في شرح المنظومة ، وله شرح النافع سماه بالمنافع ، وله الكافي في شرح الوافي . وله كنز الدقائق . وله المنار في أصول الفقه ، وله العمدة في أصول الدين . تفقه على شمس الأئمة الكردي ، وروى الزيادات عن أحمد بن محمد العتابي »

والنسفي باعتباره من أئمة أهل السنة كان له موقف في غاية القوة ، وفي غاية العمق ، في الرد على كل انحراف في تفسير القرآن ، وخصوصاً تفسير الكشاف . ولم يقتصر في الرد على المعتزلة على ما كتبه في تفسير الكشاف ، وإنما فعل ذلك في كل كتبه الكلامية التي كانت محل اهتمام في رحاب الأزهر ، وقررت على الطلبة في مختلف مراحل التعليم ، وقام الأساتذة باختصارها وشرحها والتعليق عليها مستفيدين منها ومفيدين لغيرهم بها .

وكانت وفاة الإمام النسفي رحمه الله عام واحد وسبعمائة من الهجرة ببلدة إيذج بين خوزستان وأصبهان

رحمه الله ونفع بعلمه

تفسيره :

سماه الإمام النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ، ويعتبر من التفاسير العلمية المحررة ، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل

وقد تحدث الإمام النسفي عن السبب الذي دعاه إلى تأليف هذا التفسير فقال (سألني من تتعين إجابته كتاباً وسطاً في التأويلات ، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات ، متضمناً لدقائق علمي البديع والإشارات ، حالياً بأقاويل أهل السنة

والجرعة ، خالياً من أباطيل أهل البدع والضلالة ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل)

ثم ذكر أنه تردد في الإجابة ، ولكنه قطع هذا التردد ، وسار في تأليفه بجد حتى أتمه في مدة يسيرة

والناظر في هذا التفسير يجد فيه فهماً ووعياً ، وخبرة دقيقة ، واطلاعاً واسعاً ، وحسن استفادة من هذا الاطلاع

وقد استفاد من تفسيري البيضاوي والكشاف أيما استفادة . فأخذ من البيضاوي معناه الدقيق وفهمه الواعي وتوجيهه السديد وتعبيره المركز . وأخذ من الزمخشري في كشافه خبرته الواسعة بالبلاغة ومناقشته للآراء المتعددة

على أنه لم يقع فيما وقع فيه الزمخشري في كشافه من التعصب لمذهب الاعتزال وحمل الآيات في تعسف على تأييد أصوله وقواعده . بل على العكس من ذلك اتخذ موقفاً مضاداً . فحارب ما يخالف المذهب الأشعري منتقداً طريقة الزمخشري ، راداً على حججه

ويمتاز تفسير النسفي بإقلاله من الإسرائيليات ، وابتعاده ما استطاع عنها ، كما يمتاز بتحريه في اختيار الأحاديث . ويظهر ذلك مع ما يظهر في تركه ذكر الأحاديث الموضوعة في فضائل السور .

كما أنه لم يتوسع في الإعراب . ولم يدخل في تفصيلات فرعية تشتت الذهن ، وتبتعد بالقارئ عن الجو القرآني

ولم يخل تفسيره من الإشارة إلى المذاهب الفقهية في بعض آيات الأحكام ، والانتصار لمذهبه الحنفي

ولا يسلم تفسير النسفي على وجه العموم من النقد

فلقد اكتفى بإشارات في غاية الإيجاز إلى الآراء المختلفة فيما يتعلق بالآيات التي استدل بها الفرق ، ولكنه يفترض شهرة هذه الآراء ومعرفة الممكن بها ودوام هذه المعرفة . ويتمثل لنا ذلك في تفسيره لقوله تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) من سورة الملك آية ١٤

ولم يسلم من الإسرائيليات برغم احتياطه وتحفظه ، فتراه عند تفسيره لقوله تعالى من سورة النمل آية ١٦ (وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين) يقول : روي أنه صاحت فاختة ، فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا . وصاح طاووس فقال ... ثم ذكر أصنافاً من الطير ، وقول كل صنف من هذه الأصناف دون أن يعقب على ذلك ، بل دون أن يحذر من ذكر مثل هذه الأقوال التي لا سند لها من الأحاديث الصحيحة .

ويؤخذ عليه أن أسلوبه يسمو على مستوى العامة ، حيث حشد فيه أنواعاً من العلوم المتعلقة بالقرآن لا يفهمها إلا من عنده فكرة سابقة عنها . وفي آية المائدة يذكر آراء عن الحسن وعن وهب وعن غيرهما دون أن يوجه النظر إلى ما رواه الترمذي بسنده عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ (أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً . . .)

نماذج منه

١ - يقول الله تعالى :

(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم)

(والسابقون) مبتدأ (الأولون) صفة لهم (من المهاجرين) تبيين لهم وهم الذين صلوا إلى القبلتين أو الذين شهدوا بدراً ، أو بيعة الرضوان (والأنصار) عطف على المهاجرين ، أي ومن الأنصار ، وهم أهل بيعة العقبة الأولى ، وكانوا سبعة نفر ، وأهل العقبة (الثانية) وكانوا سبعين (والذين اتبعوهم بإحسان) من المهاجرين والأنصار ، فكانوا سائر الصحابة . وقيل : هم الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة والخبر (رضي الله عنهم) بأعمالهم الحسنة (ورضوا عنه) بما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية (وأعد لهم) عطف على رضي (جنات تجري تحتها الأنهار) من تحتها مكي (خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم)

٢ - يقول الله تعالى

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) التوبة آية ١٢٨ ، ١٢٩

« لقد جاءكم رسول » محمد عليه السلام (من أنفسكم) من جنسكم ، ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم (عزيز عليه ما عنتم) شديد عليه شاق لكونه بعضاً منكم عنتكم لقاؤكم المكروه ، فهو يخاف عليكم (حريص عليكم) على إيمانكم (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم (رءوف رحيم) قيل لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ (فإن تولوا) فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك (فقل حسبي الله) فاستعن بالله وفوض إليه أمورك ، فهو كافيك وناصرك عليهم (لا إله إلا هو عليه توكلت) فوضت أمري إليه (وهو رب العرش) هو أعظم خلق الله ، خلق مطافاً لأهل السماء ، وقبلة للدعاء (العظيم) بالجر وقرىء بالرفع على نعت الرب جل وعز ، وعن أبي آخر آية نزلت (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الآية.

٢ - جمال الدين القاسمي

من علماء الشام الكبار المحقق الجليل جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمي

ولد في سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف ، ونشأ في حجر والده ، وتلقى مبادئ العلوم الدينية والشرعية على يد والده ، ثم تلقى سائر العلوم على كثير من علماء عصره ، ومن أبرزهم الشيخ بكري العطار والشيخ عبد الرازق البيطار

مدحه أمير البيان شكيب أرسلان ، فكان مما قال عنه : كان في هذه الحقبة الأخيرة جمال دمشق وحب القطر الشامي بأسره في غزارة فضله وسعة علمه وشفوف حسه وذكاء نفسه وكرم أخلاقه وشرف منازعه وجمعه بين الشمائل الباهية والمعارف المتناهية

وقد سما في العلم والفضل حتى صار وقال عنه الشيخ رشيد رضا: هو علامة الشام ونادرة الأيام مجدد لعلوم الإسلام محيي السنة بالعلم والعمل والتعليم والتهذيب والتأليف وأحد حلقات الاتصال بين هدي السلف والارتقاء الذي يقتضيه الزمن الفقيه الأصولي المفسر المحدث الأديب المتفنن التقي الأواب الحليم الأواه العفيف النزيه صاحب التصانيف الممتعة والأبحاث المقنعة.

بدأ الشيخ حياته العلمية مدرساً في حياة والده. فلما توفي والده تولى مكانه في خدمة إمامة في جامع السنانية بدمشق. ومارس نشاطه العلمي في التأليف والشرح والنقد والإصلاح حتى ازدهرت تآليفه وكثرت مصنفاته، ووصل عددها إلى ما يقرب من الثمانين ما بين مخطوط ومطبوع ومن أشهرها:

- محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم
- فصل الكلام في حقيقة عود الروح إلى الميت حين الكلام
- بحث في جمع القراءات المتعارف عليها
- دلائل التوحيد
- موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين
- قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث

وتعتمد طريقته في التأليف على النقل الواعي من التراث الإسلامي الزاخر، والاكتفاء بالترتيب والتبويب، وتعقيب لطيف أو الاستدراك الخفيف. وكان من المعجبين بالشيخ ابن تيمية ومن أقطاب المدرسة السلفية. وقد اكتسب خبرة واسعة في الاطلاع والإحاطة، حتى لقد حكى عن نفسه أنه قد من الله عليه بفضله فسمع صحيح مسلم رواية ودراية في مجالس من أربعين يوماً، وسنن ابن ماجه إحدى وعشرين يوماً، والموطأ في تسعة عشر يوماً. وطالع بنفسه لنفسه كتاب تقريب التهذيب لابن حجر مع تصحيح سهو القلم فيه وضبطه وتحشيته من نسخة مصححة جداً ثم قال: وهذه الكتب قرأتها بعضها إثر بعض فأجهدت نفسي وبصري حتى رمدت.

ولقد ذكرنا ذلك، لنعرف بهمته واطلاعه الواسع وعلمه الغزير وعنايته

بالإصلاح وإخلاصه في بث الدعوة ونشر الدين والحرص على التجديد.

وقد اتهم بالدعوة إلى مذهب جديد في الدين سمي بالمذهب الجمالي، وقبض عليه، وحقق معه، ولكنه رد التهمة، وثبتت براءته، فأخلي سبيله.

ولم تخل حياته من التنقل والارتحال، فرحل إلى مصر، وزار المدينة، وعاد إلى دمشق. فانقطع في منزله للتصنيف وإلقاء الدروس الخاصة والعامة في التفسير والأدب وعلوم الشريعة، إلى أن وافاه الموت في شهر رجب من سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وألف من الهجرة.

رحمه الله ونفع به.

تفسيره

إذا أحببت أن تقرأ تفسيراً كاملاً للقرآن لا تجد فيه خرافة ولا أسطورة ولا شيئاً من الإسرائيليات المسمومة التي حشيت بها التفاسير – فعليك بكتاب الإمام القاسمي «محاسن التأويل» الذي فسر به القرآن الكريم تفسيراً يعتبر نموذجاً إلى حد كبير.

وقد تحدث القاسمي في مقدمة تفسيره فقال بعد أن أثنى على القرآن:

(وإني كنت حركت الهمة إلى تحصيل ما فيه من العلوم والاكتحال بإثمد مطالبه لتنوير العيون. فأكببت على النظر فيه، وشغفت بتدبر لآلئ عقوده ودرره، وتصفحت ما قدر لي من تفاسير السابقين وتعرفت حتى درست ما عنيتهم من غث بالسمين، ورأيت كلا بقدر وسعه حام حول مقاصده، وبمقدار طاقته جال في ميادين دلائله وشواهده. وبعد أن صرفت في الكشف عن حقائقه شطراً من عمري، ووقفت على التفحص عن دقائقه قدراً من دهري أردت أن أنخرط في سلك مفسريه الأكابر قبل أن تبلى السرائر وتفنى المعاصر)

وقد استخار الله تعالى في تسميته وتأليفه، ثم شرع في تنفيذ ما عزم عليه، فكان هذا الكتاب الجليل.

وكان شروعه في هذا التفسير بعد تكرار الاستخارة في العشر الأول من شوال سنة ست عشرة وثلثمائة وألف من الهجرة. وكان هذا العمل الجليل تفسيراً حافلاً في

سبعة عشر مجلداً . سد فراغاً وحقق نفعاً للعامة والخاصة ونفع الله به المسلمين

والناظر في هذا التفسير يجد أن مؤلفه قد أفرد جزءاً كاملاً مقدمةً لتفسيره . وفي هذه المقدمة يتجلى منهجه في التفسير ، بل في التأليف عموماً

فقد ناقش قضايا عامة وخطيرة مما يتصل بالتفسير ، ونقل آراء كثير من مشاهير العلماء في الأصول والتفسير وسائر العلوم القرآنية

فقد تحدث عن مصادر التفسير وعد أن أصولها أربعة

الأول : النقل عن النبي ﷺ وعلى المفسر التحرز من نقل ما جاء من الضعيف والموضوع

الثاني : الأخذ بقول الصحابي إذ هو معاصر للتنزيل ولعلمهم بلغة القرآن

الثالث : الأخذ بمطلق اللغة

الرابع : التفسير بما يقتضيه معنى الكلام ومفهوم الشرع .

ومصادر مقدمته غالباً من الشيوخ المعروفين .

كالإمام الشاطبي والإمام ابن تيمية وشذرات من كلام العز بن عبد السلام ، وكذلك الإمام الغزالي والراغب الأصفهاني وبعض العلماء المحدثين مثل الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا .

لقد كان الإمام القاسمي بوفرة اطلاعه ودقة فهمه وأمانته في النقل يستوعب أجود الأقوال فيما يختص بموضوع بحثه ، ثم ينقله في كتبه

وعلى هذا المنهج جرى في تفسيره ، فكان أشبه ما يكون بحديقة غناء لا ترى فيها إلا زهراً نضراً وورداً عطراً ، ولا تجد فيه ما يؤذي النفس ويثير الشعور . ويمتاز هذا التفسير الجليل ، بالإضافة إلى التحري في النقل وحسن الاختيار والبعد عن الضعيف والموضوع - بما يأتي :

١ - العناية بالمعاني اللغوية للمفردات وتوجيه الإعراب في سهولة ويسر دون تفريع أو تطويل

٢ - اعتماده على القرآن نفسه ، ثم على السنة الصحيحة ، ثم على أقوال الصحابة وآراء السلف الصالح

٣ - اهتمامه بالآيات التي تحتاج إلى بحث وإطالة النفس فيها، وذلك أن في القرآن آيات بينة وصحيحة لا تحتاج إلى بحث، إنها واضحة من ناحية المعنى

وفي القرآن آيات واضحة وصحيحة. ولكن بعض المفسرين قد حاول إثارة الجدل فيها أو أخطأ في فهمها أو فسرها بإسرائيليات أو انحرف بها لأهوائه على أي وضع كانت ويشتد اهتمام المفسر بمثل هذه الآيات شارحاً ومبيناً محقاً للحق وكاشفاً لزيف الباطل، وينقل في سبيل ذلك عن القدماء ما يؤيد فكرته، ويتخذ من هذا التأييد كمصدر أول: القرآن، فإنه يفسر بعضه بعضاً. ويتخذ كذلك الأحاديث الصحيحة الشريفة عن رسول الله ﷺ كمصدر آخر. ثم ينقل عن العلماء القدامى وعن العلماء المحدثين ما يؤيد وجهة نظره. وهي في الأغلب الأعم وجهة نظر سليمة.

٤ - اهتمامه بذكر وجوه القراءات مع الترجيح بينها.

يقول في تفسير قوله تعالى ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾ آية ٣٦ من سورة البقرة.

فأزلهما الشيطان عنها: أي أذهبهما عن الجنة وأبعدهما، يقال: زل عن مرتبته وزل عني ذاك: إذا ذهب عنك، وزل من الشهر كذا. وقال ابن جرير: فأزلهما بتشديد اللام بمعنى استزلهما. من قولك زل الرجل في دينه إذا هفا فيه وأخطأ فأتى ما ليس له إتيان فيه. وأزله غيره إذا سبب له ما يزل من أجله في دينه أو دنياه. وقرئ (فأزالهما) بالألف من التنحية فأخرجهما مما كانا فيه من الرغد والنعيم والكرامة.

ولقد تأثر الإمام القاسمي أيما تأثر بالإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، اهتم اهتماماً واضحاً بكل ما تفردا به من آراء. إنه ينقل عن ابن تيمية رأيه في مجازات القرآن. وهو من الآراء التي اشتهر بها ابن تيمية وخالف فيها كثيراً من العلماء.

وأعجب بالإمام محمد عبده أيما إعجاب، وينقل عنه رأيه في وجوه التفسير ومراتبه، نقلاً عن مقدمة تفسير الإمام محمد عبده المشهور، ينقله مؤثراً به مقراً به.

ونستطيع أن نقول نحن: لقد تأثر القاسمي بمنهج الإمام محمد عبده وسلك سبيله

وبين منهج ابن تيمية ، لكن إعجابه بالشيخ محمد عبده لم يمنعه من مخالفته في مسائل الملائكة وآدم وإبليس والسحر وغير ذلك . لم يقل برأى الإمام في هذه الأمور ، وسار على رأى الجمهور في أنها حقائق ، وليست تعبيراً بالمثال والإرشاد والتفهيم .

ولعل هذا يكشف لنا جانباً هاماً من جوانب الإمام القاسمي .

لقد كان صاحب تقدير ، وكان يتحكم فيما يختار ، ولا ينساق وراء الآراء تبعا لشهرة قائلها وانتشارها بين الناس .

ومن المعالم البارزة في تفسيره الاعتناء بالربط بين الآيات المختلفة والكشف عن مظاهر الحكمة في ترتيب القرآن . ففي سورة البقرة مثلا يتحدث عن الانتقال من قصة آدم ودعوة بنيه إلى الدين ، إلى الحديث عن بني إسرائيل في قوله تعالى :

(قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون) . يتحدث عن الصلة بين الآيات فيقول :

ولما قدم الله تعالى دعوة الناس عموماً وذكر مبدأهم . دعا بنى إسرائيل خصوصا وهم اليهود . لأنهم كانوا أولى الناس بالإيمان بالنبى ﷺ ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، فدعاهم تارة بالملاطفة ، وتارة بالتخويف ، وتارة بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أفعالهم .

ونعود فنقول :

إن التفسير تعبير حى عن الشيخ القاسمى في سعة علمه ووفرة مراجعه وحسن انتقائه وسلامة منهجه ودقته في التعبير واقتصاره على قدر الحاجة وقد ضم عصارات الأفكار وخلاصة آراء العلماء في كثير من الآفاق العلمية والفكرية والعملية ، كما عبر عنها القرآن .

وبلغ من تأثر الإمام القاسمى بابن تيمية أنه عد من مدرسته . ولو كان من مدرسة ابن تيمية في الفقه مثلا أو في مسائل الأخلاق لكان الأمر سهلا لا يحتاج إلى

تيمية . ولكنه كان من تلامذة ابن تيمية في إثبات الجهة وفي عقيدة الصفات . وقد سار على هذا النحو في تفسيره .

وهذا المنهج غير مسلم به عند جمهور العلماء من أهل السنة

ومما يؤخذ على الإمام القاسمي في تفسيره أن استمداده من الإمام ابن كثير بلغ حداً كبيراً إذ يكاد يشبه تفسير الإمام ابن كثير في عديد من موضوعاته ومع ذلك فإن هذا التشابه القوي لا يبرئه عن صفاته فهو نابع من اتحاد الرأي وتشابه الأفكار لا من النقل والتقليد

نموذج منه

قال تعالى

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون)

(أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين)

(وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم)

(وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) [1]

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) :

أي لو كان ما كرهوه من الحق الذي هو التوحيد والعدل المبعوث بهما الرسول صلوات الله عليه موافقاً لأهوائهم المتفرقة في الباطل المشتتة عن نفوسهم الضالة لعمه لفسد نظام الكون لأن مناط النظام ليس إلا ذلك وفيه من تنويه شأن الحق والتنبيه على سمو مكانته ما لا يخفى

(بل أتيناهم بذكرهم) إضراب عن توبيخهم بكراهته و انتقال إلى لومهم بالنفور عما ترغب فيه كل نفس من خيرها . أي ليس مكروهاً بل هو عظة لهم لو اتعظوا و فخرهم أو متمناهم . لأنهم كانوا يقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا من عباد الله المخلصين

(١) سورة المؤمنون الآيات ٧١ - ٧٤

(فهم عن ذكرهم معرضون) أى بالنكوص عنه وبُعد تذكر تفخيما وإضافة
لهم لسبقه ولى سورة الأنبياء (ذكر ربهم) لاقتضاء ما قبله له.

(أم تسألهم خرجا) أى جعلا على أداء الرسالة فلأجل ذلك لا يؤمنون (فخراج
ربك خير) أى عطاؤه

(وهو خير الرازقين وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم وإن الذين لا يؤمنون
بالآخرة عن الصراط لناكبون)

أى منحرفون قال القشانى: «الصراط المستقيم الذى يدعوهم إليه هو طريق
التوحيد المستلزم لحصول العدالة فى النفس ووجود المحبة فى القلب وشهود الوحدة
والذين يحتجبون عن عالم النور بالظلمات وعن القدس بالرجس فإنهم منهمكون فى
الظلم والبغضاء والعداوة والركون إلى الكثرة، فلا جرم أنهم عن الصراط ناكبون
منحرفون إلى ضده، فهو فى واد وهم فى واد» وقال الزمخشرى

قد ألزمهم الحجة فى هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذى أرسل إليهم
رجل معروف أمره وحاله مخبور سره وعلنه خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين
ظهرانيهم وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل، ولم يجعل
ذلك سلما إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام
الذى هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أدوائهم وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل
واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان، وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق
وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة وكراهتهم للحق وإعراضهم عما
فيه حظهم من الذكر

٣ – الإمام الخازن

هو الإمام الفقيه المفسر المحدث المؤرخ علاء الدين أبو الحسن على بن إبراهيم بن
عمر بن خليل الشيحى البغدادى الشافعى الصوفى المعروف بالخازن.

ولد ببغداد سنة ثمان وسبعين وستمائة ونسب إلى «شيحة» بالقرب من حلب

ولقب بالخازن لقيامه بالإشراف على مكتبة إحدى المدارس الهامة بدمشق.

وأخذ في السياحة منذ أن اشتد ساعده على طريقة العلماء الذين لا يكتفون بالقطر الذي يعيشون فيه، والذين يسعرون دارسين متأملين متصلين بكبار العلماء

لقد سافر إمامنا من بغداد إلى حلب، ومكث فيها فترة طويلة من الزمن، حتى لقد نسب إلى مدة ماعرف منها ورحل إلى دمشق، وكانت تدخر بطائفة كبيرة من العلماء أمثال القاسم بن المظفر، بل ب دمشق إذ ذاك كان بها نساء وصلن في العلم إلى درجة من الدرجات العظمى فجلسن للتفسير والتحديث، ومنهن وزيرة ست عمر.

ونهل الإمام الخازن من كل منابع العلم في دمشق - شيوخاً وكتباً. وجاهد جهاداً مستميتاً في سبيل التعريف بالعلم جمعاً وشرحاً وتأليفاً فجمع تفسيراً كبيراً سماه «لباب التأويل في معاني التنزيل»

واهتم اهتماماً كبيراً بالحديث فصنف كتاباً يدل عنوانه على هدفه منه وهو «مقبول المنقول».

وقد حاول مصنفاً أن يجمع في كتابه هذا المقبول من المنقول، فشمر عن ساعد الجد، وكتب عشر مجلدات جمع فيها بين مسند الإمام الشافعي ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وكتب الصحاح الستة البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه، وضم إلى كل ذلك موطأ الإمام مالك وسنن الدارقطني، فأصبحت عشرة كتب رتبها على الأبواب، وهو عمل ليس بالسهل ولا باليسير ولابد فيه من الصبر العميق والجهد الكبير

وفضلا عن كل ذلك فإنه جمع سيرة الرسول ﷺ في صورة مطولة مستفيضة في كتاب سماه «سيرة خير الخلائق محمد المصطفى سيد أهل الصدق و الوفا»

ولا عجب في ذلك فإن من جمع كل هذه الكتب في الأحاديث ورتبها، محيط بسيرة رسول الله ﷺ

ويروى عن الإمام الخازن أنه كان حسن السمت، معنيا بملابسه وهيئته.

متابعا لقوله تعالى (خذوا زينتكم عند كل مسجد[1]) ولقوله (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون[2]). ومتابعا لقول الرسول ﷺ «إن الله جميل يحب الجمال». وكان دائم البشر، وكل من كان حسن الثقة في الله فإنه باستمرار دائم البشر. وكان متبسماً في السراء والضراء، لأنه يثق في حكمة الله. كان متفائلا في العسر واليسر. وكان من خلقه التودد إلى الناس وهذا التودد هو الذي جعله يفيد أكبر مجموعة من الناس علماً وهداية.

وكان من أجمل خلقه التواضع، وهضم النفس، وعدم الاعتداد بما وصل إليه من علم.

لقد كانت حياته – في سبيل الله علما وعملا، دراسة وتدريس، هداية وإرشاداً.

وتوفي إلى رحمة الله في آخر شهر رجب أو مستهل شعبان سنة إحدى وأربعين وسبعمائة نحسب.

رحمه الله رحمة واسعة.

تفسيره

يعتبر تفسير الخازن من أقرب التفاسير المبسوطة تناولا، وأسهلها فهما، وأكثرها نفعا للعامة والخاصة.

وقد تحدث عن تفسيره فقال:

«لما كان كتاب الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، من أجل المصنفات في علم التفسير، وأعلاها وأسنها وأسناها، جامعاً للصحيح من الأقاويل، محلى بالأحاديث النبوية، مطرزاً بالأحكام الشرعية، موشى بالقصص الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مرصعاً بأحسن الإشارات، مخرجاً بأوضح العبارات، مفرغاً في

(١) سورة الأعراف آية ٣١ (٢) سورة الأعراف آية ٣٢

قلب الحال بأفصح مقال. أحببت أن أنتخب من غرر فوائده، ودرر فرائده، وزواهر نصوصه، وجواهر فصوصه، مختصراً جامعاً لمعاني التفسير، ولباب التأويل والتعبير، حاوياً لخلاصة منقوله، متضمناً لنكته وأصوله مع فوائد نقلتها، وفرائد لخصتها، من كتب التفسير المصنفة في سائر علومه المؤلفة، لأنه أقرب إلى تحصيل المراد.

ثم بين منهجه فيما يتعلق بالأحاديث النبوية في تفسيره: لقد حذف منها الأسانيد، واكتفى بالمتون ليسهل تناوله وتحقيق الإيجاز. ولما كان حذف الإسناد يحتاج إلى التيقن من درجة الحديث ومكانته – فقد ذكر من خرج الحديث من الأئمة وبين اسمه. وزيادة في الاختصار اكتفى عن اسم المخرج بذكر حرف بدلا عنه، فأشار إلى البخاري بحرف خاء، وإلى مسلم بحرف ميم، وإلى ما اتفق عليه بحرف قاف، وإلى أئمة الحديث الآخرين كأبي داود والترمذي بأسمائهم.

وقدم لتفسيره بخمسة فصول

الأول: في فضل القرآن وتلاوته وتعليمه

الثاني: في وعيد من قال في القرآن برأيه من غير علم، ووعيد من أوتي القرآن فنسيه ولم يتعهده

الثالث: في جمع القرآن وترتيب نزوله، وفي كونه نزل على سبعة أحرف

الرابع: في معنى نزول القرآن على سبعة أحرف، وما قيل في ذلك.

الخامس: في معنى التفسير والتأويل

وفرغ من تأليفه في يوم الأربعاء العاشر من رمضان سنة خمس وعشرين وسبعمائة من الهجرة

ومما يؤخذ عليه استطراده في تفسيره بلا حدود، والاستطراد قد يحسن في بعض المواطن، ولكنه في غيرها مذموم. وقد جره هذا إلى الإفراط في النقل، فنقل كثيراً من القصص الذي لا أصل له من الكتاب والسنة، أو له أصل، ولكن شوهته الزيادات والاستطرادات، من المحرفين

وانتخب تفسيره من تفسير البغوي، وتفسير البغوي نموذج حي للتحرير

والتدقيق بعد تجريد تفسير الثعلبي من الموضوعات والآراء البعيدة عن الصواب

يقول ابن تيمية :

وكان الثعلبي حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع . والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي ، لكنه صان تفسيره من الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة عند انطلق الحد . مع زياداته . ولم يكتف بالأخذ عن البغوي ، وإنما أضاف إليه من غيره . ويبدو أنه أرجع ما تركه البغوي محتشا به كتابه .

ويظهر لنا هذا الاستطراد في تفسيره سورة الكهف مثلا ، حيث ذكر (قصة أصحاب الكهف) ونقل رواية محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار . ونقل رواية أخرى عن عبد بن عمرو . ويستغرق هذا من التفسير ثماني صفحات من القطع الكبير . وكثير مما ذكره إن لم يكن كله فيما يتصل بهذا الموضوع لا أساس له من الصحة .

على أنه إذا كان ينقل هذه القصص فإنه يتحرى في كثير من الأحيان فيما يتصل بعصمة الأنبياء من أحاديث وروايات ، إذ يذكرها ثم يعقب عليها بالنقد والتفنيد . ففي مجال الحديث عن داود عليه السلام مثلا ذكر القصص التي ليست بصحيحة بالنسبة إلى سيدنا داود عليه السلام . ثم عقب عليها بفصل عنونه بقوله (فصل في تنزيه داود عليه السلام عما لا يليق به وينسب إليه) وينقد في هذا الفصل الروايات التي تمس عصمة داود عليه السلام .

ويحاول بعض الأحيان - على ما يرويه من قصص مبينا درجتها من الصحة والوضع . على أن هذا التفسير - مع ذلك - لم يخل من كثير من القصص التي تحتاج إلى تحرير .

ومع النقد لابد من ذكر المحاسن

لقد امتاز تفسير الخازن بالإشارة إلى مصادر الأخبار . وبعض الاستطراد ذات فيه طريقة فمثلا في تفسير قوله تعالى : (فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني

برحمتك في عبادك الصالحين)(١) يستطرد إلى ذكر ضحك الأنبياء فيقول

قال أكثر ضحك الأنبياء تبسم

وقال معنى ضاحكا متبسماً

وقيل : كان أوله التبسم وآخره الضحك

وعن عائشة رضي الله عنها قالت ما رأيت النبي ﷺ مستجمعاً قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته ، وإنما كان يتبسم .

نماذج منه

قال تعالى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)(٢).

وبالحق أنزلناه وبالحق نزل يعني أنا ما أردنا بإنزال القرآن إلا تقريره بالحق ، فلما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع وحصل وقيل معناه وما أنزلنا القرآن إلا بالحق المقتضي لإنزاله وما نزل إلا متلبساً بالحق لاشتماله على الهداية إلى كل خير وما أرسلناك إلا مبشراً: يعني بالجنة للمطيعين

ونذيرا أي مخوفاً بالنار للعاصين

قوله عز وجل (وقرآنا فرقناه) أي فصلناه وبيناه . وقيل فرقنا به بين الحق والباطل وقيل معناه أنزلناه نجوما لم ينزل مرة واحدة بدليل قوله تعالى : (لتقرأه على الناس على مكث) أي على تؤدة . وترسل في ثلاث وعشرين سنة ونزلناه تنزيلا أي على حسب الحوادث

قال تعالى

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً . ماكثين فيه أبداً . وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت

(١) سورة النمل آية ١٩ (٢) سورة الإسراء آية ١٠٥ ، ١٠٦

كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً) [١]

قوله عز وجل : الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب : أثنى الله سبحانه وتعالى على نفسه بإنعامه على خلقه ، وعلم عباده كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهى الإسلام ، وما أنزل على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذى هو سبب نجاتهم وفوزهم ، وخص رسوله ﷺ بالذكر ، لأن إنزال القرآن كان نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم .

ولم يجعل له عوجاً :

أى لم يجعل له شيئاً من العوج قط ، والعوج فى المعانى كالعوج فى الأعيان ، والمراد منه الاختلاف والتناقض عن معانيه ، وقيل : معناه : لم يجعله مخلوقاً .

روى عن ابن عباس فى قوله تعالى : (قرآناً عربياً غير ذى عوج) قال : غير مخلوق .

قيماً : أى مستقيماً ، وقال ابن عباس : عدلا ، وقيل : قيماً على الكتب كلها مصدقاً لها وناسخاً لشرائعها .

لينذر بأساً شديداً : معناه لينذر الذين كفروا بأساً شديداً ، وهو قوله سبحانه وتعالى : (بعذاب بئيس) الأعراف ١٦٥ .

من لدنه : أى من عنده ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً : يعنى الجنة . ماكثين فيه : أى مقيمين فيه أبداً . وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، ما لهم به من علم أى بالولد باتخاذه ، يعنى أن قولهم لم يصدر عن علم ، بل عن جهل مفرط ، فإن قلت : اتخاذ الله ولداً فى نفسه محال ، فكيف قيل : ما لهم به من علم ؟ قلت : انتفاء العلم قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه . وقد يكون فى نفسه محالا لا يستقيم تعلق العلم به .

ولا لآبائهم : أى ولا لأسلافهم من قبل .

كبرت : عظمت .

كلمة تخرج من أفواههم : أى هذا الذى يقولونه لا تحكم به عقولهم وفكرهم

---

(١) سورة الكهف الآيات ١ - ٥

أبتة لكونه فى غاية الفساد والبطلان . فكأنه يجرى على لسانهم على سبيل التقليد .

إن يقولون إلا كذباً : أى ما يقولون إلا كذباً .

٤ - الشيخ طنطاوى جوهرى

الشيخ طنطاوى جوهرى علم من أعلام المعرفة الإسلامية فى العصر الحديث .

ولد فى قرية كفر عوض الله حجازى مديرية الشرقية سنة سبع وثمانين ومائتين وألف ، ونشأ نشأة عادية فى أسرته ، ثم تعلم مبادئ العلم فى كتاب بلدة (الغار) ، واشتهر بجودة الحفظ والذكاء المفرط وبديهة الحاضرة . وساعده ذلك على الالتحاق بالجامع الأزهر ، وتلقى العلم على مشاهير علماء عصره . ثم استكمل دراساته فى دار العلوم ، وتخرج منها سنة عشر وثلثمائة وألف . وعين مدرساً بمدرسة دمنهور ، ثم بالمدارس الابتدائية ، ثم بدار العلوم ثم ، بالمعلمين الناصرية ، ثم بالخديوية وتعلم الإنجليزية وهو مدرس بها ، ثم اشتغل مدرساً بالجامعة المصرية .

وكان له نشاط دينى واجتماعى كبير ، فرأس جمعية المواساة الإسلامية ، واشتغل بالعلم والأدب والفلسفة والتفسير والتأليف ، وظهر فضله فى عصره وفيما بعد عصره إلى الآن .

ولقد تحدث عن نفسه فى مقدمة تفسيره فقال :

أما بعد فإنى خلقت مغرماً بالعجائب الكونية ، معجباً بالبدائع الطبيعية ، مشوقاً إلى ما فى السماء من جمال ، وما فى الأرض من بهاء وكمال ، آيات بينات ، وغرائب باهرات . شمس تدور ، وبدر يسير ، ونجم يطير ، ووحش سير ، وأنعام تسرى ، وحيوان يجرى ، مرجان ودر ، وموج بحر ، وضياء فى مخارق الأجواء وليل داج ، وسراج وهاج ، وكتاب من العجائب مسطور ، فى لوح الطبيعة منشور ، وسقف مرفوع ... إن ذلك لبهجة لأولى البصائر ، وتبصرة لصادق السرائر .

وتحدث الشيخ عن طفولته فى تفسير سورة يوسف وكيف تأمل فى المجتمع من

حوله ؟ وقارن بين مجتمعه الريفي أو المصري وبين المجتمع العربي المتقدم ، وكيف نزعت نفسه إلى البحث لعوامل التي تسبب في ذلك ، والوصول إلى طريق الخلاص من هذا التأخر والانطلاق إلى عالم الحضارة والمدنية .

وكانت مؤلفاته أبلغ تعبير عما يجيش به نفسه ، وكانت توجيها حيًّا إلى الحضارة الحديثة والروحية على أساس من الدين ، وانطلاقا من مبادئه ، ومن مؤلفاته

١ – الأرواح .
٢ – أصل العالم
٣ – أين الإنسان
٤ – التاج المرصع بجواهر القرآن
٥ – جمال العالم
٦ – الفرائد الجوهرية في الطرق النحوية

وأظهر مؤلفاته هو تفسيره الكبير الذي جمع خلاصة مؤلفاته إن لم يكن كلها ، فصار كما قيل : «كل الصيد في جوف الفرا»

ولم يقتصر نشاط الشيخ طنطاوي على العالم العربي ، فقد تعداه إلى مختلف الأقطار الإسلامية وترجمت كتبه إلى اللغة الهندية (الأوردية) ، وإلى لغة التتار بالبلاد الروسية ، وإلى لغة جاوة ، وغيرها ، وذاعت شهرته في كثير من الآفاق

ومن طريف ما يتعلق به ما ذكرته مجلة دار العلوم ، عن أهل تركستان عندما استقلوا استقلالا تاما ، وأقاموا جمهورية إسلامية ، وأنشئوا المدارس والجامعات ، واتفقوا على أن يسموها باسم الشيخ طنطاوي جوهري وأصبحت الجامعة طنطاوية ، والمدارس جوهرية ، وألف زعماؤهم وعلماؤهم كتباً في لغتهم تدرس بهذه الجامعات باسم الشيخ ، مثل كتاب العقائد الجوهرية ، ونحوه ، لأنه في عقيدتهم حجة الشرق وفيلسوف الإسلام

ولعل هذا يعطينا صورة صادقة عن الشيخ ونشاطه العلمي والديني الذي اجتاز حدود المكان كما اجتاز حدود الزمان

وقد عمر أكثر من سبعين عاما . ووافاه الأجل بعد حياة علمية حافلة ، في سنة تسع وخمسين وثلثمائة وألف

رحمه الله رحمة واسعة

تفسيره :

سمى الشيخ طنطاوى جوهرى تفسيره « الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، المشتمل على عجائب بدائع المكونات ، وغرائب الآيات الباهرات » .

وقد ابتدأه وهو مدرس بمدرسة دار العلوم في نحو سنة ثمان وعشرين وثلثمائة وألف من الهجرة ، فكان يلقى تفسير بعض الآيات على طلبة دار العلوم ، وينشره بمجلة الملاجئ العباسية ، ثم استجمع همته لاستكمال التفسير ، فأتمه في اليوم الحادى و العشرين من شهر المحرم سنة أربع وأربعين وثلثمائة وألف ، بعد أن استغرق تأليفه ما يناهز ست عشرة سنة .

وجاء تفسيرا حافلا كبير الحجم واسع الأفق ، استغرق خمسا وعشرين جزءا يناهز كل جزء منها ما يقرب من ثلثمائة صحيفة من القطع الكبير بحروف صغيرة وطبع هذا التفسير أكثر من مرة ، وبعد أن فرغ منه كتب ملحقا له طبع في جزء مستقل

ويتحدث الشيخ طنطاوى في مقدمة تفسيره عن الهدف الذى رمى إليه من هذا المجهود العلمى الفذ فيقول

وإنى على رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين ، وينتشر على يد هذا التفسير المسلمون ، وللقرآن في مشارق الأرض ومغاربها مقرونا بالقبول وليولعن بالعجائب السماوية وبدائع الأرضية الشبان الموحدون ، وليكونن داعيا حثيثا على درس العلوم الكونية والسفلية ، وليقومن من هذه الأمة من يفوق الفرنجة في الزراعة والطب والمعادن و الحساب و الهندسة و الفلك وغيرها من العلوم والصناعات كيف لا ؟ وفي القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة ، بينما لا تزيد آيات الفقه الصريحة عن مائة وخمسين آية

ولكن تفسيره لم يقتصر على الناحية العلمية المادية وتبسيط أسلوبه وتقريبه قدر الطاقة .

لقد وضع فيه – كما يقول – ما يحتاج إليه المسلم من الأحكام والأخلاق ثم عبر في ثقة عن شعوره وهو يقول أيضاً :

وتفهم أيها الفطن أن هذا التفسير نفحة ربانية وإشارة قدسية وبشارة رمزية ، أمرت بها بطريق الإلهام ، وأيقنت أن له شأناً سيعرفه الخلق وسيكون من أهم أسباب رقي المستضعفين في الأرض (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز)[١]

ولقد ألف شيخنا تفسيره في فترة كان فيها الاستعمار ، وكان الجهل ، وكان الفقر ، ورأى الشيخ أن الجماهير المتدينة في حاجة إلى الإصلاح ، وإلى تقبله بسرعة وعن اقتناع ، ورأى أن الدين هو الطريق الوحيد لذلك فسلك هذا الطريق .

ورأى الشيخ تفرق المسلمين ، ورأى هذا التفرق أسبابه ، ومن أهمها الجهل بالدين ، وبمدى صلته بالحياة ، وارتباطه بها

ورأى الشيخ أن خير طريق لتوحيد المسلمين وتحقيق الإصلاح المنشود هو التوعية الدينية عن طريق العلم ، أو التوعية العلمية عن طريق الدين ، وسار في هذا الطريق بإصرار عجيب وعزيمة غريبة

وحركة إصلاحية علمية كالتي قام بها الشيخ طنطاوي في تفسيره لا تخلو من الأخطاء ولقد تعرض الشيخ في تفسيره للنقد بحق وبغير حق ، واضطر في كثير من المواطن إلى الرد الثائر والتنديد بمن ينتقدونه ، ويرون أن منهجه في التفسير ليس هو المنهج الملائم .

ومما لا شك فيه أن نية الشيخ في التفسير إنما هي نية الرجل المحب لوطنه (ووطنه هو العالم الإسلامي كله) والذي يرى أن هذا الوطن في حاجة إلى التعرف على العلوم الكونية والعلوم التربوية وآراء الغربيين في كثير من هذه النواحي . فاستفاض فيها استفاضة خرجت به عن الأسلوب الذي تعوده الناس في التفسير ، حتى لقد وصفه

(١) سورة الحج آية ٤٠

بعض بأنه كتاب طبيعة وكيمياء وفلك وتربية أكثر مما هو كتاب تفسير . ومن أجل ذلك منعت بعض الدول دخوله في بلادها ونقده كثير من العلماء .

وما من شك في أن المؤلف قد استطرد استطرادات كثيرة في مواضع متعددة لا تمت بصلة إلى التفسير ، كما استخرج كثيراً من علوم القرآن بحساب الجمل ، وهي طريقة غير معتادة في التفسير ، وأكثر من الحديث عن نفسه فيه حديثاً للقراء ورداً على الأعداء ، وتلك طريقة غير معهودة في الكتابة .

ومع ذلك فإن كتابه فيه التفسير التقليدي اللطيف ، إنه يقسم السورة أقساماً ثم يذكر الآيات التي يشملها القسم المعين ، ويفسرها تفسيراً تقليدياً مختصراً لطيفاً يدل على تمكن ومعرفة بأصول التفسير ، ويمضي بعد ذلك في جولته الممتعة في شتى المجالات . ولو اقتطع هذا التفسير التقليدي من مؤلفه لجاء تفسيراً لطيفاً حافلاً يأخذ مكانة عالية بين التفاسير .

كان الشيخ في تفسيره عالماً أديباً إلى جانب شغفه بالعلوم الكونية وأفاد في الأولى ، كما أفاد في الأخرى .

نماذج منه

ولكي نقدم نماذج من هذا التفسير نسوق بعض الآيات الكونية ، وبعض الآيات الاجتماعية والأخلاقية لتتكشف لنا معالم هذا التفسير .

(١) قال تعالى

(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)(١)

يقول الشيخ في تفسيره : لقد شرحت هذه الآية في كتاب (التاج المرصع) وأبنت كيف ائتلف نظام العالم العلوي والسفلي وارتباطهما وتعاشقهما ؟ وكيف بدأ تألف

(١) سورة البقرة آية ١٦٤

وتي بعلم الطبيعة ، وجعلها منظمة كإنسان واحد وحيوان واحد ونبات واحد ، فترى كل كائن مستمداً من سواه

ثم تحدث عن اختلاف الليل والنهار تبعاً لحركة الشمس ، واختلاف الحرارة والبرودة والرياح فتتساقط الأمطار من السماء تبعاً لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين لناموس الأفلاك ، وسير الشمس في البروج ، فتنشأ ممالك النبات والحيوان والإنسان من ذلك الماء ، وتهب الرياح فتسير السفن كما تسير السحب ، ولكن قوانين في سيره فالسفن لا تتجاوز ما رسم للملاحين في سيرهم من الخطوط البحرية . والسحب لا تتعدى طريقها المرسوم بالقوانين الطبيعية رحمة بالناس

وهذه جميعها مرتبط بالعلويات وكيف تسير السفن إلا بالقوانين البحرية المستخرجة من علم الأفلاك ، ومراقبة الأطوال والعروض والنجوم وسير الشمس وقانون المغناطيسية ونحو ذلك ؟

ثم صور شاهد هذه بقوانين الجدول ، وقال ب ذلك يفيد تناسق العالم كرة وحدة وشكلا وحداً يستمد الأسفل من الأعلى ، ويمد الأعلى الأسفل ، وبين أن هذا التنسق والانسجام في عملنا يدل على أن نسج العالم الأحروى على هذا النمط

ثم عقد مقارنة بين دوران الرياح وحركات المياه ودوران الشموس والكواكب وبين دوران الدم في أجسامنا ، واستخلص نتيجة هامة وهي أن العالم كإنسان واحد وحيوان واحد له رأس وأعضاء رئيسية ومرؤوسة (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة)[1] ولكي أن للجسم مدبراً واحداً فإن للعالم بارتباط أجزائه واستمداد بعضها من بعض مدبراً واحداً دل عليه قوله تعالى (وإلهكم إله واحد)[2]

واستفاض بعد ذلك في إسهاب يتحدث عن اختلاف الليل والنهار ودرجات التفاوت بينهما ، وعقد جدولا لذلك وقام بشرحه ، وضرب أمثلة عليه زيادة في التوضيح

وانتقل من العلم إلى السياسة والدراسات الاجتماعية فتحدث عن أنه كما يختلف الليل والنهار بالزيادة والنقصان تختلف الدول بالرفعة والضعة

---

(١) سورة لقمان آية ٢٨ (٢) سورة البقرة آية ١٦٣

وتحدث عن كتاب خطى بين أن التقاليد المصرية في الكشف الحديث قديمة يرجع تاريخها إلى ما قبل ثلاثين قرنا فأكثر، وتحدث عن السمن وأنواعها وعن السمك وأصنافه، وقارن بينهما، وتحدث عن كثير من مسائل الكيمياء العضوية في النبات، وقارن بين النباتات وحيوانات محمة، وعن المادة وبساطة أصلها وتعقدها وتعدد أنواعها، وعن أصل المادة واختلاف العلماء في ذلك. ثم ذكر أصنافاً متعددة من النباتات والحيوانات موضحا لها بالرسوم مشيراً إلى عجائب مثيرة في نماذج معينة من كلا النوعين. وتحدث عن السحب والزوابع والسمن الحارة والقوى الكهربية المتولدة عن الطاقة الميكانيكية التي تحرك الآلات بسرعة، وقد تسبب عن اندفاع الماء كما في سد أسوان.

واستغرقت هذه الرحلة المدهشة عشرين صفحة كاملة

وقد قدم بين يدي رحلته تفسيراً لفظياً مستفيضاً فيه كثير من الوضوح

(ب) سورة يوسف

قسم السورة إلى ستة أقسام

١ رؤيا

٢ بدء إخوة يوسف به

٣ قصته في بيت العزيز

٤ سجن يوسف عليه السلام

٥ تنظيمه لخزائن مصر

٦ خاتمة السورة وحكمها وعجائبها وفي هذه الخاتمة ذكر الآيات من قوله تعالى (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم)[1] إلى آخر السورة

(١) سورة يوسف آية ١٠٠.

التفسير اللفظي

ورفع أبويه على العرش: السرير الذي كان يجلس عليه يوسف. والرفع النقل إلى أعلى.

وخروا له سجدا: أي يعقوب وأمه وإخوته، وقيل خالته لموت أمه، وكانت تحية القوم إذ ذاك السجود وهو الانحناء والتواضع.

وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل: التي رأيتها في أيام الصبا. قد جعلها ربي حقاً: صدقاً.

وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن: وأعرض عن ذكر الجب لئلا يكون تثريباً عليهم.

وجاء بكم من البدو: من البادية، لأنهم كانوا أصحاب مواش يتنقلون بها إلى المياه والمناجع.

من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي: أي أفسد بيننا وأغرى. يقال: نزغ الرائض الدابة إذا نخسها وحملها على الجري.

إن ربي لطيف لما يشاء: لطيف التدبير، فلا صعب إلا وله فيه تدبير ينفذ فيه مشيئته.

إنه هو العليم: بوجوه المصالح والتدبير.

الحكيم: الذي يفعل كل شيء في وقته. يقال:

إن يوسف طاف بأبيه في خزائنه، فلما أدخله خزانة القراطيس [1] قال: يا بني ما أعقك! عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي؟ قال: أمرني جبريل. قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط مني إليه فاسأله. فقال جبريل: الله أمرني بذلك لقولك (وأخاف أن يأكله الذئب)، قال [2]: فهلا خفتني!

---

(١) الورق (٢) أي الله تعالى

البحوث حول الآيات

أما ما استخلص هذا المفسر من البحوث حول القسم الأخير من السورة فهي :
تناول رؤيا يوسف ، ورؤيا الملك . ثم هو يذكر حاله في طفولته ونزوعه إلى تغيير حالة المجتمع في عصره ، ويشير إلى ما ذكره عن ذلك في كتابه (التاج المرصع) ، ثم يذكر أنه أوضح في كتابه (أين الإنسان ؟) كيف يكون العالم أسرة واحدة ؟ ثم ينقل من كتابه (المذكرات في أدبيات اللغة العربية) قطعة في البلاغة والاعتبار بالقصص عند العرب . ويوازن ذلك بقوله تعالى (قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل)[١] . .

ثم تحدث عن العالم العلوي والسفلي ، وعن الدنيا والآخرة ، وعن الجسم والروح . وتبع ذلك الحديث عن مقاصد الدعاء والثناء في دين الإسلام ، وعن بعث جميع أنواع العبادات لتهيئهم في العلوم الكونية والمادية وأنها طريق الدنيا والآخرة

ثم تحدث باستفاضة عن كوكب الشمس ، وشكا تأخر المسلمين ، وعدم كشفهم لألوان العلوم التي يشير إليها القرآن

وتحدث عن العطف الإلهي في أسلوب عتاب يعقوب ، وكيف جمعت قصة يوسف سياسة النفس ، وسياسة المنزل ، وسياسة المدينة ؟

ثم بين كيف كشف الله تعالى لنبيه ﷺ خفايا الغيب في هذه السورة ، وتحدث عن علم الذرة وكيف تفتت ، وعن فكرة اكتشافها ومصادر التقدم في دراستها ، وغير ذلك !

وختم الحديث عن هذه الطائفة - كما يسميها - بالحديث عن تقصير المسلمين في شأن هذه السورة ، وقال : جاء في أول السورة (تلك آيات الكتاب) وفي الحرف (آيات الأرض والسماء) وقد ذم الله المعرضين عن الآيتين . فإذا حللنا الآيات في سورة يوسف وعرفنا معانيها ، وحللنا ألفاظها واستفدنا فوائدها -

(١) سورة يوسف آية ٦٤

والأخرى يحلل آيات الأرض والسماء، ويستجلي فوائدها، ويستخرج حكمها

وهكذا نجد تفكيره ومنهجه في شتى أبواب العلوم. ويستغرق ذلك ست عشرة صفحة من القطع الكبير وبالخط الصغير

وأظن أن السامع أخذ الآن فكرة عن المنهج لدى هذا الشيخ، وهو منهج يحوي في التفسير كل ما أمكن للشيخ معرفته في جميع مجالات العلم

ولقد هاجمه من أجل ذلك كثير من الناس ومدحه من أجل ذلك كثير من الناس

والذي لا شك فيه هو أن الشيخ بذل كل ما يستطيع في تفسير القرآن بنية صادقة وعزيمة أحسب أن ترضي الله ورسوله، فجزاه الله خير الجزاء، وأجزل مثوبته، وتقبل عمله

٥ — الجلالان

عالمان جليلان هما: الإمام جلال الدين المحلي، والإمام جلال الدين السيوطي

١ — أما جلال المحلي فهو الإمام محمد بن أحمد بن محمد المحلي الشافعي، المولود بمصر سنة واحد وتسعين وسبعمائة

كان مثالا للعالم الجليل حقًّا، وسار في حياته على نمط أسلافنا من قدامى العلماء الذين كانت لهم مثل عليا فيما يتعلق بالعلم وفيما يتعلق بالحياة. لقد جعلوا العلم أساساً في حياتهم، وهذا الأساس لم يتخذوه أساسا مهنياً: أي أنهم لم يتخذوه مادة تجارية مغرية؛ وإنما أقاموا حياتهم العلمية على العلم فكانوا علماء عاملين

ولم يتخذ أسلافنا العلم تجارة وتكسبا وحرفة يتقربون بها إلى الملوك والأمراء ويتوسلون به إلى الرقي والمناصب، وإنما حفظوه من أن يتبذل، وذلك أنهم اكتسبوا حياتهم المادية، واتجهوا في علمهم إلى الله سبحانه وتعالى فلم يأخذوا عليه أجرا من أجل ذلك كانت لهم حرية لا يقيدها الدينار والدرهم

لقد كان الإمام المحلي من هذا الصنف من الناس لم يكتف بالعلم، بل صاحبه

بالعمل ، ولم يمنعه الاشتغال بالتعليم عن التكسب بالتجارة ، فاستغنى عن الحكام والموسرين ، واكتفى بعيشة التقشف ، وأخلص للعلم حق الإخلاص

عرض عليه القضاء الأكبر ، فتعفف عنه ، وكان كثير من أسلافنا يرفضون القضاء تورعا وتنزها عن أن يحكموا حكما لا يرضى الله سبحانه وتعالى

وأتى إليه الكبراء ، فعاملهم معاملة عادية ، وعرض عن مداهنتهم أو التزلف لهم ، بل واجههم بعظاتهم ، ووقف في وجوههم ، ووفى لرسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حقها

اشتغل بالفقه والكلام والأصول والنحو والمنطق وغيرها من العلوم الإسلامية وامتاز بفهم عجيب صادق

ومن طريف ما يصفه به المترجمون أنهم كانوا يقولون : إن ذهنه يخرق الماس يعنون بذلك أن ذهنه حاد نفاذ حتى إنه لو توجه إلى الماس خرقه ؛ وأنه ينفذ إلى دقائق المسائل ، فيصل إلى حل ما تعقد منها .

وكان يعتمد على الفهم ، ولم يك يستطيع الحفظ

وكان يقول عن نفسه : (إن فهمه لا يقبل الخطأ)

ولقد صاحبه التوفيق في مؤلفاته ، فامتازت بالاختصار والتحرير والتنقيح وانتقاء العبارة وجودة العرض حتى جذبت الناس إليها ودفعتهم إلى الإقبال عليها .

ومن هذه المؤلفات :

كتاب شرح جمع الجوامع في أصول الفقه

وكتاب شرح المنهاج في فقه الشافعية

وكتاب شرح الورقات في أصول الفقه

وتوفى رحمه الله وهو يؤلف تفسيره للقرآن الكريم ، هذا التفسير الذى قام بإكماله تلميذه البارز الجلال السيوطي

٢ والجلال السيوطي يعتبر من أبرز رجال عصره من العلماء ، وهو الإمام أبو الفضل جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق السيوطي نسبة إلى أسيوط .

ونشأته أسرة كريمة ذات علم وفضل . توفي والده وهو في السادسة من عمره ،
فنشأ يتيماً ، ولكن معالم النجابة ظهرت عليه من صغره . فحفظ القرآن وتوجه إلى
تحصيل العلم من علماء عصره ، وذكر من شيوخه خمسين شيخاً من أعلام
العلماء .

وقد انتفع انتفاعاً لا حد له بالمكتبة المحمودية ، وكانت عامرة بالكتب النفيسة .
وابتدأ التأليف وسنه لا تتجاوز سبع عشرة سنة . وأفتى في سن الثانية والعشرين ،
وأملى الحديث في سن الثالثة والعشرين .

وعلى سنة العلماء السابقين رحل إلى كثير الأقطار منها : الشام والحجاز واليمن
والهند والمغرب ، فضلاً عن التطواف بشتى أنحاء القطر المصري . وشرب ماء زمزم
قاصداً أن يصل في العلم إلى مراتب شيوخه المتخصصين البارزين كل في فنه متابعاً
لقول الرسول ﷺ (ماء زمزم لما شرب له) .

وكان السيوطي جامعاً لكثير من العلوم والمعارف الدينية والعربية كالتفسير
والحديث والفقه والنحو والبلاغة . ووصل فيها إلى مرتبة أهلته للتأليف بكثرة
وغزارة . يقول عن نفسه : (ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها
النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها
لقدرت على ذلك من فضل الله لا بحولي وقوتي) .

وقد بدأ السيوطي الكتابة ملخصاً ومختصراً ، ثم انتهى أمره إلى الاستقلال في
التأليف . إلا أن منهج النقل يغلب عليه ، لأنه في نظره جانب مأمون .

وحياته تمثل حياة العالم في صورها السامية : لقد تفرغ للعلم وعكف عليه ، ولم
يشغله عنه شاغل . كان العلم شعاره في الصباح وفي المساء ، وكان شعاره في النوم
واليقظة ، ومن أجل ذلك كانت حياته حافلة أثمرت ما يقرب من الخمسمائة
مؤلفاً . منها : ما هو صغير لا يزيد على صفحة أو صفحتين ، ومنها ما يبلغ عدة
مجلدات .

ومن أبرز كتبه :

١ - تفسيره الكبير المسمى (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) .

٢ - كتاب (جمع الجوامع) أو (الجامع الكبير) الذى حوى ما حصله من الحديث . وهو مرتب على حروف المعجم ، مما يسر تناوله والتعرف على ما فيه . وهو يعد عملا تنوء به العصبة أولو القوة ، وقد يسره الله تعالى له لذاكرته القوية ولتمحيصه الدقيق ولاستعانته ببعض تلاميذه ، فيما يبدو فى الجمع والترتيب

٣ - كتاب (صون المنطق والكلام) وهو من أنفس كتبه وقد حققه أخيراً الدكتور على سامى النشار والسيدة سعاد على عبد الرازق

ومن كتبه المشهورة أيضاً

كتاب (اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة)

وكتاب (الإتقان فى علوم القرآن)

وكتاب (تدريب الراوى فى علوم الحديث)

وبرهن على سعة اطلاعه ورحابه أفقه فى فتاواه الكثيرة التى جمع عددا ضخماً منها فى جزأين كبيرين بعنوان (الحاوى)

ويؤخذ على السيوطى إفراطه فى النقل ، وكثرة استطراداته فى مؤلفاته ، وافتقار هذه المؤلفات إلى التهذيب والتنقيح .

بيد أن إفراطه فى النقل يسر لنا معرفة الكثير من الكتب التى كادت تندثر ولا أنه حفظ لنا أجزاء صحيحة منها من شتات كتبه ، ولولا ذلك ما علمنا عنها شيئاً

وكان يميل إلى الزهد والتصوف ، وله فيهما مؤلفات وفتاوى كثيرة ودقيقة

وقد توفى فى سنه يوم الجمعة التاسع عشر من شهر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، وصلى عليه الإمام الشعرانى ، ودفن بالقاهرة

رحمه الله رحمة واسعة

تفسيرهما .

شرك فيه الشيخان ، وقامت الأسرار بدورها فى هذا الاشتراك فقد أخذ الجلال المحلى يعد تفسيراته ، مبتدئا من أول سورة الكهف حتى انتهى من سورة الناس ، ثم بدأ فى النصف الأول ، ففسر سورة الفاتحة إلا أن الأجل وافاه بعد

تمامه ، وصار التفسير محتاجاً إلى من يكمله ، فقام الشيخ السيوطي بذلك

ولم يتحدث المحلى عن عمله فى تفسيره أو عن منهجه فيه ، وإنما تحدث السيوطى ، فأشار فى مقدمة تفسيره إلى أنه سيقوم فيه بذكر ما يفهم به كلام الله تعالى مع الاعتماد على أرجح الأقوال ، وإعراب ما يحتاج إليه ، والتنبيه على القراءات المختلفة المشهورة على وجه لطيف وتعبير وجيز ، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية

وأوضح الإمام السيوطى فى هذه الكلمات الحاجة إلى هذا النوع الوجيز من التفسير ، وافتقار العالم الإسلامى إليه ، حيث إن جمهور الناس وعامتهم لا يتجهون عادة إلى البسط العلمى المتشعب فى تفسير القرآن ، وقد لا يستفيد الكثيرون من هذا البسط ، وقد يتوهون بين رحاب التفاسير الكبيرة التى لا يحتاج إليها إلا المتخصصون

وبرغم الاختصار المركز ، وسهولة التناول فإنه يشتمل على كثير من الفنون المتصلة بمجال القرآن الكريم من الروايات المأثورة ، والإعراب ، والقراءات ، والأقوال الصحيحة المعبرة فى ثقة عن الموضوع

ولم يستغرق تفسير الجزء الذى أعده السيوطى وهو النصف الأول وقتاً كثيراً ، فقد أتمه فى أربعين يوما ، وتحدث فى ختامه عما بذله شيخه الجلال المحلى من مجهود

وقد اشتهر تفسير الجلالين وذاع صيته وظهرت حاجة العالم الإسلامى إلى مثله من التفسير ، وطبع عدة طبعات مستقلا تارة وعلى هامش أحد الكتب تارة أخرى ، وقام بعض العلماء بكتابة حواش عليه ، فصلوا فيها مجمله ، ووضحوا فيها ما مع التركيز من توضيحه ، وقاموا باستدراك مواضع مختصرة ، ومن أشهر هذه الحواشى حاشية الإمام الصاوى ، وفيها لمحات صوفية كريمة ، وحاشية الإمام الجمل وفيها إيضاحات لغوية قيمة ، وقد طبعت كل من الحاشيتين وعلى هامشها تفسير الجلالين ، ولعل صغر حجمه وسهولة استعماله وكثرة فوائده وشدة إقبال الناس عليه سبب تكرار طبعه

والذى يؤخذ على هذا التفسير أنه برغم اختصاره الشديد لم يخل من بعض القصص الذى لا أساس له من النصوص الصحيحة . فخذ مثلا ذلك فى تفسير قوله تعالى من سورة ص (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب)[1]

قد ذكر أنهما ملكان جاءا فى صورة خصمين ليتنبه على ما وقع منه . وكان له تسع وتسعون امرأة ، وطلب امرأة شخص ليس له غيرها ، وتزوجها ودخل بها

وهذا التفسير للآيات الكريمة تفسير خاطئ لا أساس له من الصحة ولا يساير عصمة الأنبياء

وكذلك فى تفسير قوله تعالى فى سورة يوسف (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه)[2] يقول (همت به) قصدت منه الجماع (وهم بها) قصد ذلك . (لولا أن رأى برهان ربه) قال ابن عباس : مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله وجواب لولا .. لجامعها

وهو تفسير خاطئ يجرد سيدنا يوسف عليه السلام من أى مقاومة تجاه امرأة تعرض نفسها عليه . والتفسير الذى يناسب الأسس الدينية وعصمة الأنبياء هو ما قال به المفسر الجليل أبو السعود : المراد هم بدفعها عن نفسه ، ومنعها عن ذلك القبيح

---

(١) سورة ص الآيات ٢١ - ٢٥ (٢) سورة يوسف آية ٢٤

نماذج منه .

قال تعالى .

(فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون [١])

(فلولا) فهلا (كان من القرون) الأمم الماضية .

(من قبلكم أولو بقية) أصحاب دين وفضل (ينهون عن الفساد في الأرض) المراد به النفي أي ما كان فيهم ذلك (إلا) لكن (قليلا ممن أنجينا منهم) نهوا فنجوا ومن للبيان

(واتبع الذين ظلموا) بالفساد وترك النهي (ما أترفوا) نعموا (فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) منه لها (وأهلها مصلحون) مؤمنون

قال تعالى

(الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين [٢])

الر : الله أعلم بمراده بذلك

تلك : هذه الآيات

آيات الكتاب : القرآن ، والإضافة بمعنى من

المبين : المظهر للحق من الباطل

انا أنزلناه قرآنا عربيا : بلغة العرب .

لعلكم : يا أهل مكة

---

(١) سورة هود آيتا ١١٦ ، ١١٧

(٢) سورة يوسف الآيات ١ - ٣

تعقلون تفهمون معانيه

حن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن •

محممة أي وبه

كنت من قبله لمن الغافلين

•

الفصل الخامس

(اقرأ باسم ربك الذى خلق)

عن عائشة أم المؤمنين فيما رواه البخارى وغيره أنها قالت

أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى

الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح

ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء . فيتحنث فيه (يتعبد) الليالى ذوات

العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى

جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك . فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ .

قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ما

أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ .

فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : (اقرأ باسم ربك

الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم

الإنسان مالم يعلم)[1]

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده . فدخل على خديجة بنت خويلد رضى

الله عنها . فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة ،

وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ! فقالت خديجة : كلا والله مايخزيك الله

أبداً . إنك لتصل الرحم . وتحمل الكلّ . وتكسب المعدوم . وتقرى الضيف .

وتعين على نوائب الحق .

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن عم

خديجة . وكان امرأ تنصر فى الجاهلية . وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من

الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب . وكان شيخاً كبيراً قد عمى فقالت له

خديجة : يابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر مارأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على

(١) سورة العلق الآيات ١ - ٥

موسى ، ياليتنى فيها جذع ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ أو مخرجيّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً

هذه الليلة المباركة هى التى سماها الله ليلة القدر ، فقال سبحانه وتعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) القدر /١

ثم أخذ الله سبحانه وتعالى يبين فضلها فقال :

(وما أدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر) القدر/٢ - ٥

ووصفها الله بأنها مباركة ، فقال سبحانه وتعالى (حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين ، رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ، رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين) [١]

عن هذه الليلة المباركة نأخذ فى حديث متدثين باسمى أحداثها ، وأسمى هذه الأحداث هو الوحي الذى يتمثل فى قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق)

وهذه المادة الأولى من الدستور الاسلامى غنية بالمعانى ، ثرية بالتوجيهات ومعانيها وتوجيهاتها ليست آتية من ألفاظها فحسب ، وإنما هى آتية أيضاً من الجو العام الذى تشير إليه أو الذى توحي به ، فهى تبتدئ أولاً بكلمة « اقرأ » إنها تأمر بالقراءة التى هى من أهم وسائل العلم والمعرفة إن لم تكن أهمها ، ويسمو الإسلام لأول لحظة زمنية من حياته ولأول كلمة فيه بسمة العلم ، وتتوالى بعد ذلك الآيات موضحة ومؤكدة هذه السمة جاعلة منها طابعاً وشعاراً

وإذ كانت الآيات الأولى التى نزلت من القرآن فى الليلة المباركة قد أمرت بالقراءة مرتين ، وذكرت مادة العلم ثلاث مرات ، وذكرت القلم فإن الآيات التى نزلت بعد ذلك بدأت بحرف من حروف الهجاء « ن » ، وتضمنت أول قسم أقسم

---

(١) سورة الدخان الآيات ١ - ٨

به الله سبحانه في القرآن، وكان هذا القسم بالقلم (ن والقلم وما يسطرون) القلم/١.

ثم تتوالى الآيات القرآنية في فضل العلم، وفي الحث على التعلم وفي تمجيد العلماء

لقد أمر رسول الله ﷺ أن يلح إلى الله متضرعاً داعياً أن يزيده الله علماً (وقل رب زدني علماً) طه/ ١١٤

وهذا الدعاء الذي يتجه به الرسول ﷺ إلى الله إنما هو من أروع الأمثلة في التربية. وذلك أنه صادر من الإنسان الكامل لأنه صادر من رسول الله أكمل الرسل يبين للأمة أن الإنسان مهما بلغت به الخبرة ينقصه الازدياد من العلم، وإذا كان الرسول أكمل المخلوقات يرجو أن يزيده الله علماً فما بالك بأفراد الأمة، وتصور زعيم أمة تكبره وتجله وتقدسه يعلن في صراحة لا لبس فيها أنه مفتقر ولن يزال محتاجاً إلى زيادة في العلم. إنه يدفع الأمة بذلك الأمة التي تقدسه - إلى السير على منواله. فترجو أن يزيدها الله علماً

أما عن هؤلاء الذين سموا بأنفسهم عن مستوى العامة فتفقهوا وتعلموا فإن الله سبحانه وتعالى يقول عنهم مشجعاً وحاثاً (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات). المجادلة/١١

وإن أسمى شيء في الحياة من غير شك إنما هو الإيمان بالله في الدرجة المطلقة من السمو ويأتي مع الإيمان، تالياً للإيمان مباشرة العلم

والعلم في النظرة الإسلامية من وسائل تثبيت الإيمان، وزيادته وتقويته. ذلك أن العلماء في الأعراف الإسلامية هم أشد الناس خشية لله سبحانه. يقول تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء). فاطر/ ٢٨

ولا يصل ذروة الإيمان الذروة المطلقة من بني آدم إلا العلماء، إن الله سبحانه وتعالى يقرنهم به وبملائكته في شهادة التوحيد، وشهادة التوحيد في ذروة سنام الإيمان إذ: أشهد أن لا إله إلا الله هي قمة الإيمان وهذه القمة لا يرقى

إليه إلا العلماء . يقول سبحانه : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم) . آل عمران / ١٨

هذه هي النظرة القرآنية للعلم الذي اتسم به الإسلام منذ «اقرأ» .

وقد يظن بعض الناس أن العلم الذي عناه القرآن إنما هو العلم بالدين فحسب ، وليس الأمر كذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما ذكر أن العلماء هم الذين يخشون الله جاءت الآية بقرينة تجعل من الممتنع أن تحدد معنى العلم بالعلم الديني فقط . يقول سبحانه : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور) فاطر ٢٧ - ٢٨

ثم إن الله سبحانه وتعالى قد من علينا بأن سخر لنا البحار والأنهار والجبال وسخر لنا الشمس والقمر والكواكب ، فقد سخر لنا الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء أي أنه سخر لنا الكون كله . وهذا الامتنان من الله سبحانه وتعالى علينا بالتسخير إنما هو من أجل أن نصل إلى السيطرة عليها باكتشاف القوانين التي وضعها الله سبحانه وتعالى لتسخيرها . يقول سبحانه : (الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار) ٣٢ - ٣٣ إبراهيم

وقال تعالى : (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) ٢٠ لقمان

وقال تعالى : (ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم) الحج ٦٥

وقال تعالى : (الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ١٢ - ١٣ الجاثية

إن الله سبحانه وتعالى قد خص الإنسان بالخلافة الأرضية . ومنحه العقل يكتشف به ما يهيئ له هذه الخلافة في العالم المادي ، العالم المحسوس . وقد سير هذا العالم المادي بنواميس محكمة مطردة . وعلى الإنسان أن يكتشف هذه النواميس ، ليطوع الكون له ، وعليه أن يكتشف هذه النواميس كمظاهر لعظمة الله وجلاله فتكون من أسباب خشيته سبحانه

إن عالم التشريح يرى الدقة في الصنع والإحكام في التكوين ، ويرى هذا الإبداع البديع في تركيب الإنسان والحيوان والنبات ، فيخر ساجداً لمبدع العالم الذي أحسن كل شيء صنعاً . وإن عالم الفلك يشاهد بمرصده ويتصور بذهنه هذه السعة الشاسعة المذهلة في تصورها ، ويعلم أن كل صغير وكبير فيها يسير في تقدير دقيق ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾[1] . يرى ذلك فيخر ساجداً للمبدع ، ويردد مع القرآن الكريم ، ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ، الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾[2]

أرأيت إن غزو الفضاء والوصول إلى الكواكب ، واكتشاف نواميس الكون في أعماق البحار وعلى قمم الجبال ، وفي مجالات الجو ، إن كل ذلك في الأعراف الإسلامية الصادقة واجب على المسلمين ، وإنه لمن سوء القصد أن يشيع مشيع أن الإسلام يعارض غزو الفضاء والوصول إلى الكواكب ، إن الإسلام على العكس يوجب كل ذلك على الأمة الإسلامية التي تحب الله ورسوله أن تكون أقوى أمة في العالم حتى تؤدي رسالة الله التي كلفت أداءها

ونعود فنقول : لقد اتسم الإسلام بالعلم منذ « اقرأ » .

وإذا كان القرآن قد وجه الأمة الإسلامية إلى العلم فإن الرسول ﷺ وهو

(١) سورة يس آية ٤٠ (٢) سورة الملك الآيات ١ - ٤

صورة قرآنية كاملة . قد حث المسلمين على العلم في أساليب شتى . يقول صلوات الله وسلامه عليه : « من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » (رواه أبو داود والترمذي)

إن الاتجاه العلمي في الإسلام بدأ في صورة صريحة بـ « اقرأ » ، ولكن « اقرأ » في الإسلام مشروطة بشرط يوجه الإسلام وجهته ، إنها ليست مطلقة ، وإنما هي مقيدة بأن تكون « باسم ربك » وهنا يفترق العلم في صورته الإسلامية عن العلم في صورته الأوربية ، بل تفترق الحضارة الإسلامية عن الحضارة الحديثة ، بل تفترق الحياة الإسلامية فيما يجب أن تكون عليه عن الحياة الأوربية ، وذلك أن كل أمر من أمور المسلم يجب أن يكون : « باسم ربك » .

فالعلم أسساً وبواعث يجب أن يكون « باسم ربك » والعلم أهدافاً وغايات يجب أن يكون « باسم ربك » ، يجب أن يكون العلم في سبيل الله ، أي أن يكون للخير والفضيلة ولإسعاد الإنسانية ، فإن ما كان « باسم ربك » يحقق كل خير ، وكل مكرمة ، وكل فضيلة ، وتسعد به الإنسانية

والواقع ، والحقيقة أن القراءة المأمور بها في الآية الكريمة ليست إلا رمزاً فحسب ، إنها رمز لما ينبغي أن تكون عليه جميع أعمال المسلم . والآية تريد أن تقول : تكلم باسم ربك ، قم باسم ربك ، اعمل باسم ربك ، لتكن حياتك كلاماً وصمتاً ، حركة وسكوناً ، باسم ربك

والآية الكريمة واضحة وضوحاً بيناً في الصورة الإيجابية من الأعمال ، بيد أنها تتضمن الصورة السلبية أيضاً ، هذه الصورة التي صرحت بها الآيات فيما بعد (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق)[1] . وكذلك كل ما ذبح باسم

(١) سورة الأنعام آية ١٢١

لأصنام ، فلم يذكر اسم الله عليه فسق ، يجب اجتنابه (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق . اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم) المائدة : ٣

وسواء أكان مصدر ما صرحت به الآيات الكريمة : « اقرأ باسم ربك » ، أم مصدر ما تضمنت من هذه الآية الكريمة التي أجملت دستور الأمة الإسلامية إيجاباً وسلباً ، صراحة أو رمزاً أو إشارة ... تفصلها نوعاً من التفصيل ، آية أخرى فيها أمر إلهي لمن بعده الله ليكون أسوة حسنة للإنسانية (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣ .

إن الله سبحانه وتعالى يقول (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) الأحزاب : ٢١

وهذه الأسوة الحسنة كانت صلاته ، وكان نسكه ، وكانت حياته كلها من كل مماته ... كان كل ذلك خالصاً لوجه الله الكريم لا يشركه سبحانه فيه شريك

والمسلمون مأمورون بأن يسيروا على نهج رسولهم ، فتكون حياتهم سلباً وإيجاباً ، حركة وسكوناً ، بل ويكون مماتهم لله وفي سبيل الله ... بها في جميع مظاهرها وظواهرها يجب أن تكون قراءة « باسم ربك » (ألا لله الدين الخالص)[1] لكن ما لم يكن خالصاً لوجهه أو كل ما لم تكن قراءة باسمه فليس عملاً إسلامياً (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) الحج ٣٧

ولكن لماذا عدلت الآية الكريمة عن لفظ الله إلى لفظ : « ربك » ، في الآية الكريمة (اقرأ باسم ربك الذي خلق) وقد كنا نتوقع وعن مصدر أول آية نزلت من القرآن أن تأتي الآية بلفظ « الله » فتكون : « اقرأ باسم الله الذي خلق » وذلك

(١) سورة الزمر آية ٣

أن هذا اللفظ الكريم « الله » ، تتضمن جميع صفات الله وجميع أسمائه ولكن الآية الكريمة عدلت عن ذلك إلى لفظ « الرب » وهذا العدول له هو الحكمة البالغة ذلك أن الله سبحانه ينبه من أول الأمر إلى أن القراءة يجب أن تكون باسم « الرب » ، باسم « المربي » أي أن القراءة يجب أن تكون في الإيجاب والسلب ، في الحركة والسكون ، في النطق والصمت في إطار التربية الإلهية ، في إطار الأوامر والنواهي ، في إطار ممارسة الله للفرد وفي إطار ممارسة الله للمجتمع

والعدول عن اللفظ الكريم « الله » إلى اللفظ الكريم « الرب » إنما كان في بعض أهدافه لهذا ، إن هذا العدول يريد أن يقول للإنسان إنك حينما تدخل جزءاً في عهد الله وفي دينه وفي ميثاقه يجب أن تروض نفسك منذ البدء على أن تستجيب استجابة مطلقة لله سبحانه وتعالى في أمره ونهيه يجب أن تعقد العزم على أن تكون ربانياً

أما مايبرز ضرورة هذه الاستجابة إلى « ربك » فهو البرهان الضخم الحاسم يتمثل في قوله تعالى (الذي خلق)

وذلك أن الذي خلق أي الذي كون جميع أجزائك ، وركب جميع أعضائك ، ورتب جميع خلايا جسمك وجميع ذرات وجودك ، وأنشأك خلقاً سوياً — أن هذا الذي فعل ذلك هو الأعرف بك .

وحينما يضع دستوراً لك ، وحينما يرسم لك الحياة التي تسير عليها فإنما يفعل ذلك على علم ، ويفصل ذلك عن حكمة إنه البارئ ، إنه المكون ، إنه الخالق ، إنه المبدع ، فكيف يتأتى أن نعدل عن تربية مخلوق ، ومهما بلغت عظمة هذا المخلوق ومهما بلغ نضجه فإنه مخلوق لا خالق مكون لا مكون ، ولا يتأتى في عرف ذوي البصائر المستنيرة العدول عن تربية الموهوب إنه عدول عن تربية الكامل إلى تربية الناقص

توجيهات بالنسبة للغزو الفكري وللثقافات الوافدة

وإذا قرأ الإنسان باسم ربه، إذا استجاب الإنسان [illegible] يقتضي دخوله في عالم الإيمان والتربية الإلهية، إذا كيّف الإنسان حياته كلها لتكون قراءة باسم ربه فقد أسلم.

وإن «اقرأ باسم ربك الذي خلق» لايخرج معناها، في ثمرته، عن معنى «أسلم». والمسلم هو من دخل في الإسلام، والإسلام هو أن يسلم الإنسان وجهه لله. ولقد سئل رسول الله ﷺ عن معنى الإسلام، فقال: «أن تسلم لله وجهك، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك».

والإنسان إما مسلم صادق وإما مسلم مزيف. والمسلم الصادق لايسمح لنفسه أن ينهل من منابع غير إلهية في الأمور التي أنزل الله فيها وحياً، بل المؤمن الصادق لايتخذ له في العقيدة أو في الأخلاق إماماً غير إمامه الرباني. والأمور التي أنزل الله تدبيرها ونزل بها الوحي وصرح بها الكتاب مبادئ لايجوز في عرف المؤمنين الصادقين العدول عنها إلى غيرها.

والموقف القرآني في ذلك حاسم كل الحسم: (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلموا تسليماً)[1]

ولقد حرص الرسول ﷺ طيلة حياته على أن يستمر المنبع الذي يستقي منه المسلمون صافياً صفاءً مطلقاً، وعلى أن تستمر القراءة[2] «باسم ربك» لا تستقي إلا من المنابع الإسلامية الصافية.

وأول منبع هو القرآن الكريم، ولقد حرص رسول الله ﷺ ألا تختلط بالقرآن

---

(١) سورة النساء آية ٦٥

(٢) يلاحظ القارئ أننا نستعمل القراءة هنا على أنها رمز للحياة كلها في حركتها وسكونها كما سبق أن أوضحنا ذلك

غيره . وكان شديد الحرص في ذلك إلى درجة أنه لم يسمح في العهد الأول من الوحي أن تكتب الأحاديث التي كان ينطق بها حتى لا تختلط بالقرآن . ثم لما ثبتت معالم القرآن . وثبتت أوصافه الذاتية في الوضوح والتعرف آياته على شخصيته سمح الرسول ﷺ بكتابة السنة

ولقد حرص رسول الله ﷺ ألا يشوب الدين الإسلامي غيره . ولقد روى المحدثون في ذلك أحاديث في غاية العمق . منها مارواه الإمام أحمد . قال : حدثنا سريج بن النعمان . حدثنا هشيم . أنبأنا مجالد عن الشعبي . عن جابر : أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب . فقرأه على النبي ﷺ . فغضب وقال : « أمتهوكون فيها يابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية . لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوه أو بباطل فتصدقوه . والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني »

وأخرج عبد الرزاق في المصنف . والبيهقي في شعب الإيمان عن الزهري أن حفصة جاءت إلى النبي ﷺ بكتاب من قصص يوسف في كتف . فجعلت تقرؤه عليه والنبي عليه الصلاة والسلام يتلون وجهه . فقال : « والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتموني ضللتم أنا حظكم من النبيين وأنتم حظي من الأمم »

وأخرج عبد الرزاق والبيهقي أيضاً عن أبي قلابة : « أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مر برجل يقرأ كتاباً فاستمعه ساعة فاستحسنه . فقال للرجل : اكتب لي من هذا الكتاب . قال : نعم . فاشترى أديماً فهيأه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره وبطنه . ثم أتى النبي ﷺ فجعل يقرؤه عليه . وجعل وجه رسول الله ﷺ يتلون . فضرب رجل من الأنصار الكتاب وقال : ثكلتك أمك يابن الخطاب . ألا ترى وجه رسول الله ﷺ منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب ؟ فقال النبي ﷺ عند ذلك : « إنما بعثت فاتحاً وخاتماً وأعطيت جوامع الكلم وخواتيمه . واختصر لي الحديث اختصاراً . فلا يهلكنكم المتهوكون » (أي الواقعون في كل أمر بغير روية) .

وأخرج العرياني . والدارمي . وأبو داود في مراسيله . وابن جرير . وابن

المنذر ، وابن أبي حاتم عن يحيى بن جعدة قال

جاء ناس من المسلمين بكتف قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود ، فقال رسول الله ﷺ : «كفى بقوم حمقاً أو ضلالة أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم » ، فنزلت : ﴿ أولم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إنّ في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ العنكبوت/٥١ .

وقد اختلف موقف المسلمين ذوي الأذهان الزاكية اختلافاً صريحاً سواءً بالنسبة للأخذ من مجالي الحضارة المادي والروحي ، أم موقفهم بالنسبة للمجال المادي من الحضارات التي لم تنشأ في الجو الإسلامي سواء كان ذلك في القديم أم في الحديث . فقد كان ولا يزال موقف مشجع على الأخذ منها أي كسب ، وعلى المساهمة فيها مساهمة فعالة وعلى الارتقاء بها وتطويرها تطويراً مستمراً ، إن اكتشاف نواميس الله في الكون من واجبات المسلم . ولقد ترجم سيدنا عمر بن عبد العزيز كتاباً في الطب لما رأى حاجة المسلمين إلى ذلك . ولما ترجمت كتب الكيمياء والطبيعة والطب والهيئة في عهد أبي جعفر المنصور وبعده لم يجد ذلك من المسلمين إلا كل ترحيب .

ولكن موقف المسلمين في الجانب الروحي من الحضارات القديمة والحديثة موقف يخالف ذلك كل الاختلاف .

لقد نهر الرسول ﷺ سيدنا عمر في شدة لأنه أتى بصحف من التوراة يتلوها ، وغضب صلى الله عليه وسلم على كل من حاول أن يستقي في العقيدة والأخلاق من منبع غير القرآن والسنة النبوية الشريفة ، ونشأ المسلمون على هذا النحو من التفرقة بين الجانب المادي والجانب الروحي حتى كان عصر المأمون ، ومهما تحدث المتحدثون عن الازدهار والقوة والمجد في عصر المأمون ، ومهما قالوا من أنه العصر الذهبي للأمة الإسلامية فإنه مع ذلك عصر يتسم بسيئتين . إحداهما لايغفرها له المحبون للحرية ، والأخرى لايغفرها له أهل الصلاح والتقوى .

أما الأولى فإنها دخول المأمون في النزاع الذي كان بين علماء المسلمين في مسألة خلق القرآن ، لقد دخل المأمون في هذا النزاع بقوة الدولة رغبة ورهبة ، لقد دخل

متحيزاً لفئة ، منكلاً بالفئة الأخرى .

ولقد تحيز للمعتزلة . والمعتزلة قوم حكموا أهواءهم في الدين وحسبوا أن ما يقولونه إنما هو حكم العقل ، ولو كان حكم العقل لما اختلفوا هم وتفرقوا شيعاً وأحزاباً ، إنهم لم يأخذوا الدين مأخذ المستهدى . ولم يعترفوا بأن الدين نزل هادياً للعقل . وإنما رأوا أن العقل هو المرتبة الأولى في معرفة الخير والشر ، وهم قوم كانوا يتسمون بالتحمس الشديد للجدل النظري ويتسمون بالقصور الشديد للحس العميق من الدين ، ومن أجل ذلك انصرف جمهور الأمة الإسلامية عنهم

وكان في مواجهة هؤلاء طائفة من علماء المسلمين تتسم بالصلاح والتقوى ، وتوطين النفس على الاستهداء بالدين وعلى السير في ركاب النص القرآني أو الحديث النبوي ، ولقد كانت هذه الطائفة تتسم بالتحمس الشديد للحس العميق من الدين ، وكانت تتسم بقوة الإيمان . ويصير ذلك حتماً إلى الجهاد في سبيل الله وكفاح من أجل المسير على ما كان عليه رسول الله ﷺ وخلفاؤه رضي الله عنهم والصدر الأول للأمة الإسلامية . وكانت تضم أمثال الإمام أحمد بن حنبل والإمام (مالك) وكان يهتدي بهديها ويقتدي بسلوكها جمهور الأمة الإسلامية

لقد ترك المأمون هذه الطائفة وانحاز إلى المعتزلة . انحاز إلى المعتزلة بقوة الدولة فأغدق المال على أنصاره ، وأخذ ينكل بكل من يعارضه ، وكان المعارضون له هم المتسمين بالصلاح الحقيقي والتقوى الصادقة . إنهم أمثال الإمام الصالح أحمد بن حنبل

وما كان لنا أن نعيب دخول المأمون في نزاع علمي لو أنه دخل دخول الأب الرحيم المهدئ للنزاع ، أو أنه دخل دخول الأخ الأكبر ملطفاً ومانعاً للحدة بين الإخوة ، إنما لانعيب الدخول في النزاع بما ينقلب تكيفية ومصورة ، إنها ليست صورة دخول علمي في موضوع نقاش ديني ، وإنما هي صورة دخول حربي ، دخول من يريد أن يأمر ليطاع . دخول من لا يريد أن يصغي إلى نصح ولا أن يستجيب للبرهان !

هذه سنة ، وهي سنة لا يرضى بها أحرار الفكر ولا يرضى بها المتدينون

أما الأخرى فهي أنه برغم موقف جمهور المسلمين الحاسم من التراث الروحي للأمم الأخرى وبرغم معارضتهم الشديدة للغزو الفكري – فإن المأمون تحداهم تحدياً سافراً ، وأمر بترجمة التراث الروحي والتراث الأخلاقي للأمم الأخرى ، يونانية كانت أو فارسية أو غيرهما .

لقد ظن المأمون أن ذلك سينصره في القضية التي اتخذ الخصومة فيها مسألة كرامة ذاتية .

ولقد حكى ابن النديم في دقة رؤيا للمأمون معبرة أوضح مايكون التعبير عن نزعة المأمون وعن نزعته . لقد رأى المأمون فيما يراه النائم رجلاً أبيض اللون ، مشرباً بحمرة ، واسع الجبهة ، حسن الشمائل ، جالساً على سرير . قال المأمون : وكأني بين يديه وقد ملئت هيبة من هو هذا الرجل ؟ أهو أحد الخلفاء الراشدين ؟ أهو أحد كبار الصالحين ؟ إن المأمون يصفه وصفاً جميلاً ، ويصوره مملأ المأمون هيبة ... فمن هو يا ترى ؟

يقول المأمون : فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا أرسطو . فسررت به ، وقلت أيها الحكيم ، أسألك ؟ قال : سل . قلت : ما الحسن ؟ قال : ما حسن في العقل . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما حسن في الشرع . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما حسن عند الجمهور . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم لا ثم . قلت : زدني . قال : عليك بالتوحيد .

وسواء أصحت هذه الرؤيا أم لم تصح فإنها تعبير صادق عما كان في نفس المأمون وفي نفس المعتزلة من إكبار أرسطو .

ولعل القارئ قد لاحظ مبدأ في غاية الخطورة وهو مبدأ تقديم العقل على الشرع . لقد جعلت رؤيا المأمون ، العقل في الدرجة الأولى ، وجعلت الشرع في الدرجة (الثانية) ، وهو مبدأ معروف عند المعتزلة وعند المأمون ، وهو مبدأ لا يقره أمثال الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين . أما التوحيد في الرؤيا فإنه التوحيد لدى غلاة المعتزلة والذي عبر عنه أهل السنة بكلمة « التعطيل » .

واستيقظ المأمون من رؤياه ، فأمر بترجمة كتب أرسطو .

ولاقت هذه الدعوة الجديدة ، دعوة ترجمة كتب العقائد وكتب الأخلاق

معارضة شديدة في الأجواء الإيمانية. لقد رأت هذه الأجواء أن في عقائد المسلمين وفي أخلاق المسلمين من الصدق ومن الحق ومن الوضوح ما يغني عن غيرها. ورأت أن عقائد المسلمين وأخلاق المسلمين قد حددها الأسلوب الإلهي وبينها الأسلوب النبوي.

إن الله سبحانه وتعالى هو الذي عبر عنها، وإن رسوله ﷺ قد صاغها. وهذه ميزة لاتوجد في غير الدين الإسلامي.

أمن المعقول أن يدع عاقل من العقلاء الرسم الإلهي لصلة الإنسان بربه ولصلة الإنسان بالآخرين إلى رسم بشري لهذه الصلة، رسم يخطئ ويصيب، ويضل ويهتدي؟

أمن المعقول أن يدع الإنسان الأسلوب الإلهي في تصويره ودقته وإحكامه، وفي وضوحه، وبلاغته، ويعدل إلى أسلوب بشري يترجمه أسلوب بشري آخر؟

إن البشر في تأليفهم بشر مهما بلغوا من الذكاء. ورحم الله العقاد في قولته المشهورة من أنه لاينبغي للإنسان من تأليفه إلا يتمنى أن لو عاد للتأليف من جديد يغير ويبدل ويزيد ويحذف. وهذا شأن البشر، شأنهم على مر العصور مهما بلغوا من العبقرية والنضج!

وهذا التأليف على هذا النمط لاتقرؤه بلغة صاحبه، وإنما تقرؤه بلغة مترجم يترجم ما فهمه هو من معاني المؤلف. إن الترجمة مهما بلغت من الدقة ليست إلا فهم المترجم لكلام المؤلف.

ولم الترجمة؟ أفي العقيدة التي جاء بها القرآن والسنة نقص نستكمله؟ أو في الأخلاق التي رسمها الله ورسوله خلل نريد ترجمة كتب الوثنيين؟

إن الآراء لاتستند إلى وحي معصوم وهي آراء وثنية وإن الفرق بين الوثنية والإيمان إنما يرجع إلى أن الإيمان مصدره الوحي، أما الوثنية فمصدرها البشرية في عجزها وقصورها وجهلها. وإن البشرية مهما بلغت من رقي الحضارة لاتنفك متسمة بالعجز والقصور والجهل. وإن الاكتشافات الحديثة التي لاتنقطع والتي تطلع علينا الأخبار بها كل يوم بجديدها هي أوضح دليل على عجز البشرية وقصورها وجهلها.

ولن تبلغ البشرية يوماً ما حد الكمال ، لأنه لن تصل البشرية يوماً إلى الانتهاء من اكتشاف كل مجهول وتكشف عن كل غامض ، وإزالة الحجب عن جميع المعميات

أفنترك العصمة المطلقة في الوحي ، ونترك بيان من لا ينطق عن الهوى ، لنأخذ بقول هذا أو ذاك ممن يتسمون دائماً بالنقص والعجز وممن جهلهم أكثر من علمهم مهما سموا في المعرفة والعلم ؟

هذه الآراء التي كانت تدور في البيئة الإسلامية إذ ذاك ولئن كان يؤمن بها ويتقبلها الأغلبية من الشعب ، لم تقف في وجه الترجمة ، ولم تحل دون تنفيذ المأمون لفكرته

لقد نفذ المأمون فكرته ، ووجد الأمراء أن من إرضاء المأمون أن يؤثر الإنسان هذه الفكرة ، وأحب الأمراء رضاء المأمون فساهموا في مشروع الترجمة ، ووجد الأثرياء أن من وسائل التقرب إلى المأمون أن يساهموا في مشروع الترجمة ، فعملوا على المساهمة بمالهم في مشروع الترجمة ، ووجد المثقفون أن من عوامل التقرب إلى المأمون أن ينشروا آراء أرسطو وأفلاطون وغيرهما ، فتعلموها ، ودرسوها ، وعلموها .

وإذا كانت أفكار اليونان قد بدأت الدخول في البيئة الإسلامية على استحياء فإنها بمر الزمن استوطنت ، وألفها كثير من الناس عن طريق التكرار ، وشاعت الآراء واستقرت بالإلف والعادة والتمني والدعاية

ومنذ ذلك الحين أصبح محور (اقرأ باسم ربك الذي خلق) أصبح محورها « اقرأ باسم أرسطو ! » ، و « اقرأ باسم أفلاطون ! » وفي العصور الحديثة « اقرأ باسم ديكارت ! »

وبدأ ضلال الأمة الإسلامية لأنها لم تعد تقرأ « باسم ربك » ، أو قل : إن ضلال الأمة الإسلامية وضعفها بدأ منذ أن بدأت تشرك مع التعاليم الإسلامية غيرها

وإذا كان عصر المأمون يؤرخ العصر الذهبي للأمة الإسلامية فإنه أيضاً يؤرخ

للحظات الأولى لدبيب الضعف فى هذه الأمة .

إن الفلسفة اليونانية والفكر النظرى فى العقيدة والأخلاق والانصراف إلى ذلك والاشتغال به وجعله مظهراً للحضارة والرقى والمدنية لاينتج إلا فتوراً فى الإيمان وتخاذلاً فى العزائم وتشككاً فى كل القيم .

وهل ينتج البحث العقلى البحت فى القيم والمعايير الدينية والأخلاقية على أسلوب الإنكار والإثبات ، والأخذ والرد ، والجدل والمناظرة إلا فتوراً واستهانة ؟

هل أنتجت الفلسفة إيماناً قوياً ؟ هل أنتجت عزائم من حديد ؟ هل قادت إلى النصر ؟

وتأمل معى ملياً فى أسباب نهضة أوربا فى عصورها الحديثة .

إننا نعرف أن أوربا عاشت أزماناً متطاولة فى جهل وهمجية وانحطاط . ولقد عاشت كذلك لأنها كانت تتبنى نزعة أرسطو أو منهج أرسطو أى أنها كانت تتبنى الجدل الفارغ الذى لايؤدى إلى نتيجة ولاينتهى إلى ثمرة ، اللهم إلا الفتور والتخاذل والشك .

ثم بدأت أوربا تتجه إلى منهج فى الحياة آخر وبدأ « بيكون » يبحث عن طريقة وأسلوب للمعرفة لايعتمد على العقل النظرى البحت ، وبدأ منهج التجربة والملاحظة والاستقراء .

وأرخ هذا الاتجاه التجريبى بدء عصر النهضة الأوربية . وكما أرخ بدء دخول الفكر الأرسطى [1] انحطاط الأمم الإسلامية ، فقد أرخ بدء التخلى عن هذا الفكر بدء النهضة الأوربية الحديثة .

وإذا كان المسلمون قد سموا فى مجدهم حين كانوا يعرفون « ابن رشد » وحده فإنهم سقطوا فى ضعفهم حين بعثت هذه « ابن رشد » حكيماً لا فقيهاً أى حينما تخلوا أو كادوا عن أن يستمدوا من منابع دينهم الصافية موجهاً وقائداً .

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها أى العودة إلى « اقرأ » [2] باسم

(١) لا نقصد أرسطو بالذات ، أو أرسطو فقط ، وإنما نقصد الفكر النظرى فى مسائل ما وراء الطبيعة والأخلاق الذى لايستند إلى وحى معصوم .

(٢) نعود فنقول : إننا نعنى بـ « اقرأ » رمزاً للحياة كلها فى حركتها وسكونها فى جنباتها ومطلقها

ربك الذي خلق »

ولكن هل يعني ذلك أن نمنع الترجمة ؟ هل يعني ذلك أن نعيش في عزلة عن
الفكر العالمي ؟ هل يعني ذلك أن نمنع أنفسنا عن الاطلاع على ثمار ما أنتجتها
عقول العباقرة أمثال أفلاطون وديكارت واسبينوزا وبرجسون ؟ ليس إلى هذا
قصدنا ، وإنما قصدنا إلى معنى نعلمه في وضوح كل من يتتبع تاريخ الفكر البشري
عبر القرون

إن الظاهرة الواضحة في تاريخ الفكر البشري لدى الاستناد إلى التجربة أو الملاحظة أنه متغير مستمر ، وأنه لا يستقر على رأي ، وأنه في صيرورة دائمة وهذه الصيرورة ليس من المحتم أن تسير دائماً في طريق جديد ، بل يجوز أن تعود القهقرى ، فترجع إلى مذهب تخلت عنه ، وتعود إلى ما كانت قد عزفت عنه . ويأخذ القديم طريقه إلى الانتشار من جديد ، ثم يعفو عليه الزمن مرة ثانية وثالثة ، وهكذا يعيد التاريخ الفكري نفسه تارة ويتجدد أخرى

ومن الملاحظ أيضاً أنه ليس من المحتم أن يكون الجديد ترقياً في الفكر أو سمواً في الآراء ، بل قد يكون على العكس من ذلك انتكاساً وانحداراً !

وهذه الظاهرة البادية لكل دارس جعلت بعض المفكرين يقولون إن الآراء النظرية البحتة مثلها كمثل أزياء النساء تستبدل كل عام ! وهذا التشبيه للآراء العلمية البحتة في جانب العقيدة وفي جانب الأخلاق بأزياء النساء في التبدل والتغير والاختلاف والتطور من القديم إلى الجديد ومن الجديد إلى القديم تشبيه في غاية الصدق ! كادت فرنسا يوماً أن تؤله « أوغسط كومت » ، وكان أتباعه ومريدوه يقدسونه ويضعونه على القمة ... ومضى الزمن وأصبحت آراء « أوغسط كومت » لا يقام لها وزن ، اللهم إلا أنها حلقة من حلقات التاريخ الفكري الذي عفى عليه الزمن

ولقد كانت السوفسطائية يوماً ما أكثر المذاهب انتشاراً في اليونان ، ثم عفى عليها الزمن واندثرت ونسيت الأمة اليونانية أنها مذهب هدام ، بل يصل به الهدم إلى

هدم نفسه . وانتهت الأمة اليونانية منه ودفنته وتعفن كمذهب . ثم بعثته طائفة من المخرفين في العصر الحديث تحت اسم « الوجودية » وليست الوجودية إلا هذا المذهب المتعفن الذي تقيأه بعض المخرفين في اليونان منذ مايقرب من خمسة وعشرين قرناً من الزمن .

ولقد طنطنت الدنيا لمذهب ديكارت ، وصفق العالم له . وظن الديكارتيون أن منهج ديكارت سيحل كل مشكلة ، ويزيل النقاب عن كل محجوب ، ويكشف عن كل خطأ . وتمضي الأيام وإذا المشاكل هي المشاكل ، والمحجوب هو المحجوب . والخطأ هو الخطأ برغم استعمال منهج ديكارت وتحكيمه عن طريق ديكارت نفسه وعن طريق الديكارتيين . وتمضي الأيام كذلك وإذا بآراء ديكارت في الفلسفة - آراؤه التي سماها منهجاً مفصلاً - قد انهارت رأساً على عقب !

ولنتحدث الآن عن الفلسفة بصراحة

إن من خصائصها - على مر الزمن - أنها تبدأ من الصفر . أي أن كل فيلسوف يأتي يعلن أن العالم منذ أن وجد لم يظهر على وجهه شخصية وصلت إلى الحق في محيط ما وراء الطبيعة وفي محيط الأخلاق . وأن عالم العقائد وعالم الأخلاق مازال محتاجاً في نظره من الأساس . وأنه مازال محتاجاً إلى بناء يبدأ بوضع اللبنة الأولى تتبعها اللبنة الثانية إلى أن يتم الصرح . ويعلن الفيلسوف بذلك أن جميع الصروح القديمة في تصميمها خلل . وفي وضعها فساد . وأن خطأ في منهجها وفي وضعها وأن العالم الذي عاش بهذه الطريقة قد عاش منذ أن وجدت هذه الصروح في أوهام . إنه يعلن بذلك أن آراء الفلاسفة السابقين أوهام !

ومن خصائص الفلسفة أنه لامقياس فيها نلجأ إليه عند الاختلاف . لقد أخفق منطق أرسطو عند أرسطو نفسه ، وأخفق عند كل المناطقة ، إنه لم يحسم الخلاف في مسألة ما .

وأخفق منهج ديكارت عند ديكارت وعند كل من استعمله . ومنهج أرسطو ومنهج ديكارت هما أشهر المناهج في الفلسفة القديمة والحديثة . كيف نصل إلى الحق إذا اختلفنا في مسألة ؟ كيف نحسم الخلاف إذا أردنا ذلك ؟ كيف نتفق ؟ إن ذلك

لاسبيل له فى الجو الفلسفى ؟

إن العلم المادى إذا اختلف فيه علماء فإن الفاصل فى هذا الخلاف إنما هو التجربة أو الملاحظة . والملاحظة والتجربة فيصل فى الجو العلمى فماذا ما هو لدى فى الجو الفلسفى — بمثابة التجربة فى الجو العلمى ؟ لاشىء

ومن هنا نشأ أمران هما من خصائص الفلسفة

أما أحدهما فهو أن الفلسفة ، فى جميع آرائها عقيمة طبعه ذلك أنه لاوسيلة فيها للفصل بين الخطأ والصواب

أما الآخر فهو أن الخلاف فى الفلسفة سيستمر أبد الدهر ، ستجد دائماً مؤيد لفكرة أى فكرة ، ومعارضاً لفكرة أى فكرة ستجد المثبت والمنكر

وينتج عن كل ماقدمناه نتيجة لازمة هى من خصائص الفلسفة أيضاً ، وهى أن الفلسفة لاتقدم فيها إن مسائلها القديمة هى مسائلها الحديثة ، ومشاكلها مشاكلها فى كل عصر وفى كل زمن إن مسائل الفلسفة ومشاكلها فى عهد أفلاطون هى مسائل الفلسفة ومشاكلها فى عهد ديكارت . وهى مسائل الفلسفة ومشاكلها فى الزمن المعاصر حتى مضحكات الفلسفة وللفلسفة مضحكات قد صورت تصوره مشاكل حتى مضحكات الفلسفة لا تزال هى هى إن برجسون يتحدث عن مشكلات الفيلسوف ساحر زينون الذى ابتدع فى صوره طريفة من البدهيات مشاكل يحاول تورط الفلاسفة فيها ، ونجح فى أن جرهم إلى البحث فى البدهيات ، وإلى جعلها مشاكل ، وإلى الوقوف عاجزين أمامها مع بداهتها . وسخر منهم زينون ، وسخر منهم كل ذى بصر وبصيرة

ومن كل ذلك يتضح أن الفلسفة وهذا من خصائصها أيضاً لا رأى فيها مجمعاً فى أية مسألة من المسائل . وذلك أن هناك فى كل مسألة رأيين متعارضين أو آراء متعارضة

ولعله أصبح الآن من المقرر أن من « يقرأ باسم الفلسفة » فإنما يقرأ باسم سراب

أما النتيجة التى نريد أن نصل إليها من كل ماتقدم فهى أننا لو قرأنا الآراء المطروحة البحث على هذا الوضع الذى أوضحناه ، فلا بأس ، ويكون بذلك القراءة

باسم الفلسفة أو باسم الجانب النظرى من الفكر الإنسانى سلاة وتسلية وسياحة فى أجواء تختلف وتتعارض وتتناقض ، ونستفيد منها عبرة فيما يتعلق بعجز الإنسان وقصوره ، ونعود من هذه السياحة مقتنعين بوجوب

(اقرأ باسم ربك الذى خلق)

(اقرأ باسم ربك الذى خلق)
كيف ؟

إذا أراد الإنسان أن يدخل فى رحاب (اقرأ باسم ربك الذى خلق)

إذا أراد الإنسان أن يتأسى برسول الله ﷺ فحاول أن يقترب ما استطاع من (إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له) الأنعام ١٦٢ ١٦٣

إذا أراد الإنسان أن يدخل فى معنى « الإسلام »

فكيف يبدأ ؟

ماهى الخطوة الأولى ؟

ما الطريق ؟

إنه يبدأ بالدخول فى النظام القرآنى ، والدخول فى النظام القرآنى معناه العزم المصمم على التخلى عما ليس بقرآنى . وهذا ما يسمى فى العرف الإسلامى أو فى النظام القرآنى « التوبة »

ولقد أمر الله فى القرآن بالتوبة ، وحث عليها ، ورغب فيها ، وأوجبها فى بعض الأحيان

والواقع أنها الخطوة الأولى فى الطريق إلى الله وهى الخطوة الأولى فى طريق إسلام الوجه لله

ولقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه تفضلاً منه ورحمة يقول سبحانه فى حديث قدسى ، وفى أسلوب كله رأفة : « ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ،

وأن أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم » ويقول رسول الله ﷺ « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون »

ورسول الله ﷺ يخبر أن الله سبحانه وتعالى « يفرح » بتوبة عبده المؤمن . ويعرفنا رسول الله ﷺ : أن ربنا ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا عند ثلث الليل الأخير فينادي : ألا هل من مستغفر فأغفر له ؟ ألا هل من تائب فأتوب عليه ؟

ويقول الله سبحانه وتعالى في صورة من تجلي الرحمة ، وسعة من شمول الرأفة بالعباد ، يقول : (قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) (١)

ويلي هذه الآية الكريمة ما يبين الطريق إلى المغفرة والرحمة فيقول سبحانه وتعالى : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تُنصرون) (٢) أي ارجعوا إلى الله بالتوبة وإسلام الوجه له . ثم بين لهم الطريق الصحيح الذي يلي التوبة إذا صدقت بقوله تعالى : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) (٣)

والله سبحانه وتعالى في هذا يوجه الذين صدقوا في توبتهم إلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم . وإذ صدقت التوبة فإن هذا الصدق يستتبع كلازم من لوازمه أن يستقيم الإنسان على الطريق . والله سبحانه وتعالى يسد على الذين بين لهم الطريق باب المعاذير فيما بعد مهدداً تهديداً يقصد به حث الإنسان على أن يسارع بالتوبة الصادقة ، فهو تهديد من رحمن رحيم . يقول سبحانه : (أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين) (٤)

فإذا ماقال الإنسان ذلك أو تعلل بأمثاله فإن الرد يأتيه من رب العزة حاسماً

---

(١) سورة الزمر آية ٥٣
(٢) سورة الزمر آية ٥٤
(٣) سورة الزمر آية ٥٥
(٤) سورة الزمر الآيات ٥٦ – ٥٧ – ٥٨

قوياً : (بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين)[١]

ثم يبين الله سبحانه وتعالى حال الكفر يوم القيامة فيقول : (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين)[٢]

ويختم سبحانه هذه الآيات التي ترسم طريق المؤمن بما يبشر من تبع الطريق وسلك سواء السبيل فيقول سبحانه : (وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون)[٣]

والآن قد وضح الطريق ، فهو أولاً : التوبة . وآخراً : اتباع أحسن ما أنزل الله

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم — متابعة للأوضاع الإسلامية — يبدءون أعمالهم الهامة بالتوبة الخالصة النصوح . لقد كانوا يبدءون أول شهر رمضان بالتوبة ، ويبدءون الحج بالتوبة . ولعل الكثير من ذوى البصائر قد لاحظوا أن الرحلة المباركة ، رحلة الإسراء والمعراج بدأت بشق الصدر ، وشق الصدر بالنسبة لنا إنما هو التوبة الخالصة النصوح ، لأن التوبة تطهير وطهر ، وإذا كان الإنسان قد دنت نفسه فإن ملكين يشقان عن صدره ويغسلانه بالثلج والبرد أو بماء زمزم أى يطهرانه .

إن التوبة تطهر الإنسان من المعصية ، إنها تجب ما قبلها أى تزيله وتمحوه .

والتوبة التي من هذا النمط لها شروط لابد من توافرها حتى تهيئ الإنسان لشق الطريق إلى الله تهيئة موفقة .

يقول الإمام النووى في كتاب رياض الصالحين : قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب .

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية . والثانى : أن يندم على فعلها . والثالث : أن

(١) سورة الزمر آية ٥٩
(٢) سورة الزمر آية ٦٠
(٣) سورة الزمر آية ٦١

يعزم على ألا يعود إليها أبداً. فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه. وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه. وإن كانت غيبة استحله منها. ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي.

أما اتباع أحسن ما أنزل الله فإنه يبدأ بما كان يبدأ به رسول الله ﷺ مع الداخلين في الإسلام أعني بنود البيعة.

روى الإمام البخاري رضي الله عنه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه – وكان عبادة شهد بدراً، وهو أحد النقباء ليلة العقبة – أن رسول الله ﷺ قال وحوله جماعة من أصحابه:

«بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء الله عفا عنه، وإن شاء عاقبه» فبايعناه على ذلك.

وروى الإمام أحمد من حديث سلمى بنت قيس – وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ، وقد صلت معه القبلتين، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار – قالت: جئت رسول الله ﷺ نبايعه في نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال: «ولا تغششن أزواجكن».

ولقد وردت هذه البيعة في القرآن الكريم، يقول تعالى: (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينك في معروف

فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)[1] الممتحنة ، ١٢

ومما يفصل هذه البيعة قوله تعالى

(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون)
الأنعام ، ١٥١ — ١٥٣

وإذا أردنا إجمالاً للتعاليم الإسلامية من القرآن الكريم فهو قوله تعالى

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) النحل ٩٠

وأول عقد من عقود البيعة عدم الإشراك بالله

وحينما نسمع الناس تحدث عن « عدم الإشراك بالله » يتجه ذهنهم في الأغلب الأعم منه إلى نفي تعدد الآلهة إن الذهن يتجه إلى أن هذه العقيدة التي كانت عند اليونان في عهودهم القديمة من تعدد الآلهة وعند العرب في جاهليتهم من عبادة الأصنام ، باطلة .

لقد جعل اليونان إلهاً لكل ظاهرة من ظواهر الكون الكبرى . وكذلك فعل قدماء المصريين في عاداتهم وشعائرهم ، وكذلك فعل وثنيو العرب

بل إن الإنسانية وقد بدأت بالتوحيد الخالص على يد آدم عليه السلام قد انحرفت سريعاً إلى التعدد ، فجاءت الأنبياء والرسل تترى داعية مبشرة بالتوحيد مجاهدة في سبيل منع التعدد وفي سبيل القضاء على الوثنية المنتشرة

ولقد كان عدد الأنبياء والرسل كثيراً كثرة تناسب الانحراف المتوالي من الإنسانية منذ ظهورها لقد نزل الأنبياء جميعاً يبشرون بالتوحيد ، وكان كل نبي يدعو أمته

(ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير) هود ٢

وسورة يونس وسورة هود والكثير من سور القرآن على وجه العموم تتحدث عن دعوة الرسل قومهم إلى التوحيد

يقول سبحانه (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) هود ٢٥ ، ٢٦

ويقول سبحانه (وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون) . هود : ٥٠

ويقول سبحانه (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب) هود : ٦١ .

وهكذا نرى كل نبي يدعو إلى عدم الشرك بالله إنه يدعو إلى عبادة الله وحده ، فإذ نحه الذهن إلى عدم تعدد الآلهة ، وإلى الوحدانية فإن هذا الاتجاه طبيعي وهو اتجاه حق وهذا النوع من الشرك هو الذي يقول الله سبحانه وتعالى عنه (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) النساء ٤٨ .

وهو الذي ينفيه الله منطقيا بقوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون) الأنبياء : ٢٢

وبقوله : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) المؤمنون : ٩١

ولكن التوحيد ليس معناه عدم التعدد فحسب . كلا وهو وإن كان من معانيه عدم التعدد تتسع دائرته فتشمل أموراً أخرى :

يقول أبو سعيد الخراز « من شرح ذلك أن يكون العبد يريد الله عز وجل بجميع أعماله وأفعاله ، وحركاته كلها ظاهرها وباطنها ، لايريد بها إلا الله وحده ، قائماً بعقله وعلمه على نفسه وقلبه ، راعياً لهمه ، قاصداً إلى الله تعالى بجميع أمره »

وهذا الذى يقوله الإمام أبو سعيد الخراز رضى الله عنه هو بعض معانى (اقرأ باسم ربك الذى خلق).

إن (اقرأ باسم ربك الذى خلق) توحيد خالص، والتوحيد الخالص لا رياء فيه والله سبحانه وتعالى، يقول: (ألا لله الدين الخالص) الزمر ٣

وإن المادة الأولى من القيمة الإسلامية تعنى - فيما تعنى من معان - تجريد القصد لله تعالى فى كل عمل وإلا فلا ثواب ولا قبول للعمل (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) الكهف ١١٠

ولقد تحدث القرآن عن الإخلاص والصدق، وتحدث عنهما رسول الله ﷺ فيما لا يكاد يحصى من النصوص والأحاديث والتوحيد الخالص والشرك متعلقان بالنية: يقول رسول الله ﷺ مبيناً أن قيمة العمل فى الخير والثواب والقبول تتبع النية «إنما الأعمال بالنية» (وفى رواية بالنيات) «وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» رواه البخارى ومسلم، وأبو داود والترمذى والنسائى.

فإذا صدقت النية استقام أمر المسلم فيما بعد، وإذا هفا الإنسان هفوة فعليه أن يتدارك الأمر بالتوبة وصدق النية من جديد.

وصدق النية شرط من الشروط التى يترتب عليها قبول العمل عن الضحاك بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله تبارك وتعالى يقول: أنا خير شريك، فمن أشرك معى شريكاً فهو لشريكى، يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم، فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له، ولا تقولوا هذه لله وللرحم، فإنها للرحم، وليس لله منها شيء، ولا تقولوا: هذه لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم، وليس لله منها شيء»

والواقع أن الإسلام يعلق أهمية كبيرة على إخلاص النية لله سبحانه وتعالى، فإن فى إخلاصها لله صدق السريرة وطهارة القلب، وفيها ابتغاء الحق والزلفى، وبها تنتفى الرذيلة وينتفى الزيف والرياء ومن أجل ذلك حذر رسول الله ﷺ من الرياء

تحذيراً شديداً ، وحث على الصدق والإخلاص في صور شتى

ولقد قام رسول الله ﷺ وحيداً فريداً يدعو إلى التوحيد بكل معانيه ، ويعلن الحق في وجه الباطل ، ويدعو إلى الله في وسط كله شرك ، ويدعو إلى تحطيم الأصنام في بيئة تعبد الأصنام . ودعوته صلوات الله عليه وسلامه ، ورسالته إلى العالم أجمع . إنما كان أساسها التوحيد ، والإسلام إنما هو دين التوحيد ، وليس للتوحيد معنى إلا الإيمان الصادق اليقيني بأن المهيمن على الكون والمتصرف فيه إنما هو الله سبحانه . وأنه لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوا أي إنسان بشيء ماينفعوه إلا بشيء قد قدره الله له ، ولو اجتمع أهل السموات والأرض على أن يضروا أي إنسان بشيء ماضروه إلا بشيء قد قدره الله عليه .

وإذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك لا محالة - فإنه لايجتمع الإيمان الصادق والخوف في قلب المؤمن

والتوحيد إذن هو الأساس الأول الأصيل للشجاعة الأدبية ، كما أنه الأساس الجوهري لكثير من الفضائل أو لكل الفضائل

وتثبيتاً للشجاعة الأدبية وحفاظاً على استمرارها بين الله تعالى الأسباب التي تجعل الشخص يجبن عن قول الحق ، ويتردد في إعلان الصواب . وترجع هذه الأسباب إلى أمرين :

الأمر الأول : هو مايمكن أن نعبر عنه بهم الرزق أو خوف الفقر

وقد بين الله تعالى : أن الرزق مقسوم ، وأنه محدود ، وأنه ما كان لك فسوف يأتيك ، وما كان لغيرك فلن تناله

(وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) الذاريات ٢٢ ٢٣ (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين) هود ـ ٦

ومن الحق أن الإسلام يحث على العمل ويشجع على الأخذ بالأسباب وأن السماء لاتمطر ذهباً ولا فضة . « ولأن يأخذ أحدكم حبله ، فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يتكفف الناس واليد العليا خير من اليد السفلى »

ومع ذلك فإن الرزق فى يد الله . ومن يمنع الرزق مانع مهما كان جبروته وسلطانه . والله غالب على أمره . وهو سبحانه القوى العزيز القهار.

وأما الأمر الآخر الذى يخذل بعض الناس عن الشجاعة الأدبية فإنه خوف الموت . وهو خوف لا موضع له فإن الله قد حدد الآجال ولو كان الناس فى بروج مشيدة لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم التى يصيبون فيها (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) الأعراف ٣٤

الآجال والأرزاق فى يد الله . وكل فكرة أو رأى أو همس خفيف فى النفس يخالف ذلك إنما هو شرك .

والآن يأتى السؤال - إذا صدقت النية واتبع الإنسان أحسن ما أنزل إليه من ربه فى العمل فما هو السبيل إلى اتباع أحسن ما أنزل الله فى القول ؟
ما هى القراءة باسم ربك فى القول ؟

إن الله سبحانه وتعالى بين لنا الإحسان فى القول . كما بين لنا الإحسان فى العمل . يقول سبحانه فى المحاسن

(ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ، وقال إننى من المسلمين) فصلت ٣٣

ويقول سبحانه

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون . نزلا من غفور رحيم) فصلت ٣٠ ٣٢

وقد ضرب الله لنا المثل فى الكلمة الطيبة . وفى الكلمة الخبيثة فقال سبحانه

(ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار

يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله مايشاء)[١] .

ونستخلص مما أثبت الله في القول بما هو الدعوة إلى الله نص الآية الكريمة وإعلان الإسلام (وقال إنني من المسلمين)[٢] ومن ذلك الذكر والدعاء

في الذكر

يقول سبحانه (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب)[٣]

وإن مما يعين على التقوى وهو في الوقت نفسه من ثمار التقوى الذكر ، وحث الله سبحانه على الذكر في أسلوب أمر

(يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) الأحزاب : ٤١

وقال (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال[٤] ولاتكن من الغافلين) الأعراف ٢٠٥

وحث سبحانه على الذكر في أسلوب آخر (فاذكروني أذكركم) البقرة ١٥٢

ولقد أخرج الإمام البخاري رضي الله عنه من حديث قتادة عن رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عن ربه قال قال الله عز وجل « يابن آدم ، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منه ، وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة » (حديث قدسي) .

---

(١) سورة إبراهيم الآيات ٢٤ - ٢٧

(٢) فصلت ٣٣

(٣) سورة الطلاق من آيتي ٢ - ٣

(٤) الآصال جمع أصيل وهو مابين العصر والمغرب

ومن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله.

وروى البيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب: قال الله عز وجل: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» حديث قدسي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له جمدان، فقال: «سيروا هذا جمدان، سبق المفردون» قالوا: وما المفردون يارسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً»(١).

وعن أم أنس رضي الله عنها قالت: يارسول الله أوصني. قال:

«اهجري المعاصي، فإنها أفضل الهجرة، وحافظي على الفرائض، فإنها أفضل الجهاد، وأكثري من ذكر الله، فإنك لا تأتين الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره»(٢).

وفي رواية لها عن أم أنس:

«واذكري الله كثيراً فإنه أحب الأعمال إلى الله أن تلقيه بها»(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا».

قالوا: وما رياض الجنة؟

قال: «حلق الذكر».

وأفضل الذكر إنما هو التعبد بتلاوة القرآن. ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يكثرون من تلاوته تعبداً به، وكانوا يقسمونه أقساماً بحيث كان القرآن لهم حزباً. وأول مايرجع إليه في التقديرات قول رسول الله ﷺ(٤): «من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه».

وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل، وقد قالت عائشة رضي الله عنها لما سمعت

(١) رواه مسلم واللفظ له، والترمذي، ولفظه: يارسول الله، وما المفردون؟

(٢) رواه الطبراني بإسناد جيد.

(٣) قال الطبراني: أم أنس هذه هي الثانية ليست أم أنس بن مالك.

(٤) من إحياء علوم الدين.

رجلاً يهذ القرآن هذراً: إن هذا ما قرأ بحرف ولا سكت؛ وأمر النبي ﷺ عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما أن يختم القرآن في كل سبع. وكذلك كان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يختمون القرآن في كل جمعة: كعثمان وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبي بن كعب رضي الله عنهم. أما من ختم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب. فقد حزب الصحابة رضي الله عنهم القرآن أحزاباً. فروي أن عثمان رضي الله عنه كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، ويختم ليلة الخميس.

فإن أحزاب القرآن سبعة: فالحزب الأول ثلاث سور، والحزب الثاني خمس سور والحزب الثالث سبع سور، والحزب الرابع تسع سور، والخامس إحدى عشرة سورة، والسادس ثلاث عشرة سورة، والسابع المفصل من ق إلى آخره.

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يضعون أمام أعينهم قول رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «الم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[1]

وقول رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله القرآن فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»[2].

ولقد وردت الآثار في الحث على سور وآيات معينة ونورد هنا بعض ذلك ليكون كنموذج فقط وذلك أننا توسعنا في الموضوع في كتابنا (العبادة) ونورده أيضاً ليكون فيه ترغيب في حفظ بعض السور القرآنية لمن لم يحفظ شيئاً من القرآن ومن الذكر الاستغفار.

---

(١) رواه الترمذي بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه وقال: هذا حديث حسن صحيح

(٢) رواه البخاري ومسلم، ومعنى الحسد هنا: الغبطة

ويعود به مرة أخرى إلى التوبة في صورة أخرى من صورها . أو في رواية من أهم رواتها

يروى علقمة ويروى الأسود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : في كتاب الله عز وجل آيتان ما أذنب عبد ذنباً فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون)[1] وقوله عز وجل : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) النساء / ١١٠

ولقد قال ﷺ في شأن الاستغفار الخالص : « من أكثر من الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

وهذا الحديث الشريف يسير في انسجام مع قوله تعالى : (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم أنهاراً) . نوح : ١٠ – ١٢

وقوله تعالى على لسان نبي الله هود : (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين)[2]

والاستغفار مستحب في كل الأوقات . وإن لم يكن ذنب يغفره الله تعالى في إطلاق لا تحديد فيه . (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) النصر : ٣

ومع هذا الإطلاق نعلم فإن الله سبحانه وتعالى ذكر الأسحار باعتبارها من الأوقات التي يستغفر فيها المتقون ، بقوله سبحانه : (وبالأسحار هم يستغفرون) الذاريات : ١٨ ومن أجل ذلك فإن الذين يستيقظون في ثلث الليل الأخير يحرصون على نيل فرصة نزول ربنا إلى سماء الدنيا منادياً : « ألا هل من مستغفر فأغفر له ؟ ألا هل من تائب فأتوب عليه ؟ ألا هل من سائل فأعطيه ؟ » فيأخذون في الاستغفار

(١) سورة آل عمران آية ١٣٥ (٢) سورة هود آية ٥٢

وسيد الاستغفار هو كما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي ؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »

ويروى الإمام الغزالي عن بعض العلماء أنه قال : « العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحها إلا الاستغفار والحمد »

ويروى عن قتادة رحمه الله قوله : « القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم أما دوائكم فالذنوب ، وأما داؤكم فالاستغفار »

ومن الذكر التهليل وهو الذكر بلا إله إلا الله

ومما وصفت به كلمة : لا إله إلا الله أنها : كلمة التوحيد ، وهي كلمة الإخلاص ، وهي كلمة التقوى ، وهي الكلمة الطيبة ، وهي دعوة الحق ، وهي العروة الوثقى ، وهي ثمن الجنة »[1]

وقد روى الترمذي بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ».

وقد أخرج الإمامان البخاري ومسلم رضي الله عنهما من حديث أبي هريرة نضر الله وجهه - أن رسول الله ﷺ قال :

« من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة - كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك »

ومن الذكر التسبيح والتحميد والتكبير والحوقلة يقول الله تعالى : (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود)[2]

---

(١) إحياء علوم الدين (٢) سورة ق من آيتي ٣٩ - ٤٠

ويقول تعالى: (وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) [١].

ويقول جل شأنه: (فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابا) [٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» [٣].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟ قلت: يارسول الله أخبرني بأحب الكلام إلى الله. فقال: «إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده» [٤].

وعن جويرية رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة. فقال: مازلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم. قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته» [٥].

وإن من الصيغ المباركة الجامعة التي توجد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتي جرى بها الكثير من الصالحين. فوجدوا لها نوراً وبركة «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله».

ومن الذكر الصلاة على النبي ﷺ

يقول الله تعالى: (إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) الأحزاب: ٥٦

ولقد روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول

(١) سورة الطور آية ٤٨، ٤٩ — (٢) سورة النصر آية ٣

(٣) رواه البخاري ومسلم

(٤) رواه مسلم، والنسائي، والترمذي

(٥) رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه، والترمذي

«من صلى عليّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً» .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه – فيما رواه الترمذي وحسنه – أن رسول الله ﷺ قال :

أولى الناس بي يوم القيمة أكثرهم علىّ صلاة»

وروى الأئمة أحمد والترمذي والحاكم بسندهم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة فإنه مشهود تشهده الملائكة ، وإن أحداً لن يصلي علي إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها» قال قلت : وبعد الموت ؟ قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

ومن أفضل صيغ الصلاة على النبي ﷺ الصيغة التي يقرؤها الإنسان في التشهد في الصلاة ، وصيغ الصلاة على رسول الله ﷺ كثيرة ، ونستعدي هنا أن نذكر الصيغة التي أصاب حروفها ولألأت ولي ذكرت حروفها في كتاب «المدرسة الشاذلية» وهي لتفريج الكرب

«اللهم صل صلاة جلال ، وسلم سلام جمال على حضرة حبيبك سيدنا محمد ، وعشه اللهم بنورك كما غشيته سحابة التجليات ، فنظر إلى وجهك الكريم . حقيقة الحقائق كلم مولاه العظيم الذي أعاذه من كل سوء . اللهم فرج كربي كما وعدت (أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) النمل ٦٢ وعلى آله وصحبه . آمين.

في الدعاء

إن القرآن الكريم يذكر لنا مجموعة من الأدعية تناسب ظروف حياة مختلفة فهو مثلاً يحدثنا عن صورة المؤمنين في الحروب سواء فيما يتعلق بالنصر أو بالغلب ويبين النتائج التي رتبها سبحانه على موقفهم . فيقول تعالى :

(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله . وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين) آل عمران ١٤٦

(وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين)[1]

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى مايقال من دعاء عند نزغ الشيطان . فيقول سبحانه : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) فصلت ٣٦

ويقول سبحانه في ذلك : (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) المؤمنون ٩٧ ، ٩٨

ولقد أخذ كثير من الناس يتدبرون القرآن في مواطن الدعاء ، فاكتشفوا أسراراً من أسرار الدعاء ، صرحوا ببعضها وتركوا غيرهم أن يتدبر ويكتشف

ومن هؤلاء الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه الذي يقول متدبراً للقرآن ومستنتجاً منه : عجبت لأربع ، كيف يغفلون عن أربع

١ – عجبت لمن ابتلي بالخوف كيف يغفل عن : « حسبنا الله ونعم الوكيل » والله سبحانه وتعالى يقول : (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) آل عمران : ١٧٤ .

وأصل هذه القصة معروف ، يروي ابن هشام خصوص موقف المسلمين في أحد بعد معركة ثاني يوم منها قال : مر بأبي سفيان – وكان حينئذ قائد المشركين – ركب من عبد القيس ، فقال لهم أبو سفيان : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه . وأحمل لكم في هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم ، قال : إذا وافيتم محمداً فأخبروه أنا قد أجمعنا المسير إليه ، وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم

ومر الركب برسول الله ﷺ ، وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان ، فكان رد الفعل عند رسول الله ﷺ وأصحابه ما صوره الله تعالى بقوله

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٧ ، ١٤٨

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو الفضل عظيم) آل عمران ١٧٣ ، ١٧٤

ويقول الإمام جعفر

وعجبت لمن اتقى مكر الناس به كيف يغفل عن (وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد) غافر ٤٤

والله سبحانه وتعالى يقول . (فوقاه الله سيئات مامكروا) غافر ٤٥

وهذه القصة هي قصة مؤمن آل فرعون . (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) . غافر ٢٨ فلما قال فرعون « ذروني أقتل موسى » . غافر : ٢٦ قال المؤمن

(أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله . وقد جاءكم بالبينات من ربكم . وإن يك كاذباً فعليه كذبه . وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب . ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) (١)

وأخذ يدعو قومه إلى الحق . وأخذ يجادله ويناقش محاولاً جرهم إلى سواء السبيل ثم انتهى به الأمر معهم أن قال (فستذكرون ما أقول لكم . وأفوض أمرى إلى الله . إن الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات مامكروا . وحاق بآل فرعون سوء العذاب) (٢)

لقد حفظه الله حين فوض الأمر إليه حالاً ومقالاً ويقول الإمام جعفر

٣ - وعجبت لمن ابتلى بالضر كيف يغفل عن (أنى مسنى الضر ، وأنت أرحم الراحمين) الأنبياء ٨٣ والله سبحانه وتعالى يقول (فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر) . الأنبياء ٨٤ .

والحادثة يرويها القرآن الكريم فى سورة الأنبياء قائلاً « وأيوب إذ نادى ربه أنى

---

(١) سورة غافر آيتا ٢٨ - ٢٩

(٢) سورة غافر آيتا ٤٤ ، ٤٥

مسنى الضر ، وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له ، فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) الأنبياء ٨٣ - ٨٤
ويقول الإمام جعفر :
٤ - وعجبت لمن ابتلى بالغم ، كيف يغفل عن : (لا إله إلا أنت ، سبحانك ، إنى كنت من الظالمين) الأنبياء ٨٧
والله سبحانه وتعالى يقول : (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) الأنبياء ٨٨
والقصة كما يذكرها القرآن : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً ، فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين) [1]
وعلى غرار النسق الذى ذكره الإمام الصادق ، يمكن أن يقال : « عجبت من أذنب كيف يغفل عن : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) الأعراف/٢٣ والقصة كما يرويها القرآن عن آدم وحواء حينما أكلا من الشجرة : « وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) [2]
وعجبت من يخشى العذاب فى الدنيا ، كيف يغفل عن الاستغفار ، والله سبحانه وتعالى يقول : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » [3].
ولقد أمر الله سبحانه وتعالى بأن ندعوه وأن نلجأ إليه ، وأن نتضرع له فى الرخاء وفى الشدة . وإن الإنسان وهو فى حالة النقص الذى تم يحتاج إلى الله سبحانه وتعالى فى كل لحظة ، فهو فى حاجة إذن إلى الدعاء فى كل فترات حياته يقول الله سبحانه وتعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) [4] ويقول سبحانه

---

(١) سورة الأنبياء آيتا ٨٧ ، ٨٨
(٢) سورة الأعراف آيتا ٢٢ ، ٢٣
(٣) سورة الأنفال آية ٣٣
(٤) سورة البقرة آية ١٨٦

(أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ماتذكرون) النمل ٦٢ .

وقد التجأ إلى الله بالدعاء الأنبياء والمرسلون عند دعوة في كل وقت لاجئين إليه ، مستغيثين به في جميع أمورهم ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه :

(وزكريا إذ نادى ربه رب لاتذرني فرداً وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ، ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين)[1]

واستغاث به المسلمون متضرعين خاشعين داعين ، فاستجاب لهم (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين)[2]

وتوجه إليه رسول الله ﷺ حين عودته من الطائف بهذا الدعاء الرائع « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »

والواقع أن في الدعاء تتمثل العبودية لله سبحانه وتعالى واضحة جلية إذ أنه تتمثل فيه عبادة في صورة من أصدق صورها كما المعروف عن الدعاء فإنه عبادة ينشأ عن نوع من عدم المبالاة بالدين ، أنفسه الكبرياء الذي ينشأ عن الكثير من المعاصي والبدع والانحرافات ، والذي كان في جذور المعصية التي تورط فيها إبليس حين أمره الله تعالى أمر السجود لآدم فقد أبى واستكبر وقال « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين »[3] .

ولقد حمله كبرياؤه على الخطأ في أيسر الأمور فقد جعل مناط الخيرية المادة

(١) سورة الأنبياء آية ٨٩ ، ٩٠ (٣) سورة الأعراف آية ١٢
(٢) سورة الأنفال آية ٩

مادة جسم، ولم يمتد عقله في ساعة كبريائه إلى أن المادة مجرد وعاء، وأن الوعاء لايكون مقياس التفضيل، وأن مافي الوعاء هو الذي يكون نفيساً سامياً أو خسيساً لاقيمة له.

ومنعه كبرياؤه أيضاً من أن يرجع إلى الله بتوبة خالصة نصوح، وهي من مظاهر العبودية. وبذلك طرد من رحمة الله. أما آدم فإنه عندما أكل من الشجرة شعر بالحياء من الله، فجثا بين يديه مستغفراً تائباً منيباً. وتمثل فيه مظهر العبودية حين واضحاً في الدعاء:

« ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »[1].

آيات في الدعاء

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين. إهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ سورة الفاتحة.

﴿ وإذ قال موسى لقومه: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، قالوا أتتخذنا هزواً، قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾[2]

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك. وأرنا مناسكنا وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم ﴾[3]

﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار ﴾[4]

﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال: إن الله مبتليكم بنهر، فمن شرب منه، فليس مني. ومن لم يطعمه فإنه مني، إلا من اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلا قليلا منهم، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده.

(١) سورة الأعراف آية ٢٣
(٢) سورة البقرة آية ٦٧
(٣) سورة البقرة آيتا ١٢٧، ١٢٨
(٤) سورة البقرة آية ٢٠١

قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله ، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده ، قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)[1]

(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير

لايكلف الله نفساً إلا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت . ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولاتحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولاتحملنا مالاطاقة لنا به واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا أنت مولانا . فانصرنا على القوم الكافرين)[2] .

(ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب)[3]

(الذين يقولون ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار)[4]

(هنالك دعا زكريا ربه ، قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء)[5]

(ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين)[6] .

(وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)[7]

(ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار)[8]

(ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ، ولاتخزنا يوم

(١) سورة البقرة آيتا ٢٤٩ ، ٢٥٠
(٢) سورة البقرة آيتا ٢٨٥ ، ٢٨٦
(٣) سورة آل عمران آية ٨
(٤) سورة آل عمران آية ١٦
(٥) سورة آل عمران آية ٣٨
(٦) سورة آل عمران آية ٥٣
(٧) سورة آل عمران آية ١٤٧
(٨) سورة آل عمران آية ١٩١

القيامة إنك لاتخلف الميعاد)[1]

(الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا)[2]

(وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين)[3]

(قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين)[4]

(وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ، قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين)[5]

(وماتنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين)[6]

(قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين)[7]

(فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين)[8]

(رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب)[9]

(إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا)[10]

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩٣ ، ١٩٤
(٢) سورة النساء آية ٧٥
(٣) سورة المائدة آية ٨٣
(٤) سورة المائدة آية ١١٤
(٥) سورة الأعراف آية ٤٧
(٦) سورة الأعراف آية ١٢٦
(٧) سورة الأعراف آية ١٥١
(٨) سورة يونس آية ٨٥ ، ٨٦
(٩) سورة إبراهيم آية ٤٠ ، ٤١
(١٠) سورة الكهف آية ١٠

(قال رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي)[١]

(فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدني علما)[٢]

وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين

فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين

(وزكريا إذ نادى ربه ، رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين ، فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين)[٣]

(قل رب إما تريني ما يوعدون ، رب فلا تجعلني في القوم الظالمين)[٤]

(وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون)[٥]

(إنه كان فريق من عبادي يقولون ، ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين)[٦]

(وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين)[٧]

(والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاماً)[٨]

(والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما)[٩]

(رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين
واجعل لي لسان صدق في الآخرين

---

(١) سورة طه الآيات : ٢٥ – ٢٨
(٢) سورة طه آية ١١٤
(٣) سورة الأنبياء الآيات ٨٧ – ٩٠
(٤) سورة المؤمنون آيتا ٩٣ ، ٩٤
(٥) المؤمنون آيتا ٩٧ ، ٩٨
(٦) سورة المؤمنون آية ١٠٩
(٧) سورة المؤمنون آية ١١٨
(٨) سورة الفرقان آيتا ٦٥ ، ٦٦
(٩) سورة الفرقان آية ٧٤

واجعلني من ورثة جنة النعيم

واغفر لأبي إنه كان من الضالين

ولا تخزني يوم يبعثون

يوم لا ينفع مال ولا بنون

إلا من أتى الله بقلب سليم)

(فتبسم ضاحكاً من قولها ، وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) (٢)

(قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم) (٣)

(فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب نجني من القوم الظالمين) (٤)

(ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم

ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم ، وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم) (٥)

(فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد) (٦)

(ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) (٧)

(قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين) (٨)

(ليس لها من دون الله كاشفة) (٩)

(والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) (١٠)

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٨٣ – ٨٩
(٢) سورة النمل آية ١٩
(٣) سورة القصص آية ١٦
(٤) سورة القصص آية ٢١
(٥) سورة غافر آية ٧ ، ٨
(٦) سورة غافر آية ٤٤
(٧) سورة الدخان آية ١٢
(٨) سورة الأحقاف آية ١٥
(٩) سورة النجم آية ٥٨
(١٠) سورة الحشر آية ١٠

(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا ، وإليك المصير
(ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم)[١]

(يوم لايخزى الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم ، وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا ، إنك على كل شيء قدير)[٢]

(قل أعوذ برب الفلق . من شر ماخلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات في العقد . ومن شر حاسد إذا حسد)[٣]

(قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس)[٤] .

(بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) آمين .[٥]

القرآن يرسم طريق النصر

يقول الله سبحانه وتعالى

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم)[٦] .

أخرج أبو حاتم ، وابن مردويه ، عن جابر رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية الكريمة على رسول الله ﷺ ، وهو في المسجد ، فكبر الناس في المسجد ، فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفي ردائه على عاتقه ، فقال يارسول الله أنزلت هذه الآية ؟ قال : نعم فقال الأنصاري : بيع ربيح ، لانقيل ولانستقيل

---

(١) سورة الممتحنة آية ٤ ، ٥
(٢) سورة التحريم آية ٨
(٣) سورة الفلق .
(٤) سورة الناس
(٥) سورة الفاتحة
(٦) سورة التوبة آية ١١١

وقد فرح المسلمون بهذه الآية حينما نزلت فرحاً كثيراً ، وذلك أنها بينت لهم في صورة اليقين أن الجهاد جزاؤه الجنة . سواء أكانت نتيجته النصر أم كانت نتيجته الاستشهاد

إن الجهاد على أى وضع كانت نتيجته ثمنه الجنة ورسول الله ﷺ يقول «الجنة تحت ظلال السيوف»

ولقد صور الله سبحانه وتعالى جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه ، وإثابة الله لهم على ذلك بالجنة ، فقد صور الله ذلك بالبيع والشراء

والمعقود عليه هو الجهاد ، والثمن هو الجنة ، والبائع هو المجاهد ، والمشترى هو الله سبحانه ومكان البيع هو ميدان المعركة وتسجيل العقد في عدة جهات موثوق بها هي الكتب السماوية

والربح مؤكد على أى حال كانت نتيجة الجهاد ، لأنه سبحانه لم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط ، بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلمته ونصر دينه)[1]

أما المؤمنون الذين باعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فقد ذكر الله صفاتهم وعدها واحدة واحدة ، فهم التائبون

وأول ما ذكر الله من الصفات التى لا تتأتى للمؤمن أن يستقيم في صفته بالله إلا بها وهي صفة التوبة فهم التائبون والتوبة صفة يحبها الله سبحانه وتعالى يقول سبحانه (إن الله يحب التوابين) البقرة/٢٢٢

والله يفرح بها ، يقول صلوات الله وسلامه عليه إن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن

وهم العابدون إنهم عابدون بجهادهم ، وهم عابدون بعملهم ، وهم عابدون بأقوالهم ، فقد صيروا حياتهم في كفاحها وفى صمتها وفى قولها وصمتها وفى حركتها وسكونها إلى عبادة ، فتحققوا بقوله تعالى

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الذاريات/ ٥٦

وهم الحامدون لله في السراء والضراء ، في العسر واليسر ، في الرخاء والشدة

---

(١) انظر تفسير الكشاف في ذلك

لأنهم يعلمون أن حكمة الله فوق كل حكمة، وتصريفه أحكم تصريف.

وهم السائحون: أي يطرقون كل الوسائل في سبيل الرقي الدائم بالسياحة في مجال المعرفة، والسياحة في مجال العلم، والسياحة في مجال العبادة، وشعارهم أن من تساوى يوماه فهو مغبون، ومن لم يكن إلى زيادة فهو إلى نقصان. فالسياحة هي الضرب في جميع المجالات تقرباً من الكمال الذي يحبه الله للمؤمن.

وهم الراكعون الساجدون: أي المصلون في خشوع وخضوع.

وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، بعد أن ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر في أنفسهم، وذلك ما عبر الله عنه سبحانه بقوله: (والحافظون لحدود الله)(١)

وبعد فإن الآية الكريمة تنتهي بقوله تعالى: (وبشر المؤمنين)

والتبشير هنا للمؤمنين الصادقين علم مطلق، نبشرهم بالفوز، نبشرهم بالأمن، نبشرهم بالسعادة، ونبشرهم بالنصر.

ونعود إلى الآية الكريمة من جديد:

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)(٢)

إن هذا العهد والتعاقد بين الله والمؤمنين إنما هو عهد الإيمان يبيع فيه المؤمن نفسه وماله يقدمهما إلى الله فلا يبخل بالمال في سبيله سبحانه، ولا يبخل بالنفس حينما تقتضي الظروف البذل والتضحية والفدائية.

والإعداد بذل — ومن شرائطه الجود بالمال والنفس — وهو أول خطوة أساسية جوهرية في طريق النصر بل هو خطوة بدونها لا يكون هناك بناء أساس مستقيم، تعتمد عليه الأمة. ويعتمد عليه بعد ذلك في سبيل إيجاد مكان كريم بين الدول.

على أن القرآن لا يعد المؤمن مؤمناً صادقاً إلا إذا كان مجاهداً بماله ونفسه في سبيل الله.

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم

(١) سورة التوبة آية ١١٢

(٢) سورة التوبة آية ١١١

وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون)[1]

فإذا كان الإيمان ضعيفاً مزعزعاً متأرجحاً فإن نتيجة ذلك تكون تباطؤاً عن الخروج إلى الجهاد ، بل تخلفا عنه

(لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم . والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون)[2]

بل إن وجود العناصر التي لا يملأ الإيمان أفئدتها في صفوف المجاهدين يضر قضيتهم

(لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم)[3]

وضعفاء الإيمان ، ومن لا إيمان عندهم يستخفون حين يبدأ القتال ويتخلفون عن الجهاد فرحين بذلك .

(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر . قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون)[4]

ولذا فرض الرسول ﷺ أن يعزل هذه العناصر عن معسكر المؤمنين وألا يأذن لهم بالمشاركة في الجهاد

(فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل لن تخرجوا معي أبداً ، ولن تقاتلوا معي عدواً ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين) التوبة ٨٣.

هذا الإيمان إذن هو الذي يستعد ويهيئ للأمر عدته ولا يدع صغيرة ولا كبيرة من أمر العدة للجهاد إلا أحكمها ، ومن هنا كانت الخطوة (الثانية) في طريق النصر ممثلة في قوله تعالى :

---

(١) سورة الحجرات آية ١٥

(٢) سورة التوبة آية ٤٤ ، ٤٥

(٣) سورة التوبة آية ٤٧

(٤) سورة التوبة آية ٨١

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) الأنفال/ ٦٠

وهذه القوة لاتقتصر على القوة المادية . ولكن تتضمنها وتتسع دائرتها لتشمل التعبئة الروحية .

ومما لاشك فيه أن التعبئة الروحية قوة دافعة نحو الثبات فى لقاء العدو والإقدام فى شجاعة نحو تحقيق النصر

(يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا . واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)[1]

والتعبئة الروحية إنما تشب دوافعها وتزكى ثمارها حتى يكون الهدف من الجهاد واضحاً سافراً

ومن هنا كانت الخطوة الثالثة التى رسمها القرآن فى طريق النصر ، وهى وضوح الهدف والهدف القرآنى من الجهاد ، ولا بأس من ذكره مرة (ثانية) ليس عرضاً مادياً أو حظاً دنيوياً ومن كانت هجرة المجاهد لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، ... هجرته إلى الله ورسوله ومعنى ذلك أن هدف الجهاد إنما هو إعلاء كلمة الله . وكلمة الله هى الحق وهى العدالة وهى الرحمة وهى الأخوة ، وهى السلام العالمى ، بالنسبة للفرد فى نفسه ، ودمه وماله وعرضه ، و بالنسبة للأمة فى كرامتها وعزتها وكل مقدساتها

(الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله)[2]

والتعبئة الروحية كفيلة بأن تجعل الأمة فى جهدها كالبنيان المرصوص ومن هنا كانت الخطوة الرابعة التى رسمها القرآن فى سبيل النصر

(إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)[3]

(ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين)[4]

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا)[5]

فإذا وسوس الشيطان بنزاع أو خلاف . وإذا ماحدثت النفس نفرقة

---

(١) سورة الأنفال ، ٤٥

(٢) سورة النساء آية ٧٦

(٣) سورة الصف آية ٤

(٤) سورة الأنفال آية ٤٦

(٥) سورة آل عمران آية ١٠٣

وشقاق . فإن طريقة تسوية ذلك مرسومة واضحة

﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ [1]

إن الأمة التي تنصر الله باتباعها دين الله خالصاً قد ضمن الله لها النصر ووعدها به ، ووعد الله لا يتخلف

﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ [2]

﴿ ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز ﴾ [3]

أما الموقف الأخير فهو التفويض لله سبحانه ، والثقة فيه وحده والاعتماد عليه لا على العدد أو القوة المادية ، أو أي شيء آخر . وقد أعطى الله المسلمين درساً قاسياً حينما اعتمدوا على قوتهم وكثرتهم ، وعلى تفوقهم وعددهم وعتادهم وقالوا : لن نغلب اليوم من قلة !

كان ذلك في غزوة حنين . ولقد صور الله الموقف تصويراً قوياً فقال سبحانه

﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين ، إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم ﴾ [4]

---

(١) سورة النساء آية ٤٥ — (٣) سورة الحج آية ٤

(٢) سورة محمد آية ٧ — (٤) سورة التوبة الآيات ٢٥ – ٢٧

الكتابُ الثاني

النبي ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يا أيها النبي ، إنا أرسلناك شاهداً ، ومبشراً ، ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ، ولا تطع الكافرين والمنافقين ، ودع أذاهم وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا﴾ الأحزاب/ ٤٥ – ٤٨

تمهيد

١

يتحدث القرآن الكريم عن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في كثير من سوره ، يقول سبحانه :

(يا أيها النبي ، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) الأحزاب/ ٤٥ ، ٤٦

ويقول سبحانه :

(من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) النساء/ ٨٠

ويقول سبحانه :

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) آل عمران/ ٣١ .

ومن أجل هذه الصلة الإلهية برسول الله ﷺ أرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى اتخاذ الرسول أسوة ، فقال سبحانه

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله ، واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) الأحزاب/ ٢١

بل أمرنا سبحانه ، أن نأخذ ما آتانا ، وأن ننتهي عما نهانا عنه ، وهددنا إذا لم نلتزم ذلك ، فقال سبحانه

(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب) الحشر/ ٧

أما السر في ذلك فهو :

١ – أن الرسول – صلوات الله عليه – لاينطق عن الهوى ، ولاينحرف عن صراط الله المستقيم ولقد أقسم الله تعالى على ذلك ، فقال سبحانه

(والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وماغوى . وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى) النجم/ ١ – ٤

٢ – كان رسول الله – صلوات الله عليه – في جميع أحواله – حركة وسكوناً ، بشارة ونطقاً ، فعلاً وقولاً – يمثل القرآن الكريم . وقد كان صلوات الله عليه تطبيقاً للقرآن ، فقد لبس القرآن ظاهراً وباطناً ، فقد كان قرآناً

ولقد وصفته السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، وصفاً دقيقاً ، حينما سئلت عن خلقه ، فقالت : «كان خلقه القرآن»

ومن كان خلقه القرآن كان أسوة ، وكان قدوة ، وكان على خلق عظيم . ومن هنا وصفه الله سبحانه وتعالى إذ يقول

(وإنك لعلى خلق عظيم) القلم/ ٤

٢

وحق أننا حينما نريد أن نكوّن صورة واضحة تامة عن رسول الله ، صلوات الله عليه فإن الطريق الوحيد لذلك إنما هو الإحاطة بالقرآن إحاطة واضحة تامة .
والإحاطة بالقرآن على هذا النحو ليست من السهولة بمكان ، بل ليست ممكنة فالقرآن في كل يوم يتفتح عن معان جديدة للإنسانية ، ويتفتح عن معان جديدة لشخص المتأمل المتدبر وهذه المعاني الجديدة إنسانية عامة أو فردية شخصية إنما هي إيضاح وتفسير للصورة النبوية الكريمة

والعكس أيضاً صحيح فإن المتدبر المتأمل في الصورة النبوية الكريمة عن طريق السيرة الصحيحة ، والأحاديث المعتمدة يفهم عن الرسول ، صلوات الله عليه كل يوم جديداً ، وهذا الفهم إنما هو تفسير وإيضاح لجوانب من القرآن الكريم

لقد امتزج الرسول ، صلوات الله عليه ، بالقرآن – كما قدمنا – روحاً ، وقلباً .

وجسماً ، وامتزج القرآن به عقيدة وأخلاقاً وتشريعاً . فكان صلوات الله عليه قرآناً يسير في الناس . وكان القرآن روحاً يتنقل ، وكان قلباً ينبض ، وكان لساناً ينطق بالهداية والإرشاد .

ولقد كان صلوات الله عليه حريصاً كل الحرص على أن يكون خلق الأمة الإسلامية - القرآن ، لقد عمل لذلك طيلة بعثته

ويحدثنا القرآن الكريم عن موقف الرسول صلوات الله عليه من الأمة فيقول سبحانه

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) التوبة / ١٢٨ صلوات الله وسلامه عليك ياسيدي يارسول الله

ويتحدث ، صلوات الله عليه ، عن حرصه الشديد على هداية أمته فيقول

« مثلي ومثلكم كمثل رجلٍ أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يذبهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تفلتون من يدي » .

هذه هي صلة الرسول ﷺ بربه وهذه هي صلته بأمته

ولقد ارتفع صلوات الله عليه إلى السماء ، بل تجاوزها إلى سدرة المنتهى ورأى من آيات ربه الكبرى لقد ارتفع إلى الأفق الأعلى ، وتجاوز بذلك النهايات الكونية ، لقد كان فعلاً أدنى من قاب قوسين ، فانغمس في الأفق الأعلى ، وتلقى عن الله مباشرة كيفية الصلة به ، وهي الصلاة . ثم ... ثم انبسط إلى الأرض سراجاً منيراً ، رءوفاً رحيماً هادياً يدعو إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه

يقول أحد الصالحين « صعد رسول الله صلوات الله عليه إلى السماء ، ثم عاد إلى الأرض ، أقسم بالله لو صعدت إلى السماء لما حاولت العودة إلى الأرض مرة أخرى » .

بيد أن الرسول صلوات الله عليه نبي ورسول ، فهو متصل بالله دائماً إنه في السماء على الدوام ، وهو متصل بالبشر ، ويؤدي رسالة السماء كاملة غير منقوصة إنه كان على حد تعبير القرآن (بشراً رسولاً) الإسراء ٩٣ فهو ببشريته مع الناس ، وهو بسره مع الله إنه مع الناس بإرادة الله وبتوجيهه وأمره ، إنه مع الناس

بكلمة الله ورسالته ، إنه مع الناس رسول من قبل الله .

وبهذه المعاني كلها يمكن أن نقول إنه دائماً مع الله ، أو يمكن أن نقول إنه منذ اللحظة الأولى للبعثة لم ينزل إلى الأرض قط ، وإنما كان دائماً مع الله سبحانه وتعالى ، فهو صلوات الله عليه بيت عند ربه ، يقول ﷺ «لست كهيئتكم : أبيت عند ربي .»

٣

(قل : إنما أنا بشرٌ مثلكم ، يوحى إليّ) الكهف ، ١١٠

إنه ، صلوات الله عليه «بشر» . ولا يحول في خلد مسلم أبداً أن يخرجه عن البشرية ، ولكنه صلوات الله عليه «بشر يوحى إليه»

وما تأتّى أبداً أن يوحي الله إلى بشر إلا إذا أصبح وكأنه قطعة من النور صفاء نفس ، وطهارة قلب ، وتزكية روح

ومنتهى القول فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلِّهم

٤

وبعض الناس حينما يقرأ القرآن الكريم فتمر عليه الآية الكريمة (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) يقف عند كلمة «بشر» فيحاول التركيز عليها ، وتوجيه الانتباه كله إليها ، وتحويل الأنظار كلها نحوها . فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ، ويبرزها ، ويندفع في هذا الاتجاه المنحرف اندفاعاً ، لا يتناسى أبداً قوله تعالى (يوحى إليّ) ، بل إنه في اندفاعه المنحرف ينسى (يوحى إلي) ويهملها إهمالاً

إنه ليس بنادر في العصر الحاضر أن نجد بعض الناس ، يتحدث عن الرسول صلوات الله عليه وعن خطئه في الرأي ، وعن إصابته فيه ، ويسير هذا البعض في حديثه أو في كتابته مستنتجاً ومستنبطاً وحاكماً ، ويتسلى في كل ذلك .

(وما ينطق عن الهوى) النجم ٣ ويعني في كل ذلك (يوحى إلي).
ويعني «لست كهيئتكم» ويعني (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) النور/ ٦٣

ويعني أن بعض المسائل يمكن أن يكون لها حلول مختلفة كلها صحيحة بعضها رفيق رحيم، وبعضها عادل حاسم. وأن الله سبحانه وتعالى قد بين للأمة الإسلامية أن رسوله صلوات الله عليه وهو على صواب دائماً إنما يتخذ الحل الذي يتناسب مع ما حلاه الله به من الرأفة، وما فطره عليه – سبحانه – من الرحمة، وهو الحل الذي يناسب طابع الرسالة الإسلامية العام

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء/ ١٠٧

والله – سبحانه بيانه ذلك في هذه المواضع التي كان من الممكن أن يقف فيها الرسول صلوات الله عليه موقف العدالة الحاسمة، فعدل عن ذلك إلى رأفته ورحيمه إلى الله – سبحانه وتعالى بيانه ذلك إنما يمدح الرسول – صلوات الله عليه – ويبين أن منزع الرحمة إنما هو الغالب عليه – صلوات الله عليه

ولم يدع الله – سبحانه – حاكماً عاماً سار فيه رسوله ولم ينقض قضية كان قررها صلوات الله عليه ولم ينف مبدأ أثبته رسوله فما كان صلوات الله عليه يسير إلا على هدى من ربه وعلى بصيرة من أمره وقد شهد الله له بذلك حيث قال

(وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله ...) الشورى/ ٥٢، ٥٣

ولم يجعل الله في كل ما تمسك به المحرفون، ويتحدث فيه المتشككون إلا بيان رحمة الرسول – صلوات الله عليه ورأفته أي أنه – سبحانه – كان يبين في هذه المواطن فضله – صلوات الله عليه – وأنه كما وصفه – سبحانه – على خلق عظيم. وأين شاسع بين هذه الوجهة الربانية وبين التحدث عن خطأ وصواب. وأوضاع بشرية يركز عليها ولا يلتفت لسواها

ونضرب لذلك مثلاً: إن الذين دأبهم الجدل يتحدثون كثيراً عن قوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم؟) التوبة ٤٣ ويقفون مباشرة موقفهم إن العفو لا يكون إلا عن خطأ

وهؤلاء يقول ... ب الأساليب العربية فيها من أمثال هذا الكثير . ومنه قولهم مثلاً : عفر الله لك ، لم تشق على نفسك كل هذه المشقة ؟

عفا الله عنك ، لم تعني نفسك في سبيل هؤلاء ؟ وكأن القائل يقول

رضي الله عنك ، لم ترهق نفسك كل هذا الإرهاق

إن الآية القرآنية من هذا الوادي

ونضيف هذه الآية الكريمة إلى أختها التي في سورة النور (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) آية ٦٢ تجد المعنى واضحاً جلياً ، وهو أن الله سبحانه ... فوض الأمر لنبيه ، صلوات الله عليه ، في أن يأذن لهم أو لا يأذن

ليس الذي يأذن معاتبا بهذه الآية ... وحاشاه ... من كان ﷺ مخيراً . فلما أذن لهم ، أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا ، ولتحملوا بسبب نفاقهم ، وأنه مع ذلك لاحرج عليه في الإذن لهم إنها آية مدح للرسول غاية في الرقة ... ومن غير شك قد صدر الإذن لهم عن قلب رحيم ، وعن هذا القلب الرحيم ، وعن هذه الرحمة الفاضلة ... كان الرسول صلوات الله عليه يصدر في أحكامه ، وما كان في ذلك إلا مسعفاً لقوله تعالى ... (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء ١٠٧

وهكذا الأمر في كل مايمري فيه المارون

٥

ومع ذلك فإنا نريد الأمر وضوحاً في الفرق بين من يركز على «بشر» ومن يركز على «يوحى إلي» لأهميته الكبرى . فنقص القصة التالية ذات المغزى العميق والقصة يرويها ابن عطاء الله السكندري ... رضي الله عنه ... في شرحه لقصيدة ولي الله : «أبو مدين» رضي الله عنه ، يقول :

زار بعض السلاطين ضريح أبي يزيد — رضي الله عنه — وقال

هل هنا أحد ممن اجتمع بأبي يزيد ؟

فأشير إلى شيخ كبير في السن كان حاضرا هنالك .

فقال له : هل سمعت شيئاً من كلام أبي يزيد ؟

فقال: نعم سمعته قال: «من رآني لا تحرقه النار»

فتعجب السلطان ذلك الكلام، فقال: كيف يقول أبو يزيد ذلك، وأبو جهل رأى النبي – ﷺ – وتحرقه النار؟

فقال ذلك الشيخ للسلطان: أبو جهل لم ير النبي ﷺ، بل رأى «يتيم أبي طالب» ولو رآه ﷺ لم تحرقه النار.

ففهم السلطان كلامه، وأعجبه هذا الجواب منه. أي أنه لم يره بالتعظيم والإكرام والأسوة، واعتقاد أنه رسول الله، ولو رآه بهذا المعنى لم تحرقه النار لكنه رآه باحتقار، واعتقاد أنه «يتيم أبي طالب»: فلم تنفعه تلك الرؤية.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن أبي يزيد – رضي الله عنه – وإنما نريد أن نتحدث عن كلمة الشيخ للسلطان من أن أبا جهل لم ير النبي ﷺ وإنما رأى «يتيم أبي طالب».

هذه النظرة لأبي جهل هي التي نريد أن يتنزه المؤمنون عنها.

والمؤمنون بحمد الله لا يقعون في هذا الإثم متعمدين، وإنما يتسلل هذا الإثم إلى بعض النفوس في صورة لاشعورية عندما يركز بعضهم على بشرية الرسول صلوات الله عليه – وكأنه لاشيء فيه غير البشرية.

ومن الغريب أنهم حينما يتحدثون عن البشرية، ويركزون عليها، يعتبرون أنفسهم تقدميين متطورين وفاتهم أن هذه النظرة لأبي جهل إنما هي النظرة التي يشيعها المستشرقون والمبشرون في العصر الحاضر، ليقللوا من شأن الرسول في نظر مواطنيهم.

وما كان المستشرقون في تركيزهم على بشرية الرسول إلا متبعين في ذلك زعيمهم الأكبر – في هذه النزعة – وهو أبو جهل، وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين إنما هو بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين في هذه النزعة أو تابع أبي جهل، وهم في ذلك ليسوا تقدميين ولامتطورين، وإنما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرتهم إلى ما قبل ثلاثة عشر قرناً مضت يتزعمهم فيها أبو جهل لجله، وأبو الطغمة القبلية كلها!

ليس هناك إذن اجتهاد وخطأ وصواب ، وإنما هناك تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة ، فتتحدث الآية مبيناً طبيعة رسوله الكريمة وفطرته الرحيمة ورأفته الواضحة ، ويبين في الوقت نفسه أن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بها ، وليسوا أهلاً لها لفساد فطرهم وسوء نواياهم

ومن الحقائق المعروفة أن الإنسان يميل إلى التركيز على « بشر » أو على « يوحى إلى » على حسب قوة شعوره الديني وضعفه ، فمن لا إيمان له لايرى إلا البشرية ، ومن ضعف إيمانه يركز على البشرية ، ويخف التركيز على البشرية كلما قوى الإيمان ، ويزداد التركيز على « يوحى إلى » كلما ازداد الإيمان ، حتى يصل الإنسان إلى ألا يرى أو لايكاد يرى إلا « يوحى إلى » صلوات الله وسلامه عليك ، ياسيدى يارسول الله .

وهناك إذن طرفان يمثلان فريقين من الناس طرف « بشراً » أو « قل إنما أنا بشر مثلكم »

وطرف « يوحى إلى » أو « رسولاً » وبين الطرفين يتأرجح عدد لايحصى من المسلمين نزولاً وارتفاعاً ، انخفاضاً وسمواً .

وإن مقياس الإيمان قوة وضعفاً مقياس درجة الإيمان الذي لايخطئ ، إنما هو ماوقر في القلب أو علت عليه ، من « البشرية » ومن « يوحى إلى » إنهما يمثلان ما يوضع في كفتي ميزان

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

٦

ولعلك تتساءل الآن عن هذا الذي لايرى ، أو لايكاد يرى إلا « يوحى إلى » ماذا يرى ؟ وكيف يرى ؟

ماهي النظرة التي تنأى بنا عن « يتيم أبي طالب » لتقربنا من « الأسوة » ؟ كيف ينبغي أن تكون نظرة المؤمن لرسول الله صلوات الله عليه ؟

والواقع أن الصورة الكاملة عن رسول الله صلوات الله عليه ، يلزمها أن

يصل الإنسان إلى مستواه صلوات الله عليه أو حتى يقترب من مستواه وذلك لا يتأتى

بيد أنه إذا استحال ذلك فإنه من الميسور أن نورد صورتين إحداهما شخصية والأخرى إسلامية . والصورتان لسيدنا عمر رضي الله عنه

أما الصورة الأولى فإنها «يتيم أبي طالب» كان سيدنا عمر يراه قبل أن يهديه الله للإسلام . وأراد سيدنا عمر أن يقتل «يتيم أبي طالب» حتى لا تتفرق كلمة القرشيين بسببه . ولكن دعاء رسول الله صلوات الله عليه «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بعمرو بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب» كانت قد استجيبت لخير سيدنا عمر . فهداه الله للإسلام . ولازم الرسول صلوات الله عليه فناله من بركاته ، ومن خيره ما هيأه لأن يكون الخليفة الثاني للأمة الإسلامية أجمع ، وأن يعز الله الإسلام به في حياة الرسول صلوات الله عليه ، وبعد وفاته

إن سيدنا عمر ، هذا الذي لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، والذي كان إذا سلك طريقاً سلك الشيطان طريقاً آخر خشية منه ورهبة والذي نزل القرآن أحياناً مصدقاً لما رآه سيدنا عمر . صاحب «يا سارية الجبل» يرسم لنا صورة إسلامية لسيده ، وحبيبه ، وصديقه ، ونبيه ، صلوات الله عليه

ولكن هذه الصورة هي صورة سيدنا عمر إنها تناسب مستوى سيدنا عمر ، وهو من غير شك عظيم .

فماذا كان يمكن أن يقول سيدنا أبو بكر رضوان الله عليه ؟ وماذا كان يمكن أن يقول سيدنا علي ، رضي الله عنه ؟ وماذا عسى يمكن أن يكون وصف سيدنا جبريل له ووصفه ؟

إن الله سبحانه وتعالى يقول عنه صلوات الله عليه

(وإنك لعلى خلق عظيم) القلم/٤

وما كانت كلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها «كان خلقه القرآن» إلا تفسيراً لما أشارت إليه الآية الكريمة . أيمكنك أن تتصور المدى الذي تسعه الآية الكريمة ، وتفسير السيدة عائشة لها ؟ أنى لك أن تحيط بالقرآن ؟ أستغفر الله وأتوب إليه

وبعد إن الصورة التي حاول رسمها صاحب : «ياسارية الجبل» نعود إليها لنثبتها شارحين بعض جوانبها، موضحين لبعض سماتها. وسنحاول الإيضاح من فواس

بعد موت رسول الله ﷺ سمع سيدنا عمر يبكي ويقول «بأبي أنت وأمي يارسول الله. لقد كان جذع تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبراً لتسمعهم فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن. فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتها» يروى البخاري ومسلم وكتب السنة كلها تقريباً وكتب السيرة «حادث حنين الجذع» بعدة روايات ونقل هنا إحدى روايات البخاري

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه. فحن الجذع. فأتاه، فمسح يده عليه»

بأبي أنت وأمي يارسول الله. لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعل طاعتك طاعته، فقال عز وجل:

(من يطع الرسول فقد أطاع الله) النساء/٨٠

بأبي أنت وأمي يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء، وذكرك في أولهم، فقال عز وجل

(وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم» الأحزاب ٧

بأبي أنت يارسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون

(يقولون ياليتنا أطعنا الله، وأطعنا الرسولا) الأحزاب/٦٦.

بأبي أنت وأمي يارسول الله، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله، حجراً تتفجر منه الأنهار فليس ذلك بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء، صلى الله عليك

إن نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلوات الله عليه، لم يحدث مرة واحدة، وإنما حدث عدة مرات. رواه البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة. وروته كتب السيرة بروايات عدة في ظروف مختلفة، مما يدل على كثرة حدوثه.

وينقل هنا إحدى روايات الإمام البخارى

عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما – قال: «عطش الناس يوم الحديبية ، والنبى ﷺ بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس (فأسرعوا وتكاثروا) نحوه فقال: مالكم ؟

قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولانشرب إلا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه ، كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا

قلت: كم كنتم ؟

قال: لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة »

بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر فما بأعجب من البراق حين سريت عليه ثم وصلت إلى السماء السابعة ، ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح ، صلى الله عليك (سنتحدث ، فى فصل خاص عن الإسراء والمعراج).

بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان عيسى ابن مريم ، أعطاه الله إحياء الموتى – فما بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك ، وهى مشوية فقالت لك بذراع . (لا تأكلنى فإنى مسمومة).

يروى ابن سعد فى طبقاته :

أخبرنا سعيد بن محمد الثقفى عن محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة قال: «كان رسول الله ﷺ لايأكل الصدقة ، ويأكل الهدية ، فأهدت إليه يهودية شاة مصلية ، فأكل رسول الله ﷺ منها هو وأصحابه ، فقالت: إنى مسمومة فقال ، لأصحابه : ارفعوا أيديكم ، فإنها قد أخبرت أنها مسمومة » قال: فرفعوا أيديهم ، قال ، فمات بشر بن البراء ، فأرسل إليها الرسول – ﷺ – فقال : «ماحملك على ماصنعت ؟» فقالت: أردت أن أعلم ، إن كنت نبياً لم يضرك ، وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك ! قال : فأمر بها فقتلت » اهـ

بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد دعا نوح ، على قومه فقال :

(رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً) نوح/ ٢٦

ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا كلنا ، فلقد وطئ ظهرك . تروى كتب السيرة أن عقبة بن أبي معيط وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان – وأدمى وجهك ، وكسرت رباعيتك ، فأبيت أن تقول إلا خيراً ، فقلت : « اللهم اغفر لقومي ، فإنهم لايعلمون »

(لقد دمي وجهه ، صلوات الله عليه ، وكسرت رباعيته في (غزوة أحد) . روى ذلك البخاري ومسلم ، أما حديث

(اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون) فقد رواه البيهقي في دلائل النبوة ، بأبي أنت وأمي يارسول الله ، لقد اتبعك في قلة سنك ، وقصر عمرك مالم يتبع نوحاً ، في كثرة سنه ، وطول عمره ، ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل

بأبي أنت وأمي يارسول الله ، لو لم تجالس إلا كفئاً لك ماجالستنا ، ولو لم تنكح إلا كفئاً لك مانكحت إلينا ،

ولو لم تواكل إلا كفئاً لك ما واكلتنا . فقد والله جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا ، ولبست الصوف ، وركبت الحمار ، وأردفت خلفك ، ووضعت طعامك على الأرض تواضعاً منك – ﷺ !

ومن الطريف أن نذكر صورة أخرى استنتاجية ، استنتجها رجل لم يكن يعرف الرسول صلوات الله عليه ، ولكنه رجل واسع الأفق رحب الخيال ، دقيق التفكير

وقد اتخذ الاحتياط اللازم حتى لايشوب الصورة أي مطعن .

هذا الرجل هو : « هرقل »

أتاه كتاب رسول الله صلوات الله عليه – يدعوه إلى الإسلام ، فلم يهمل الكتاب ، ولم يمزقه ، وإنما قرأه في عناية وانتباه ، ثم أراد أن يكون صورة صحيحة عن صاحب الخطاب ، فسأل هل كان بالمدينة بعض العرب الذين يعرفون الرسول ؟

فقيل له : إن في المدينة تجاراً من مكة ، يعرفون محمداً باعتباره من مواطنيهم ، فأمر بإحضارهم ، وكان منهم أبو سفيان :

وسأل هرقل عن أقربهم نسباً إلى الرسول ، فكان أبا سفيان ، فقربه منه ، وأدناه ، وقال لهم إني سائله عن أمر فإن كذبني فكذبوه

يقول أبو سفيان ، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذباً لكذبت عنه

وسنترك المقدمات والأسئلة الأولى لأنها واضحة من النتائج التي انتهى إليها هرقل

إن هرقل بعد أن انتهى من الأسئلة بدأ – عن طريق الترجمان – يقول لأبي سفيان على مشهد من الملأ الحاضر من أصحاب هرقل ، ومن أصحاب أبي سفيان : سألتك عن نسبه

فذكرت أنه فيكم ذو نسب

فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟

فذكرت : أن لا

فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتسي بقول قيل قبله

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟

فذكرت : أن لا

قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

فذكرت : أن لا

فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

فذكرت : أن ضعفاءهم اتبعوه

وهم : أتباع الرسل

وسألتك : أيرتدون أم ينقصون ؟

فذكرت : أنهم يزيدون

وكذلك أمر الإيمان حتى يتم

وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

فذكرت أن لا

وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب

وسألتك هل يغدر ؟

فذكرت أن لا

وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك بم يأمركم ؟

فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق والعفاف

فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين !

وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه

هذه الصورة التي كوّنها هرقل بمنطقه ، ويمكن أن يكوّنها أو يكون مثيلات لها كل إنسان اتسع أفقه ، ورحب تفكيره ، وكل إنسان يصدق الله والحق لا بد أن ينتهي إلى ما انتهى إليه هرقل ، من قوله «لو كنت عنده لغسلت عن قدمه» . وإنما يغسل عن قدمه من أحس أنه يوحى إليه ، إذ أن من اصطفاه الله لرسالته جدير بأن يكون أهلاً لذلك

بيد أن هذه النهاية التي انتهى إليها هرقل إنما هي الشعور الدائم لدى الأتقى بانتقال الرسول إلى الملأ الأعلى فالرسول حي بيننا الآن برسالته وهديه وسنته . والغسل عن قدمه الآن . أو بتعبير آخر احترامه إنما هو باتباع هديه ، والتزام رسالته . وتقديره تقديراً يناسب اصطفاء الله له ، ﷺ

ولقد ركز هرقل نوعاً ما على الصدق والإخلاص ، وتوقع أن صورة الصدق والإخلاص كان يراهما كل من عرف الرسول ﷺ ولم تُعْمه عصبية . أو حسد أو هوى .

على أن صورة الصدق والإخلاص كانت سمة من السمات التي تصف ــ

الرسول قبل بعثته ، وبعد بعثته ، صلوات الله عليه . لقد لازمته صفة صدقه . لقد كان مجرد الخبر يلقيه صلوات الله عليه ، يأخذه أعدى عداته على أنه واقع لا محالة فهذا أمية بن خلف عدو لدود يتلاحى هو وسعد بن معاذ رضي الله عنه ، يريد أن يمنعه من الطواف بالكعبة . فيقول له سعد بن معاذ في حدة ومناقشة : لقد سمعت رسول الله ، ﷺ يقول : إنه قاتلك ويضطرب قلب أمية بن خلف ، ويسأل في همة وضعف وتخاذل : أهو قال ذلك حقاً ؟ فلما أكد له سعد بن معاذ الخبر أسقط في يده ، وقال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . وقتل أمية بن خلف يوم بدر .

على أن هذه الصورة تتمثل في وضوح بين حينما أعلن رسول الله ، صلوات الله عليه إلى قريش نبوته ، فقال لهم :

« أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقوني ؟ »

لقد كانت إجابتهم عن هذا السؤال تعبر عن الحقيقة التي لمسوها منه ، لقد قالوا : « نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط »

وصورة أخرى ، صورة لم يرتب لها ترتيب مروى ، ولم يؤد إليها منطق محكم ، صورة لم تكن نتيجة عشرة طويلة ، ولا رفقة قريبة ، وإنما جاءت على البديهة ، وأوحت بها الملاحظة السليمة

إنها الصورة التي كونتها عنه ، صلوات الله عليه أم معبد الخزاعية وهي صورة لا تخص الجانب المعنوي منه ، وإنما تنصب على الأخص بالحس الظاهر . ونريد أن نثبتها هنا ، نثبت ما « هيئة » وصفها بعد أن أثبت روايا من المصورات ، وجوانب من التقدير والإجلال ، إن الصورة التي نثبتها الآن مجرد وصف إنها تعبير عن ملاحظة

هاجر رسول الله صلوات الله عليه من مكة إلى المدينة يرافقه أبو بكر رضي الله عنه ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ودليلهم عبد الله بن أريقط

مروا بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة ، قوية الأخلاق عفيفة ، تقابل الرجال ، فتتحدث إليهم وتستضيفهم ، وسألها الركب عن تمر أو لحم يشترونه ، فلم

يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، فقد كانت سنة من السنين العجاف .

فقالت لهم :

والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى . فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في ركن الخيمة فقال :

« ما هذه الشاة ، يا أم معبد ؟ » قالت :

هذه شاة خلفها التعب عن الغنم

فقال صلوات الله عليه : « هل بها من لبن ؟ » فقالت :

هي أجهد من ذلك

قال : « أتأذنين أن أحلبها ؟ »

قالت : نعم ، بأبي أنت وأمي إن رأيت حلباً

فدعا رسول الله ﷺ ، بالشاة ، فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله وقال :

« اللهم بارك لها في شاتها »

فامتلأ ضرع الشاة ، ودر لبنها ، فدعا بإناء لها كبير ، فحلب فيه حتى ملأه فسقى أم معبد ، فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب ﷺ آخرهم ، وقال :

« ساقي القوم آخرهم »

فشربوا جميعاً مرة بعد مرة

ثم حلب فيه مرة أخرى عوداً على بدء ، فغادروه عندها ، ثم ارتحلوا عنها ، فما لبثت أن جاء زوجها يسوق أعنزاً عجافاً هزلى . فلما رأى اللبن عجب واستغرب وقال :

« من أين لكم هذا ولا حلوبة في البيت » ؟

قالت : لا ، والله ، إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه ، كيت وكيت

قال : والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلب ، صفيه لي يا أم معبد ؟

قالت : رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة ، متبلج (مشرق) الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة (ضخامة البطن) ولم تزر به صعلة (لم يشنه صغر الرأس) وسيم قسيم ،

في عينيه دَعَج ، وفي أشفاره وطف (طويل شعر الأجفان) وفي صوته صحل (رخيم الصوت) أحور، أكحل أزج أقرن ، شديد سواد الشعر ، في عنقه سَطَع (ارتفاع وطول) ، وفي لحيته كثافة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، حلو المنطق فصل ، لا نزر ولا هذر (لا عيّ فيه ولا ثرثرة في كلامه) أجهر الناس ، وأجملهم من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، ربعة (وسط ما بين الطول والقصر) لا تشنؤه (تبغضه) من طول ، ولا تقتحمه عين (تحتقره) من قصر ، غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود (يسرع أصحابه في طاعته) ، محشود (يحتشد الناس حوله) لا عابث ولا مفند (غير مخرف في الكلام)

قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر ، ولو كنت وافقته يا أم معبد لتلمست أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت لذلك سبيلاً .

هذه هي الصورة التي حاولت أم معبد رسمها .

أما سيدنا عمرو بن العاص ، فإنه يقول ، في صراحة وصدق ، عندما حضرته الوفاة وعندما تذكر الماضي فخنقته العبرات وتحدث مع ابنه عن أشياء عدة في صورة مؤثرة : «ما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ، ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت ، لأني لم أكن أملأ عيني منه !» .

٧

والآن نريد أن نتساءل : ماهي الصورة التي نريد أن نرسمها في هذا الكتاب ؟

ونريد أن نقول : إن هذه الصورة التي نحاول رسمها ليست صورة مبتدعة ولا مخترعة ؛ إنها صورة نحاول جاهدين ، أن تكون مستمدة من التاريخ الصحيح

بيد أننا نعود فنقول : إننا لا نرسم صورة كاملة ، فالصورة الكاملة لا تتأتى لنا أن نرسمها ، ونحن هنا إنما نحاول رسم لمحة من زوايا شاعرين بتقصيرنا معترفين

بحريا . ولكن أملنا كبير فى أن تكون هذه الصورة باعثة لتصحيح بعض الأوضاع ، وأن تكون على مافيها من عجز وقصور ممثلة بعض مايكنه لسيد ولد آدم من حب وإيمان ، وأن تكون بذلك شفيعة لنا عند الله ، يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم

ومع هذه الروايات التى نحاول رسمها ، فإنه لا يعزب أبدا عن بالنا قول إمامنا البوصيرى رضى الله عنه ، عن الرسول ، صلوات الله عليه هذه الأبيات التى تعبر عن الحقيقة تعبيراً صادقاً .

أعيا الورى فهم معناه فليس يرى للقرب والبعد فيه غير مُنْفَحِم

كالشمس تظهر للعينين من بعد صغيرة وتُكِل الطرف من أَمَمِ

وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته قوم نيام تسلوا عنه بالحُلُم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

الفصل الأول

النسب الشريف

أبان مولده عن طيب عنصره يا طيب مبتدأ منه ومختتم

يقول صلوات الله عليه فيما رواه الإمام مسلم

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم »

وهو صلوات الله عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، بن قصي

ويصل نسبه إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام

ولا نريد هنا أن نتحدث عن النسب الشريف من إبراهيم ، عليه السلام إلى محمد صلوات الله عليه ، وإنما نريد أن نتحدث عن نسبه القريب بادئين من قصي

قصي :

كان قصي عظيم الشرف كثير المال ، وكانت خزاعة في عهده وبنو بكر يتولون البيت الحرام وأمر مكة ورأى قصي أن قريشاً إنما هي الوارث الشرعي لإسماعيل فهي فرعته[1] وصريح ولده ، فكلم رجالا من قريش وبني كنانة ، ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة ، وقال : نحن أولى بهذا منهم

وأخذ قصي في تدبير الأمر وإحكامه ، ولم تكن مسألة سهلة ميسرة ، وكان لا مفر من الحرب فيها ، واقتتل الفريقان قتالا شديداً ، وكانت الغلبة في النهاية لقصي .

ولما فرغ من بني خزاعة وبني بكر عن مكة تجمعت إليه قريش على حسب

(١) سلالته

ما يروى ابن سعد في «طبقاته الكبرى» فسميت يومئذ قريشاً[1] لحال تجمعها

ومما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

«كان قصي بن كلاب أول ولد كعب بن لؤي، أصاب ملكاً، أطاع به قومه، فكان شريف أهل مكة لا ينازع فيه، فبنى دار الندوة، وجعل بابها إلى البيت، ففيها يكون أمر قريش كله، وما أرادوا من نكاح أو حرب، أو مشورة فيما ينوبهم، حتى إن كانت الجارية تبلغ أن تدرع، فما تشق درعها إلا فيها، ثم تنطلق بها إلى أهلها، ولا يعقدون لواء حرب لهم ولا لقوم غيرهم إلا في دار الندوة يعقده لهم قصي، ولا يعذر[2] لهم غلام إلا في دار الندوة، ولا تخرج عير[3] من قريش فيرحلون إلا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفاً له، وتيمناً برأيه، ومعرفة بفضله، ويتبعون أمره كالدين المتبع لا يعمل بغيره في حياته، وبعد موته، وكانت إليه الحجابة[4]، والسقاية[5]، والرفادة[6]، واللواء[7]، والندوة[8]، وحكم مكة كله، وكان يعشر[9] من دخل مكة سوى أهلها.

قال: وإنما سميت دار الندوة، لأن قريشاً كانت فيها أي تجتمع للخير وللشر، والندى مجمع القوم، إذا اجتمعوا»[10]

وقسم قصي مكة أرباعاً، وخصص كل قوم من قريش بحي، وصدقت مكة بأهلها، وكانت كثيرة الشجر في الحرم، وكانت قريش تهاب قطع الشجر في الحرم، فأمرهم قصي بقطعه، وقال إنما تقطعونه لمنازلكم وخططكم، فبهلة[11] الله على من أراد فساداً، وقطع هو بيده، وأعوانه، فسميت حينئذ قريش، وسمي «مجمعاً» لما جمع من أمرها، وتيمنت به وبأمره.

وقبل موته أعطى مناصب الشرف كلها: دار الندوة، والحجابة، والسقاية

---

(١) قيل في سبب التسمية آراء غير ذلك

(٢) لا يختن

(٣) قافلة

(٤) سدانة البيت

(٥) سقيا الحجيج

(٦) إطعام الحجيج

(٧) للحرب

(٨) المشورة

(٩) يأخذ سهم العشر

(١٠) انظر طبقات ابن سعد ص ٥٠

(١١) أي لعنته

ونسوته ، والرفادة . أكبر أبنائه سناً ، وهو : عبد الدار .

وكان من أبنائه : عبد مناف .

عبد مناف

ومما يذكر بالنسبة لعبد مناف - أن رسول الله ﷺ اقتصر عليه حين أنزل الله تعالى ، عليه

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) الشعراء ٢١٤.

فإنه حينما نزلت هذه الآية الكريمة ، واجتمع إليه بنو عبد مناف تلبية لندائه ، قال لهم

« إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وأنتم الأقربون من قريش ، وإني لا أملك لكم من الله حظًّا ولا من الآخرة نصيباً ، إلا أن تقولوا :

لا إله إلا الله ، فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم بها العرب ، وتذل لكم بها العجم » .

هاشم :

وولد عبد مناف بن قصي ستة نفر ، وست نسوة ، وكان من بنيهم ، هاشم بن عبد مناف ، واسمه : عمرو وهو الذى عقد الحلف لقريش من هرقل ، من أجل أن تختلف إلى الشام آمنة مطمئنة

وهاشم هو صاحب إيلاف قريش ، وإيلاف قريش هو دأبها وعادتها : فقد كان هو أول من سن الرحلتين ، لقريش ، ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن ، وإلى الحبشة . إلى النجاشي فيكرمه ويهدى إليه الهدايا ، ورحلة الصيف إلى الشام وإلى غزة وربما بلغ أنقرة ، فيدخل على قيصر ، فيكرمه ويهدى إليه الهدايا [1]

ثم أصاب قريشاً سنوات جدب عجاف ذهبت بالأموال ، فخرج هاشم إلى الشام ، فأمر بخبز كثير ، فخبز له ، فحمله في الغرائر على الإبل ، حتى وافى مكة ،

(١) انظر طبقات ابن سعد

فهشم ذلك الخبز - يعنى كسره ، وثرده ، ونحر تلك الإبل ، ثم أمر الطهاة ، فطبخوا ، وقدم الطعام لأهل مكة ، فأشبعهم وكان دبت فى الحياة بعد السنة التى أصابتهم ، فسمى بذلك . هاشماً

وكان هاشم رجلا شريفاً طموحاً ذكياً ، ولم يكن يرضيه قط أن يستأثر بنو عبد الدار بمناصب الشرف فى مكة من الحجابة ، واللواء ، والرفادة ، والسقاية ، والندوة ، فحمل بنو عبد مناف على بنى عبد الدار ، وتهيأ الفريقان وأحلافهم للقتال ، وعبئت كل قبيلة قبيلة ، ثم سعى الناس بينهم بالصلح ، واصطلحوا يومئذ على أن يولى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة ، وكان رجلا عريض الثراء ، وكان إذا حضر الحج قام فى قريش ، فقال

« يا معشر قريش ، إنكم جيران الله ، وأهل بيته ، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ، ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك ، وأكرمكم به ، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزوره ،

وكان هاشم يأمر بحياض من أدم [1] ، فتجعل فى موضع زمزم ، ثم تستقى فيها الماء من الآبار [2] التى بمكة ، فيشربه الحاج ، وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل التروية بيوم بمكة وبمنى وعرفة ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والخبز والسمن والسويق والتمر ويجعل لهم الماء ، فيسقون بمنى والماء يومئذ قليل فى حياض الأدم إلى أن يصدروا من منى فتنقطع الضيافة ويتفرق الناس لبلادهم

عبد المطلب :

وولد هاشم بن عبد مناف : أربعة نفر . كان منهم شيبة الحمد ، وهو عبد المطلب ونولى عبد المطلب بن هاشم الرفادة ، والسقاية ، فلم يزل ذلك بيده يطعم الحاج ويسقيه فى حياض من أدم إلى أن حفر زمزم ، فأصبح ، يسقى الحاج من زمزم ، ويحمل الماء من زمزم إلى عرفة ، فيسقيهم به

(١) حياض الأدم هى حياض من جلد (٢) الآبار

وكانت زمزم سقياً من الله .

لقد أتى عبد المطلب في المنام مرات ، فأمر بحفرها ، ووُصف له موضعها ، فقيل له :

« احفر طيبة »

فقال : وما طيبة ؟

فلما كان الغد أتاه ، فقال : احفر برَّة .

قال : وما برة ؟

فلما كان الغد أتاه وهو نائم في مضجعه ذلك . فقال : احفر المضنونة

قال : وما المضنونة ؟

أبن لي ما تقول

فلما كان الغد أتاه فقال : احفر زمزم

قال : وما زمزم ؟

قال : لا تنزح ولا تذم تسقي الحجيج الأعظم ، وهي بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم

فلما عين موضعها غدا عبد المطلب بمعوله ومسحاته ، وحفر هو وابنه الحارث حتى وصل إلى الماء ، فكانت زمزم

وكان عبد المطلب من حكماء العرب ، ومن حكام قريش ، وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها ، كالمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهي عن قتل الموءودة [1]

ويصف المؤرخون عبد المطلب ، فيقولون :

« كان أحسن قريش وجهاً ، وأمدهم جسماً ، وأحلمهم حلماً ، وأجودهم كفاً ، وأبعد الناس من كل موبقة تفسد الرجال ، لم يره ملك قط إلا أكرمه وشفعه وكان سيد قريش حتى مات [2] »

---

(١) تمهيد للشيخ مصطفى عبد الرازق

(٢) انظر طبقات ابن سعد

عبد الله :

أما عبد الله والد رسول صلوات الله عليه فقد كان صورة صدق لأصل من جاءه . ولو أمهله الزمن لتولى مناصب الشرف التي كانت بيد عبد المطلب وكان شعاره الذي التزمه طيلة حياته ما عبر عنه هو بقوله

« أما الحرام فالممات دونه »

ويقول له فاطمة الخثعمية « إني لأعرف فيك سمت أبيك »

وإذ نظرنا إذن إلى رسول الله ، ﷺ من ناحية والده وأسلافه ومن ناحية والدته وأخواله – فإننا نجدهم – خلقًا وعراقة أصل – من أشرف بيوت مكة وأكرمها ، وأسماها بشهادة المؤرخين جميعًا ، فكان صلوات الله عليه ، كما يقول ابن هشام

« أوسط قومه نسبًا ، وأعظمهم شرفًا من قبل أبيه وأمه »

مولده

لما حملت به أمه آمنة بنت وهب كانت تقول

« ما شعرت أني حملت به ، ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء ، إلا أني قد أنكرت رفع حيضتي ، وربما كانت ترفعني وتعود ، وأتاني آت وأنا بين النائم واليقظان فقال

« هل شعرت أنك حملت ؟ فكأني أقول ما أدري

فقال إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك يوم الاثنين

قالت فكان ذلك مما أيقن عندي الحمل ، ثم أمهلني حتى إذا دنت ولادتي أتاني ذلك الآتي ، فقال :

« قولي أعيذه بالواحد الصمد من شر كل حاسد »

قالت فكنت أقول ذلك ، فذكرت ذلك لنسائي فقلن لي تعلقي حديدًا في عضديك ، وفي عنقك ، قالت ففعلت

قالت : فمر بكر تُرك عنيّ إلا أياما فتحده مد مصع فكنت لا أتعقه ويعوب أبو جعفر محمد بن علي « أمرت آمنه وهي حامل برسول الله ﷺ أن تسميه « أحمد »

ورأت أمه ، حين ولدته كأن نوراً سطع منها أضاءت له قصور الشام وولد صلوات الله عليه ، فأرخ ميلاده ابتداء التمهيد لما أرادته الحكمة الإلهية من إخراج البشرية من الظلمات إلى النور

كان ميلاده تمهيدا لذلك عمى أن الله ، سبحانه وتعالى في هذه الفترة التي سبقت الرسالة أحاط رسول الإسلام بعنايته ورعايته ، ليكون أهلا ، لأن يحمل أعظم رسالة ، ولأن يبشر بالدين العام ، ولأن يبين للإنسانية أجمع المعنى الصحيح فيما يتعلق بأمر الصلة بينها وبين الله ، وفيما يتعلق بأمر سلوك كل شخص بالنسبة لنفسه وبالنسبة للآخرين ، وليحدد مسئولية كل شخص في المجتمع حاكماً كان أو محكوماً ، وزوجا كان أو أبا أو ابنا ، أو أخاً ، أو رئيساً في العمل أو عاملا إلى غير ذلك مما يشتمل على بعضه الحديث الشريف :

« كلكم راع ومسئول عن رعيته : فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل في بيته راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ، والخادم في مال سيده راع ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع ومسئول عن رعيته »

ومنذ ميلاده صلوات الله عليه ، بدأت تترنح جميع أسس الضلال والانحراف وتومئ إلى ذلك كتب السيرة النبوية ، برموز حسية فتحدثنا :

« إنه في ليلة ميلاده ﷺ غاضت بحيرة ساوى ، وتصدع إيوان كسرى ، وخمدت نار الفرس »

ثم الأصنام التي كانت على ظهر الكعبة فإن مصيرها المحتوم وتحطيمها المؤكد قد تحدد موعده بالسنين والأيام

إن عمد الشرك هذه والضلال والانحراف ، والظلم والاستعباد بدأت تتهاوى وتنهار ، منذ ميلاد الرسول ﷺ ، وأصبح أمر النور ، والهداية ، والرشاد وشك الظهور والانتشار

وسمي المولود : « محمداً »

أما سبب هذه التسمية فإنه حينما جاء جده عبد المطلب ليراه قيل له

« ما سميت ابنك ؟ »

فقال : « محمداً » .

فقيل له . كيف سميته باسم ليس لأحد من آبائك وقومك ؟

فقال : إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم وذلك – على حسب مايرى السهيلي – لرؤيا كان قد رآها عبد المطلب . وقد ذكر حديثها علي القيرواني ، في كتاب : « البستان » .

قال : كان عبد المطلب قد رأى في نومه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء ، وطرف في الأرض ، وطرف في المشرق ، وطرف في المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة على ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها . فقصها ، فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض » .

فلذلك سماه محمداً . وسمته أمه من قبل : أحمد . فهو أحمد وهو محمد . ﷺ

ولقد تحدث الرسول ، صلوات الله عليه ، فيما بعد عن أسمائه ، فقال فيما رواه الإمام أحمد :

« إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا الماحي الذي يمحى به الكفر ، وأنا العاقب »

وقال فيما رواه الإمام أحمد أيضا

« أنا محمد ، وأنا أحمد ، ونبي الرحمة ، ونبي التوبة ، والحاشر ، والمقفى ، ونبي الملاحم » .

وكان من عادة العرب ، أن يرضعوا أبناءهم خارج مكة ، فيرضعوهم في الصحراء المطلقة مكاناً وجواً ، لينشئوا في صحة تامة ، جسماً وعقلا . ومن أمثالهم : « العقل السليم في الجسم السليم »

وجاءت المرضعات يلتمسن الرضعاء في مكة، وهنا نترك السيدة حليمة السعدية تتحدث عن الرحلة، وعن صادفت فيها دهشة ويمنا، وعما رأته من بركات رسول الله، صلوات الله عليه. لقد كانت تقول:

« إنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد ابن بكر، تلتمس الرضعاء، قالت: وهي في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً »

قالت: فخرجت على أتان لي قمراء معنا شارف لنا، والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، وما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج.

فخرجت على أتاني تلك، فلقد أذمّت[1] بالركب حتى شق عليهم ضعفاً وعجفاً حتى قدمنا مكة، نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله محمد ﷺ، فتأباه إذ قيل لها: « إنه يتيم » وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده؟ فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت إلا أخذت رضيعا غيري.

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله، لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه.

قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره.

قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك.

وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل، فحلب منها، وشرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة.

قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة.

---

(١) جاءت بما تذم عليه

فقلت : والله إني لأرجو ذلك

قالت : ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم حتى أن صواحبي ليقلن لي :

يا ابنة أبي ذؤيب ويحك أربعي علينا . أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها !

فأقول لهن : بلى ، والله إنها لهي هي

فيقلن : والله إن لها لشأناً

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها . فكانت غنمي تروح علي حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومهم يقولون لرعيانهم : ويلكم ! اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعاً لبناً ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته .

وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان . فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً ولكنه صلوات الله عليه لم يمكث عندها عامين فقط ، ذلك أنها على رأس العامين ذهبت به إلى مكة ، لتراه أمه وليراه جده ثم عادت به أشد ما تكون حرصاً عليه وعلى العودة به .

أخذت حليمة السعدية رسول المستقبل إلى بادية بني سعد مرة أخرى ، وليس هناك من غرابة في أن يكون رسول النور هذا قد ملأ رحلتها من مكة إلى البادية بالبهجة والنشاط ، وبالأمل والتفاؤل

إن الأبحاث الحديثة نفسها ، وتجارب الإنسانية منذ أن وجدت الإنسانية تؤيد أن هناك إشعاعات عند بعض الناس تضفي على المرافقين لهم بهجة ونشاطاً

فلا غرابة إذن أن تنشط حليمة وينشط زوجها ، وتنشط دوابهما ، وأن تسير رحلته في رخاء وأن يكون محمد في براءته وطهارته وفي طفولته الناصعة ونضرته المتألقة هو سبب ذلك كله .

ويملأ محمد بيت حليمة بهجة وسروراً ، ويدب النشاط في جميع أرجاء البيت وعند جميع سكانه ، ويبارك الله في كل شيء فيه ، وينعم هذه الأسرة بحياة هنيئة ، فيزيد عطفها على محمد ، ويزيد حبها عليه فينمو في جو من الرحمة والود والحنان ، ويغرس كل ذلك في نفسه ، ويمتلئ قلبه الناشئ بسمو من أسمى العواطف والشيم

ويتحقق منذ طفولته [illegible] ن وإلى أن تنتهي به الحياة ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنه لما توفي عبد الله قالت الملائكة

« إلهنا وسيدنا ، بقي نبيك يتيماً »

فقال الله تعالى « أنا له حافظ ونصير »

الفصل الثاني

نبي التوبة

عن حذيفة رضي الله عنه قال فيما رواه الإمام أحمد: إن رسول الله ﷺ قال عن نفسه:

"وأنا نبي التوبة"

وللتوبة عند الرسول صلوات الله عليه، وفي النحو الإسلامي على وجه العموم شأن كبير، ذلك أن التوبة إنما هي تصفية للنفس، وتزكية للروح، وتتبعها الإخلاص.

وثمرة الإخلاص إذا صحت التوبة، أو تطرق إلى المجتمع لا تخفى على أحد.

وإذا نظرنا في حياة الرسول صلوات الله عليه من ناحية التوبة والإخلاص، وصفاء النفس، وتزكية الروح، فإن أول ما نلحظه من ذلك إنما هو هذا الحادث الذي ترويه كتب السيرة تحت عنوان «شق الصدر».

وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله عليه منذ الطفولة المبكرة.

لقد كان صلوات الله عليه إذ ذاك في بادية بني سعد عند مرضعته، وبينما هو يلعب مع الغلمان -على ما يرويه الإمام مسلم- أتاه جبريل، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج منه علقة، فقال:

«هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه».

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني مرضعته- أن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريباً.

ثم كان بعد عشر سنين تكرر حادث شق الصدر. فقد روى الإمام أحمد بن حنبل، والحاكم، وابن عساكر، عن أبي بن كعب: أن أبا هريرة رضي الله عنه، كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال:

« يا رسول الله ، ما أول ما رأيت في أمر النبوة » فاستوى رسول الله ﷺ ، جالساً وقال

« لقد سألت أبا هريرة »

إني في صحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسي ، وإذا رجل يقول لرجل : « أهو هو » ؟

قال : نعم .

فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلي يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مسا

فقال أحدهما لصاحبه أضجعه ، فأضجعاني بلا قصر (١) ولا هصر (٢) وقال أحدهما لصاحبه :

« افلق صدره »

فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه ، فيما أرى بدون دم ولا وجع ، فقال له « أخرج الغل والحسد » فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ، ثم نبذها فطرحها فقال له

« أدخل الرأفة والرحمة » فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلي اليمنى ، فقال : أغد واسلم

« فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ، ورحمة للكبير »

فلما جاوز صلوات الله عليه الخمسين أتاه آت ، على حين كان في الحطيم أو في الحجر مضطجعاً بين النائم واليقظان ، أتاه ، فشق عن صدره على حسب ما يروي البخاري ومسلم ، واستخرج قلبه .

« ثم أتي بطست من ذهب مملوء إيماناً ، فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد »

وتكرر المعراج ، فتكرر شق الصدر ، فعن أبي بن كعب - فيما رواه الإمام

---

(١) القصر : الإجبار

(٢) الهصر : ثني العمود من رأسه ، والمعنى : لم يثن ظهري ولم يكرهني

أحمد ، والإمام مسلم – أن رسول الله – ﷺ قال

« فرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ، ففرج صدري ، ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً ، فأفرغه في صدري ، ثم أطبقه » .

ولا نحسبنا هنا لا في قليل ولا في كثير أن نجاري المحدثين في حديثهم ، فيما يتعلق بشق الصدر ، فالأمر أسمى بكثير من الماديات في الشكل ، والكيف ، والزمان ، والمكان

والمعنى ، أعمق من أن نتجاوزه إلى المماحكات التي تشعر بضعف الإيمان أكثر مما تشعر بنور اليقين

لقد رويت في كتب السنة بالأسانيد الصحيحة ، ورويت أيضاً كتب السيرة ، هذه الحادثة التي توجه النظر إلى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله ﷺ منذ طفولته المبكرة ، وأن من مظاهر هذه العناية أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه من سبيل

إن الله سبحانه وتعالى ، وقد شاءت إرادته منذ الأزل أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل

والإنسان يبدأ السير نحو الكمال بطهارة القلب ، وتصفية النفس ، والتوبة ، والإخلاص أو بتعبير آخر : شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه وأرسل الله ملائكته ، فشقوا عن صدر الرسول صلوات الله عليه واستخرجوا حظ الشيطان منه

ثم أرسلهم ، فشقوا عن صدره ، وملئوه رأفة ورحمة ، فكان صلوات الله عليه رقة على الصغير ، ورحمة بالكبير

ثم أرسلهم فشقوا عن صدره ، فملئوه إيماناً

ثم شقوا عنه فملئوه حكمة وإيماناً

وإذا كان رسول الله ﷺ هو المثل الكامل للإنسان الكامل فإن لنا فيه أسوتنا ، والأسوة في شق الصدر إنما هي : التوبة

وتوبتنا إلى الله إذن توبة نصوحٌ إنما هي بمثابة شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه

والتوبة النصوح تخرجنا مباشرة من جو الخطائين ، بل ومن جو الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . هؤلاء الذين يقول الله فيهم (عسى الله أن يتوب عليهم) التوبة / ١٠٢

إن الله يعبر في شأنهم بكلمة (عسى) والتوبة النصوح تخرجنا من جو (عسى) لتضعنا في جو (مع الذين أنعم الله عليهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) النساء / ٦٩

والتوبة النصوح ، التوبة الصادقة من الآثام والمعاصي ، حد فاصل ، وفيصل حاسم بين عهدين ، عهد سيطرة الشيطان سيطرة كلية أو سيطرة جزئية ، سيطرة دائمة أو سيطرة مؤقتة ، وعهد الانطواء تحت لواء عباد الرحمن الذين يقول الله في حقهم مخاطباً الشيطان

(إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) الإسراء / ٦٥

ومجرد أن يخرج الإنسان من سلطان الشيطان في صورة من العزم المصمم ، وينطوي تحت لواء الله في صورة من اليقين المطمئن فإن الله سبحانه وتعالى يتولاه ويتكفل به

إن رعاية الله سبحانه وتعالى تبدأ مع الإنسان منذ أن يبدأ في الاتجاه إليه سبحانه وتعالى مباشرة وبدء الإنسان في الاتجاه إلى الله إنما يكون بالاستغفار ، فإذا بدأ الإنسان بالاستغفار بدأت رعاية الله له يقول الله تعالى .

(استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) [1]

وكلما ازداد الإنسان اتجاهاً إلى الله ، وإقبالاً عليه ، وتقرباً منه ، وحباً له ازدادت رعاية الله له .

من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه

(١) سورة نوح ١٠ – ١٢

باعا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة [١]

إن حياة النفوس والعمل الصالح أهم عنصر لسعادة الإنسان في حياته الدنيا وسعادته في الحياة الآخرة . والله سبحانه وتعالى بين ذلك في أكثر من آية في القرآن الكريم :

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) النحل / ٩٧

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) الأعراف / ٩٦

(ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) الطلاق / ٢ – ٣

التقوى والعمل الصالح شرطهما السعادة وعناية الله ورعايته والسنة الأولى في سنن كل ذلك إنما هي التوبة أو هي شرح الصدر ، ومستخرج حظ الشيطان منه . وقد فتح الله بابها على مصراعيه ، إنه سبحانه وتعالى – فيما رواه الإمام مسلم « يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » ويقول سبحانه :

(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) الزمر ٥٣ – ٥٤

وتوبة العوام إنما هي من الذنوب والآثام ، أما الخواص فإنهم لا يتوبون من الآثام والمعاصي ، فقد ثبت سلفاً أنهم قد تطهروا منه ، ونزههم الله برحمته عن أن يقعوا فيه . ومع ذلك فإنهم يتوبون إلى الله ويستغفرونه مصبحين ويستغفرونه سبحانه ، ويتوبون إليه ممسين ، بل يستغفرونه ويتوبون إليه تعالى في كل وقت وحين خضوعاً له وخشية منه ، وتقرباً إليه ، وخوفاً من المكر الخفي ، أو الغرور المستتر ، أو الغفلة التي قد لا يشعر بها الإنسان .

---

(١) حديث قدسي

لقد كان رسول الله ، صلوات الله عليه ، في رقيه الدائم ، وفي ثوراته التي ترد كل خطة صفاء يستغفر الله ويتوب إليه ستغفاراً عدة ، وتوبة إنابة وقربى يقول صلوات الله عليه — فيما رواه البخاري :

« والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » ويقول صلوات الله عليه فيما رواه الإمام مسلم

« يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه ، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة »

بعد أن ما نريد أن نؤكده لطلاب المعرفة الصحيحة — عن عالم الغيب ونؤكده لطلاب الإيمان الخالص هو أن وسيلة ذلك إنما هي التوبة النصوح ، إنها تستخرج حظ الشيطان ، ثم تأتي السكينة

والتوبة النصوح سبب مباشر لتوفيق الله ، يعد أن يكون مثلاً رأفة ورحمة ، ثم إنها السبيل لتنزل الحكمة وهي المعرفة اللدنية إرسالاً إرسالاً ، فيفيض بها فيض هداية وإرشاداً (واتقوا الله ويعلمكم الله) البقرة ٢٨٢

وإن من ثمرة العبودية والسنة الأولى فيها إنما هي التوبة فإن الله سبحانه يأتيه برحمة من عنده ، ويعلمه من لدنه علماً

استخرج جبريل حظ الشيطان من قلب رسول الله ، صلوات الله عليه ، في سن مبكرة فكان ، صلوات الله عليه كما يقول في ذلك ثمة

« والله ما للشيطان عليه من سبيل »

وحقيقته أنه لم يكن للشيطان عليه من سبيل فقد عصمه الله عصمة تامة عن رجس حياته كلها

لقد كانت مكة حينما كان رسول الله ﷺ شاباً فتياً موئلاً تعج بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة :

فقد كانت حانات الخمر منتشرة فيها ، وكذلك البيوت المريبة ، وفي هذه وتلك المغنيات ، والراقصات ، والماجنات ، وكان الشباب يتهالكون على كل ذلك ويتهافتون عليه ، وأراد الله أن يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك

ذكر البخاري عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال

وما هممت بشيء من أمر الجاهلية إلا مرتين»

أما هاتان المرتان فإن سيدنا عليا رضي الله عنه يتحدث عنهما على ما يروي ابن كثير، فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا مرتين كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما. قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاء غنم أهلها، فقلت لصاحبي:

«ألا تبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان»؟

فقال: بلى.

قال: فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة، سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟

قالوا: تزوج فلان فلانة.

فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي. فقال: ماذا فعلت؟

فقلت: ما فعلت شيئاً، ثم أخبرته بالذي رأيت. ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر، ففعل، فلما جئت مكة، سمعت مثل الذي سمعته تلك الليلة. فسألت

فقيل: نكح فلان فلانة.

فجلست أنظر، فضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس

فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت:

لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته.

هذا ما كان من أمر عبث الفتيان.

أما ما كان من أمر عبادة الأصنام فإن القصة التالية توضح الأمر

عن ابن عباس قال: حدثتني أم أيمن قالت: كانت بوانة صنماً تحضره قريش تعظمه، وتنسك له النسائك، ويحلقون رءوسهم عنده، ويعكفون عنده يوماً إلى

الليل وكان ذلك يوماً في السنة

وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه ، فيأبى رسول الله ﷺ ذلك ، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن :

ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثّر لهم جمعاً .

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً ، فقالت له عماته :

ما دهاك ؟ قال :

« إني أخشى أن يكون بي لمم [1] »

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك . فما الذي رأيت ؟

قال :

« إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي وراءك [2] يا محمد : لا تمسه » قالت :

« فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ »

فقد كانت حياته ، صلوات الله عليه ، شرحاً مستفيضاً وتوضيحاً كاملاً ، وتعبيراً تاماً لما ذكره ابن خلدون وما يتفق عليه العقلاء . ويجمع عنده أصحاب البصائر المستنيرة من أن ذلك من علامات الأنبياء

« وبه يوجد له قبل الوحي خلق الخير والزكاء ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع . وهذا هو معنى العصمة ، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته » .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول صلوات الله عليه مبيناً لهذه القاعدة فيقول :

---

(١) مس من الجنون

(٢) ارجع وراءك

« وفي الصحيح أنه حمل الحجارة ، وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة ، فجعلها في إزاره فانكشف ، فسقط مغشياً عليه حتى استتر بإزاره »

ودُعي إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب فأصابه غشي النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم .

ومضت فترة الشباب برسول الله ﷺ وهو طاهر زكي : طاهر من الآثام التي تدنس الشباب في جاهليتهم ، وزكي لأنه بعيد عن الشرك ، لم يسجد لصنم قط ، صلوات الله عليه وسلامه

الفصل الثالث

الوحي

ما قبل الوحي

إن كتب السيرة لا تحدث عن حياة الرسول صلوات الله عليه قبل بعثته إلا بالنزر القليل القليل جداً ويمكن تلخيص ذلك في صورة مجملة كما يلي :

بعد أن استكمل الرسول الرضاع ، وبلغ حوالي أربع سنوات عادت به حليمة رضي الله عنها إلى أمه آمنة بنت وهب ، فلما بلغ ست سنين خرجت به إلى أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم به ، ومعه أم أيمن ، تحضنه ، وهم على بعيرين ، فنزلت به في دار النابغة ، فأقامت به عندهم شهراً

ثم رجعت به إلى مكة ، فلما كانت بالأبواء توفيت ، ودفنت هناك ولم ينس الرسول ﷺ المكان الذي دفنت فيه أمه فلما مر في عمرة الحديبية بالأبواء قال « إن الله قد أذن لي في زيارة قبر أمي » .

ثم أتاه فأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ ، فقيل له ، فقال : أدركتني رحمتها فبكيت

ورجعت به أم أيمن ، على البعيرين اللذين كانا معها

واستمرت أم أيمن تحضنه بعد وفاة أمه ، وعندما وصل مكة قدمته إلى جده عبد المطلب وضمه ، ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه ويدخل عليه إذا خلا ، وإذا نام . وكان الرسول يجلس على فرش جده ، فيرسلون معه فيقول عبد المطلب حين يرى ذلك « دعوا ابني ، إنه ليؤنس ملكاً »

ورآه مرة عبد المطلب يبعد عن رعاية أم أيمن فقال لها : « يا بركة ، لا تغفلي عن ابني ، فإني وجدته مع غلمان قريباً من السدرة وإن أهل الكتاب ، يزعمون أن ابني هذا نبي هذه الأمة »

ولما توفي عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله ﷺ ، فكان يكون معه ، وكان أبو طالب لا مال له ، وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام

إلا في حجره ، ويخرج فيخرج معه . ووصى به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها شيء قط . وكان يخصه بالطعام . وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا . وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا . فكان إذا أراد أن يغديهم . قال : كما أنتم حتى يحضر ابني ، فيأتي رسول الله ﷺ . فيأكل معهم . فكان يفضل من طعامهم وإن لم يكن معهم لم يشبعوا . فيقول أبو طالب : « إنك لمبارك »

واستمر أبو طالب في رعاية الرسول ، صلوات الله عليه ، لم يسلمه قط ، ولم يخذله إلى أن توفي للنصف من شوال في السنة العاشرة ، من حين تنبئ رسول الله ﷺ ، وهو يومئذ : ابن بضع وثمانين سنة .

ومما يروى ، بصدد أبي طالب : أن العباس قال :

يا رسول الله ، أترجو لأبي طالب ؟ فقال ، صلوات الله عليه :

« كل الخير أرجو من ربي »

وفي هذه الفترة التي قبل البعثة ، كان يتحاكم إلى الرسول ﷺ

يقول الربيع بن خثيم : « كان يتحاكم إلى رسول الله ، ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام ، ثم اختص في الإسلام »

ومن الأمثلة المشهورة في ذلك : قضاؤه ﷺ في الخلاف الذي كان بين قريش ، بشأن وضع الحجر الأسود فيه حينما انتهوا في بناء الكعبة إلى حيث يوضع الركن من البيت فأرادت كل قبيلة أنها أحق بوضعه ، واختلفوا حتى خافوا القتال .

ثم جعلوا بينهم أول من يدخل من باب بني شيبة ، فيكون هو الذي يقضي بينهم ، وقالوا : رضينا وسلمنا بذلك . فكان رسول الله ، ﷺ أول من دخل من باب بني شيبة ، فلما رأوه قالوا : هذا هو الأمين ، قد رضينا بما قضى بيننا . ثم أخبروه الخبر ، فوضع رسول الله ﷺ رداءه وبسطه على الأرض ، ثم وضع الركن فيه .

ثم قال : ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل ، فكان في ربع بني عبد مناف عتبة بن ربيعة ، وكان في الربع الثاني أبو زمعة ، وكان في الربع الثالث أبو حذيفة ابن المغيرة ، وكان في الربع الرابع قيس بن عدي ، ثم قال رسول الله ﷺ :

لتأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعاً، فرفعوه، ثم وضعه رسول الله ﷺ بيده في موضعه ذلك.

وفي سن الخامسة والعشرين تم زواجه صلوات الله عليه. وهنا نترك مجال الكلام لنفيسة بنت منية تقص علينا بصورته الواقعية. قالت

وكانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير. وهي يومئذ أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً. وكل قومها كان حريصاً على الزواج منها لو قدر على ذلك. ولقد طلبوها، وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دسيساً إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام. فقلت يا محمد، ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: ما بيدي ما أتزوج به. قلت: فإن كفيت ذلك. ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: «فمن هي؟» قلت: خديجة. قال: «وكيف لي بذلك؟» قلت: قلت: عليّ. قال: «فأنا أفعل». فذهبت، فأخبرتها، فأرسلت إليه أن ائت ساعة كذا وكذا. وأرسلت إلى عمها فحضر. وتزوجها رسول الله ﷺ، وهو ابن خمس وعشرين سنة. وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة. ولدت قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة

وفي ظل الحياة الزوجية عاش صلوات الله عليه عيشة هادئة وديعة، فيسر الله له بذلك ما كان يشغل به نفسه من العبادة والتقوى وهكذا نشأ ﷺ طاهر النفس، كريم الخلق، محارباً للمذمومات، محباً للرحمن

لقد سارت به الحياة نقية طاهرة. فكانت شرحاً وتفسيراً لما سبق أن تحدثنا عنه من شق صدره الشريف، واستخراج حظ الشيطان منه

ولقد تمثل فيه صور الشباب الناضج الكامل والرجولة الرشيدة

فقد كان صادقاً في حديثه، عطوفاً على من حوله، منصفاً للضعفاء، يكتسب ثقة كل من يخالطه

ولكل ذلك أحبته السيدة خديجة، رضوان الله عليها.

ولكنها رضي الله عنها – أحبته لشيء آخر هو السمو الروحي، وهو العزوف عن الملذات المادية الفانية، والاتجاه إلى الخالد من معالي الأمور

إن عناية الله رافقته ولاحظته ووجهته ، فكان خيّراً زكيًّا ، وكان أمةً وحده وسط هذا الضلال الديني والأخلاقي الذي كان يملأ على رجال مكة جميع أقطارهم

لقد أحبته السيدة خديجة من أجل ذلك

ومن أجل ذلك سماه قومه : « الأمين »

لقد كان أمينا على نفسه فلم يسلمها إلى مهاوي الشرك أو الشهوة أو الرجس

وكان أميناً على الناس فلم يمسّ عرضاً ، ولم يوقع بعض الناس في بعض بالنميمة ، ولم يغتب

وكان أميناً على الحديث إذا تحدث فلا كذب ، ولا مغالاة

وكان أمينا على الأسرار فلم يفشها ، ولم يذعها

إنه « الأمين » . أجمع عليها القرشيون ، وقالوها حينما اختلفوا في رفع الحجر الأسود ، ووضعه في الكعبة ، وأوشكت الحرب أن تقع بينهم كما قدمنا ، ثم استقر رأيهم على الاحتكام لأول داخل عليهم ، فغمرتهم الفرحة حينما رأوا محمداً ، ﷺ ، وصاحوا : إنه « الأمين » رضينا . إنه محمد !

الوحي ولقد حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ، أي « يتعبد » الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها

كان صلوات الله عليه يغادر مكة منغمسة في الضلال ، ويعتكف في غار حراء متعبداً ، حتى قالت العرب : « إن محمداً قد عشق ربه » !

ولكن أما آن لهذا الضلال الذي يجثم على مكة أن ينقشع ؟

أما آن لهذه الظلمة أن تمحى ؟

أما آن لهذه الأصنام أن تتحطم ؟

أليس هناك أمل في قبس من نور ، أو إثارة من علم ، أو رحمة من عند الله ، أو هداية من لدن مانح الهدى و الرشاد ؟

ويتجه رسول الله ﷺ إلى الله يستغيث به ويستمده ويرجوه ، ويلح في

الرجاء ، وتذلل ، ويطلب منه الرحمة له ولقومه

وتمضي الأيام وهو في كفاح المستميت ، وجهاد المستبسل ، يتجه إلى الله في الصباح ، ويتجه إليه في الظهر ، ويتجه إليه في الآصال ، ويتجه إليه في مغيب الشمس ، ويتجه إليه حينما تلمع الكواكب

إنه مهاجر إلى الله في كل لحظة ، وفي كل نفس من أنفاسه ، وفي كل طرفة عين ، وفي كل نبضة قلب ، وفي كل همسة من همسات الضمير

إن حياته كلها لله ، ومع ذلك فإن الأيام تمر والسنين تمضي ولا يزال الظلام جاثماً فوق أرجاء مكة ، ولا تزال الأصنام فوق بيت الله ، شارة الضلال وعلم الانحراف !

ويضاعف الرسول ﷺ خضوعه وتذلله ، ويضاعف رجاءه وأمله ، ويجاوز الأمل الخوف والقلق ، فيضاعف التذلل والخضوع ، والالتجاء إلى الله ، حتى أصبح صلوات الله عليه وسلامه في النهاية وكأنه صفاء من الصفاء ، ونور من النور .. فلما استوت على الجودى ولما كاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار وفي ليلة من الليالي بينما كان الرسول ﷺ معتكفاً في غار حراء كعادته كل عام ، وفي شهر رمضان مبارك ، تحطم نهائيا ذلك الحاجز الذي يفصل بين الكسب البشرى الموفق من جانب ، والاصطفاء الإلهي ، والاجتباء الرباني من جانب آخر ، أو بتعبير آخر - ذلك الحاجز الذي يفصل بين الولاية والنبوة

حديث بدء الوحي

لقد جاءه الحق ، وهو في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال :

(اقرأ)

قال : (ما أنا بقارئ) .

قال : فأخذني فغطني ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال :

(اقرأ)

قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، قال :

(اقرأ)

فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني . فقال

(اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم) العلق / ١ - ٣ .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال زملوني زملوه ، حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر

« لقد خشيت على نفسي » فقالت خديجة

« كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . »

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، لقد كان ورقة عربيا أصيلا من ذروة بيوتات قريش .

وهو كما يروى صاحب الأغاني « أحد من اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية ، وطلب الدين ، وقرأ الكتب ، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان »

طلب ورقة الدين ، ولم يكتف في طلبه باللغة العربية ، بل لعل اللغة العربية إذ ذاك : لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة ، فتعلم العبرانية .

يقول الإمام البخاري عنه :

« وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب »

وهو القائل هذه الأبيات الشائعة في الأوساط المؤمنة

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودي المال والولد

لم تغن عن هرمز يوما خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان ، إذ دان الشعوب له ... والجن والإنس تجري بينها البرد [1]

---

(١) البرد : جمع بريد وهو الرسول

ولقد سئل عنه رسول الله صلوات الله عليه فيما بعد ، فقال :

« قد رأيته في المنام كأن عليه ثياباً بيضاً ، فقد أظن أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض »

وقد كان ورقة معروفاً بالعقل الناضج والمعرفة الواسعة ، والإخلاص المخلص ، وقد كان في فترة بدء الوحي ، هذه ، « شيخاً كبيراً قد عمي » : أي أنه مر بالتجارب الكثيرة في الدين والدنيا ، وأصبح لا يرجو إلا حسن الخاتمة ، والعمل ما استطاع — في سبيل الله

من أجل كل ذلك انطلقت السيدة خديجة بالرسول ، صلوات الله عليه إليه وقالت له :

« يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك » .

فلما أخبره رسول الله ، ﷺ ، خبر ما رأى قال ورقة دون تردد ولا تلعثم ولا انتظار

« هذا هو الناموس الذي نزّل الله على موسى » .

قال ذلك في يقين جازم وفي إيمان مؤمن .

أما الأسباب التي دعت ورقة إلى هذا القول فإن منها لا شك معرفته بحياة الرسول صلوات الله عليه لقد كانت حياة طاهرة عفة ، كان صلوات الله عليه عازفاً عن طلب المجد الزائف ، والجاه المفتعل ، وكان بعيداً عن أن يكون عنده سبب

ولقد سمع ورقة حديثاً يعكس صورة صحيحة مخلصة للصدق الصادق ، وسمع هذا التعبير البريء عن عنصر المفاجأة في الموضوع : إن الحديث لا يتسم بمنطق مروى ولا بتفكير مدبر ، ولا بمحاولة ، أيا كانت ، للتلبيس والزيف إنها البراءة المطلقة

لقد فاجأه الملك على غير انتظار وعلى غير توقع ، وفاجأه في خلوة يرجو فيها رحمة الله ، ويأمل فيها رضاه وفاجأه بأمر لم يكن له على بال .

« اقرأ »

« ما أنا بقارئ »

ففاجأه الملك بأمر غريب آخر . لقد أخذه فغطه حتى بلغ منه الجهد ، ثم

أرسله ، وقال له ، من جديد : « اقرأ » وتكرر ذلك

ورجع رسول الله ﷺ ، يرجف فؤاده ،

لقد غمره الروع ، وما إن وصل إلى المنزل حتى صاح « زملوني زملوني »

فلما ذهب عنه الروع قص على السيدة خديجة رضي الله عنها ما رأى ثم قال

« لقد خشيت على نفسي »

إن كل ذلك برهان واضح على الصدق ، وعلى الإخلاص ، فإذا ما أضيف

ذلك إلى ما يعرفه ورقة من حياة الرسول ﷺ فإن ثمرة ذلك التصديق والإيمان ،

بيد أن النور الذي غمر ورقة ، إنما كان إشعاع قوله تعالى :

(اقرأ باسم ربك الذي خلق)

حينما سمع ورقة أول آية من القرآن :

(اقرأ باسم ربك الذي خلق . .)

لم يمكث أن من أن ، هذا لدى شيء إنما هو وحي من السماء ، إن

(اقرأ باسم ربك) تنص على أن القراءة لا تكون باسم وزير ، ولا أمير ، ولا باسم

منفعة شخصية ، ولا باسم مصلحة إقليمية ، ولا باسم غاية مادية أيا كانت ، ولا

باسم وطن أو بيئة ، وإنما هي باسم الله ، وإذا كانت باسم الله فإنها تفيد الشخص

باعتباره فرداً ، وتفيد المجتمع الخاص الذي نسميه « وطنا » وتفيد المجتمع

الإسلامي العام ، بل وتفيد الإنسانية جمعاء

وإذا ما تجردت القراءة لله تعالى ، وكان هدفها الأول والأخير هو الله مصدر

الخير والنور كانت خيراً ، وكانت نوراً في جميع الأرجاء وفي جميع الأزمان

وهكذا وضع الإسلام منذ « اقرأ باسم ربك » أي منذ اللحظة الأولى من

تاريخه على قمة الإخلاص ، وعلى قمة الإحسان ، وفي خضم من التقوى ، وعلى

السنام من الصدق ، فما دامت الحياة كلها لله فليس هناك مجال للكذب ،

والرياء ، والنفاق ، والخديعة ، وإرادة غير الله بالأعمال

وحينما سمع ورقة هذه الكلمة الأولى لم تملك أن آمن ، وهل يمكن أن

تقول لشخص تجرد إلى الله ، وتدعوك أن تتجرد إليه سبحانه ، شخص لم يطلب

مالاً ، ولا جاهاً ، ولا زعامة ، ولا ملكاً ، إنه يريد أن تقرأ الإنسانية كلها باسم ربها ، وأن تقوم في كيانها كله على أساس من تربية ربها . ماذا يمكن أن تقول له أيمكن أن تقول : إنك كذاب ، فما هو الصدق إذن ؟

أيمكن أن تقول له : إنك منافق ، فأين هو الإخلاص ؟

إن هذه الكلمة لأول قاذف ورقة نور سماعها إلى الإيمان

أسطورة التعارض بين الإسلام والعلم

إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم التي نشأت في أوربا بعيدة كل البعد عن الروح الإسلامية التي حثت الإنسانية على التعليم ، والتي ولد المنهج العلمي الذي يسمونه « المنهج الحديث » بين ربوعها ، والتي أنشأت على أساس من هذا المنهج حضارة ضخمة ، لا يزال يكشف كل يوم الكثير من جوانبها العميقة . وما من شك في أن الحضارة الإسلامية هي التي قد قدمت للحضارة الغربية الحديثة منهجها . وقدمت لها الكثير من حقائق العلم في كثير من المجالات المختلفة

إن المنهج العلمي الحديث في أوربا لا يرجع إلى (روجر بيكون) فهو الذى أذاعه ونشره في أرجاء أوربا

ويتحدث الأستاذ (بريفولت) في كتابه « بناء الإنسانية » فيقول عن روجر بيكون إنه درس اللغة العربية ، والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد على خلفاء العرب في الأندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحق والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية

وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر « بيكون » قد انتشر انتشاراً واسعاً ،

وانكب الناس في لهف على تحصيله في ربوع أوربا [١]

ويقول : (بريفولت) أيضاً

لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج

إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في إسبانيا لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية [٢] هـ

وإذا كان الإسلام ، هو الذي أنشأ هذا المنهج وهذا العلم فمن الطبيعي ألا يعارضه .

على أن مسألة التعارض بين الدين والعلم إنما هي مسألة وهمية ، إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر :

وذلك أن العلم دائرته المادة وفحص ، أما الدين فدائرته (ما وراء الطبيعة) ، والخير والفضيلة ، فهما لا يلتقيان في الموضوع ، فكيف يتعارضان ؟

إن ملاحدة العصر الحاضر يتوهمون مشاكل لا أساس لها ثم يضعونها على بساط البحث ، ويناقشون فيها ويتحادثون ، وعلى مر الزمن يضفي الإلف عليها ، وهي وهمية صورة من ظلال الحقائق ، فيظن بعض الناس أنها مشاكل جديرة بالبحث والنظر ومن ذلك مسألة التعارض بين العلم والدين مع أنه لا اتحاد بين موضوعيهما

العلم في الإسلام أوسع دائرة :

وإذا اقتصرت أوربا على العلم المادي فإن الإسلام لا يقف عند ذلك ! وإنما يوجه الإنسانية إلى مصدر آخر للعمل والمعرفة هو القلب أو الروح والبصيرة .

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام ، تأليف محمد إقبال ، ترجمة الأستاذ عباس محمود

(٢) المصدر السابق

إن الإسلام يوجه الإنسان إلى المعرفة الإشراقية ، أو الكشفية ، أو الإلهامية .

ويجمع الإسلام الاتجاه العلمي الحديث إلى الاتجاه المصيري في قوله

(إن السمع ، والبصر ، والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)[1]

فالسمع ، والبصر هما أساس العلم المادي على التجربة ، والملاحظة ، أما القلب فإنه أساس العلم الإلهامي .

إن الله سبحانه وتعالى يوجه المسلم إلى الملاحظة والتجربة ، ويوجهه أيضا إلى الاستشراف للهداية والنور القلبي عن طريق الخلق الكريم والتقوى والإخلاص وحب الإنسانية والمعاونة في الخير

وإذا كان الإسلام أوسع نظرة في المجال العلمي عن الحضارة الحديثة ، وأدق وأشمل فإنه يخالفها اختلافاً جذرياً حاسماً في مسألة الإرادات والنوايا ، وفي أمر الأسباب والبواعث ، وفي اتجاه الغايات والأهداف .

إن الحضارة الحديثة تقول العلم لا صلة له بالأخلاق ، أو تقول العلم لا أخلاق والعلم في نظرها لا شأن له بالخير والشر

ولكن الإسلام يجعل أسس العلم متسمة بالخير ، ويجعل غايته منغمسة في الخير ، ويجعل من العلم قربى إلى الله ، ويجعل منه عبادة لله ، إنه سبحانه يجعله باسمه الكريم ، إن العلم في الجو الإسلامي قراءة باسم الله

ومن هنا كانت حضارة الإسلام حضارة رحمة وهداية لا حضارة تدمير وتخريب

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء . ١٠٧

تلك حقيقة في الدين الإسلامي ، سواء نظرنا إلى أسسه أو نظرنا إلى غايته أما الرسول ، صلوات الله عليه فإنه

(رحمة مهداة)

---

(١) الإسراء آية ٣٦

الجهر بالدعوة وإثبات الرسالة

مكثت الدعوة الإسلامية سرية ثلاث سنوات ، ثم أمر صلوات الله عليه بالجهر بها فصعد على الصفا فقال : يا معشر قريش ، فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، فأقبلوا واجتمعوا ، فقالوا : مالك يا محمد ؟

قال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟

قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط

قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، يابني عبد المطلب ، يابني عبد مناف ، يا بني زهرة ... حتى عدد الأفخاذ من قريش . إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : « لا إله إلا الله »

وإذا كان رسول الله ، صلوات الله عليه قد طرح الثقة على قريش برفعه علم الأمانة هذا في وجوههم فإنه كان مطمئنا واثقاً من أن حياته من الصفاء بحيث لم يشبها ما يجعل رأى قريش فيه قبحاً .

لقد كانت حياته البريئة الكاملة ، والطهر التام وهذا ما دعاه إلى أن يتحدى في صراحة ، وأن يعلن في وضوح أن حياته تثبت صدق ما يقول

ولو تمثلت الأمانة - الصدق والإخلاص - في كل من يخطبون به لما كان في حاجة إلى رفع علمه هذا ، فقد كان يكفي الإخبار بأنه رسول فتكون الاستجابة

وقد آمن بمجرد هذا الإخبار كثيرون لما توفر فيهم من الصدق والإخلاص لأنفسهم وللآخرين - أى ما توفر فيهم من الأمانة - لقد آمنت خديجة ، وآمن أبو بكر ، وآمن ورقة وغيرهم بمجرد أن أخبرهم بأمره ، آمنوا لما يعرفونه فيه ولما يعلمونه من حياته ، ولقد أقر بهذه الصفة - صفة الأمانة - أبو سفيان في وقت كان فيه من أشد أعداء الرسول - سأله هرقل قائلا : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال أبو سفيان : لا ، وكان استنتاج هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله

وسأل هرقل أبا سفيان أيضا هل قد أثر عن محمد غدر؟ فأجاب أبو سفيان بالنفي ؛ فعقب به هرقل : سألتك هل يغدر فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

أما إثبات الرسالة فقد تحدث القرآن الكريم عن المعجزة الكبرى ، وهي القرآن ، وتحدى العرب به . لقد تحداهم به في عنف ، وتحداهم متدرجا معهم : إذ طلب إليهم أولا أن يأتوا بمثله فقال الله ، تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)[1]

فلما عجزوا طلب إليهم أن يأتوا بعشر سور مثله

(أم يقولون افتراه ؟ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين[2])

فلما عجزوا طلب إليهم أن يأتوا بسورة من مثله

(وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)[3] .

عن كل ذلك عجز المشركون ، فثبت أن هذا الكتاب من عند الله

أما عن حياته صلوات الله عليه فإن القرآن تحدث عنها من زوايا مختلفة : لقد تحدث عنها في صراحة لا لبس فيها ، وتحدث عنها في إشارات ذات مغزى . وتركنا فضلا عن ذلك نستنتج من الأخبار الكثيرة التي قصها عنه — جوانب لا تحصى من السمو الأخلاقي الكريم .

١ — لقد تجرد صلوات الله عليه من كل مطمح دنيوي .

(قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجري إلا على الله . وهو على كل شيء شهيد)[4] .

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٨
(٢) سورة هود آية ١٣
(٣) سورة البقرة آية ٢٣ - ٢٤
(٤) سورة سبأ آية ٤٧

٢ – ولقد لبث فيهم من قبل ذلك أربعين عاماً ، فلم يحدثهم بنبوة ولا برسالة (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) يونس / ١٦

٣ – ويطلب إليهم القرآن الكريم أن يتفكروا في أمر صاحبهم هذا ، الذي نشأ بينهم ، وترعرع على مرأى ومسمع منهم :

« قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنّةٍ إن هو إلا نذير لكم ، بين يدي عذاب شديد [1] »

ويشرح الزمخشري هذه الآية شرحاً لطيفاً فيقول ما ملخصه

إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ، وهي : أن تقوموا لوجه الله خالصاً ، اثنين اثنين ، أو واحداً واحداً (ثم تتفكروا) في أمر محمد ﷺ ، وما جاء به

أما الاثنان فيتفكران ، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه متصادقين ، متناصفين ، لا يميل بهما اتباع الهوى ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح ، على جادة الحق وسننه ، وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفة ، من غير أن يكابر ، ويعرض فكره على عقله وذهنه ، وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم .

والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى : أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويمنع من الروية ، ومع ذلك يقل الإنصاف ، ويكثر الاعتساف

وقد علمتم أن محمداً ﷺ ما به من جنة ، بل علمتموه أرجح قريش عقلاً ، وأصلبهم رأياً ، وأصدقهم قولاً ، وأزكاهم نفساً ، فكان مظنة لأن تظنوا به الخير وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية

٤ – ويصف القرآن الكريم جانباً من جوانب حياته ويصف دعوته أيضاً فيقول

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذن لارتاب

---
(١) سورة سبأ آية ٤٦ .

المبطلون ، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) [1].

وإذ وقفنا قليلا عند هاتين الآيتين فإن معنى الآية الأولى تريد أن تقول : إنه حق لو فرضنا أن محمدًا صلوات الله عليه كان يقرأ ويكتب ، وأنه كان يتلو من قبله كتابا ، أو كان يخطه بيمينه لاقتصر الارتياب على المبطلين فحسب . ذلك أن معاني الكتاب ومفاهيم الدعوة التي أتى بها ، وقواعد ومبادئ التي شرعها ، كل ذلك آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، لا ينفيها ، ولا يجحدها إلا الظالمون ، والظالمون في كل آونة يجحدون الحق ، وينكرون المنطق السليم .

٥ – ويتوج القرآن الكريم تحدثه عن الرسول ، صلوات الله عليه ، بهذه الكلمة العميقة :

(وإنك لعلى خلق عظيم) القلم/٤

إن الدعوة الإسلامية بانت بينات في منطق الحق ، وفي منطق العقول المستنيرة .

وها هو ذا (أكثم بن صيفي) أحد حكماء العرب ينهج بفطرته السليمة هذا النهج من الاستدلال على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوته :

يذكر (الألوسي) أنه لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ودعا إلى الإسلام بعث أكثم بن صيفي ابنه « حبيشا » فأتاه بخبره ، فجمع بني تميم وقال لهم فيما قال :

« إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتاني بخبره ، وكتابه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران . وقد عرف (عرف) ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه »

ثم يقول هذه الكلمة الرائعة :

« إن الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن دينا لكان في أخلاق الناس حسنًا »

وقد كان الاستدلال بصدق الدعوة على صدق الرسول صلوات الله عليه هو المنحى الذي سار فيه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه حينما سأله النجاشي

---

(١) العنكبوت آية ٤٨ ، ٤٩

عن امر دينه ، وذلك أنه لما فر المسلمون بدينهم إلى الحبشة مهاجرين إثر ما نالهم من تعذيب أليم ، وأرسل القرشيون وفداً إلى النجاشي فيه عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ليرد المهاجرين إلى مكة ، ليعذبوهم من جديد ولما التقى الوفد والنجاشي قال له عمرو بن العاص

« إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا (أي أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم »

فلما سمع النجاشي كلامهم رأى أن من الحكمة ألا يسلم إليهم المهاجرين ، دون أن يسمع كلامهم وحججهم ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ، فقال له

« أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات

وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، (وعدد عليه أمور الإسلام) فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا

فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من

عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا — خرجنا إلى بلادك

ولما قرأ عليه صدراً من سورة مريم بكى النجاشي ، ثم قال :

إن هذا ، والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . ثم التفت إلى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، فقال لهما

(انطلقا : فلا ، والله لأسلمهم إليكما)

لقد علم النجاشي فور سماعه المبادئ الإسلامية » أن هذه المبادئ حق ، وأنها آيات بينات ، لا يخفى صدقها على أصحاب الفطر السليمة ، وعلم أن ما أتى به محمد صلوات الله عليه ، إنما يصدر من النبع الذي كانت تصدر عنه رسالة عيسى عليه السلام »

وبعد فإن سيرة الرسول صلوات الله عليه والمبادئ الإسلامية من أهم الوسائل التي ينبغي أن يتجه إليها المبشرون بالدين الإسلامي لنشر الإسلام

على أن هذا النهج من الاستدلال بالدعوة على الصدق ، وجعل النظر في الدعوة إحدى الوسائل التي تسلم مع غيرها من الملابسات إلى اليقين بصدق الداعي — هذا النهج الذي اتخذه هرقل والنجاشي — هو النهج الذي أقره الإمام الغزالي ، فإنك إذا « أكثرت النظر في القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضروري بكونه ، ﷺ على أعلى درجات النبوة » .

وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات ، وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق في قوله ﷺ

« من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم »

وكيف صدق في قوله ﷺ ؟

« من أعان ظالما سلطه الله عليه »

وكيف صدق في قوله ﷺ ؟

« من أصبح وهمومه هم واحد - هو التقوى - كفاه الله هموم الدنيا والآخرة »

فإذا جربت ذلك في ألف ، ومئين ، وآلاف ، حصل لك علم ضرورى لا تمارى فيه ، بأنه صلوات الله عليه على أعلى درجات النبوة

« إن النظر إلى الدعوة الإسلامية في نظر الإمام الغزالى هو أحد الوسائل التى تثبت صدق الرسول ﷺ

وقد تبع هذا الاتجاه في الاستدلال العالم الاجتماعى الكبير ابن خلدون وهو مستوعب في نظرة عامة الكثير من الاتجاهات المستقيمة في شأن النبوات . وننقل هنا ما كتبه خاصاً بموضوع الاستدلال بالدعوة حينما تكون الدعوة خيراً محضاً كالدعوة الإسلامية على صدق الرسول فيما يدعو إليه ، يقول

ومن علاماتهم أيضاً :

دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة ، والصدق ، والعفاف ، وقد استدلت خديجة على صدقه ﷺ بذلك . وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه ، وفي الصحيح .

أن هرقل حين جاءه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام- أحضر من وجد في بلده من قريش ، وفيهم أبو سفيان ليسألهم عن حاله . فكان فيما سأل أن قال

بم يأمركم ؟ فقال أبو سفيان بالصلاة ، والزكاة ، والصلة ، والعفاف . إلى آخر ما سأل ، فأجابه فقال :

« إن يكن ما تقوله حقا فهو نبى ، وسيملك ما تحت قدمى هاتين »

والعفاف الذى أشار إليه هرقل هو : العصمة .

« فانظر كيف أخذ من العصمة ، والدعاء إلى الدين ، والعبادة دليلا على صحة نبوته ، ولم يحتج إلى معجزة فدل ذلك على أن ذلك من علامات النبوة

وشيء آخر له مكانه الكبير في إثبات الرسالة ذكرته السيدة عائشة ، رضى الله عنها في حديث « بدء الوحى » وهو أن الله ، سبحانه ، حبب إلى رسوله ﷺ الخلاء ، فكان قبل الوحى يغادر مكة ، ويبتعد عن حياتها الصاخبة التى كان يرى فيها من الضلال الشىء الكثير

يتركها ليخلو بغار حراء فريداً يتأمل ويرجو ويسجد لله متعبداً ، خاشعاً طالباً

رضاه ، آملا في هدايته ، كان يتحنث في هذا الغار الذي يتعبد فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ، ويتزود ليعود من جديد إلى التحنث ، وإن العبادة لم يكن إذن يطلب مالا أو ثروة أو لذة مادية أو جاهاً أو مجداً عند الناس ، إنه يطلب الهداية ويبحث عنها

ولقد وضح عزوفه عن زخارف الحياة وضوحاً بيناً في قوله وسلوكه ، ونذكر من السيرة النبوية مثالين لهما مغزى واحد عميق

أما المثل الأول فهو أن عتبة بن ربيعة – وكان سيداً في قومه – قال يوماً ، وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله ﷺ ، جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد ، فأكلمه وأعرض عليه أموراً ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ؟

وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ ، يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال

« يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً ، تنظر فيها لعلك تقبل مني بعضها »

فقال رسول الله ﷺ ، « قل يا أبا الوليد أسمع »

قال : « يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يداوى منه »

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : لقد فرغت يا أبا الوليد

قال : نعم

قال : فاسمع مني

قال : افعل

قال : (بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه) فصلت / ١ – ٥

ثم مضى رسول الله ﷺ ، يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه .

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة ، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك »

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به

فلما جلس إليهم قالوا : « ما وراءك يا أبا الوليد ؟ » قال : « ورائي أني سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة

يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به

قالوا : « سحرك والله ، يا أبا الوليد بلسانه »

قال : « هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم »

قد يقول قائل : إنه لو عرض على محمد ﷺ هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل . هذا القول ينقضه : أن عتبة كان مفوضاً من زعماء قريش ، وينقضه أيضاً الخبر الآخر الذي ترويه كتب السيرة

لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر ابن الحارث أخو بني عبد الدار ، وأبو البختري بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام عليه لعنة الله ، وعبد الله بن أبي أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج

السهميان ، وأمية بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض :

«ابعثوا إلى محمد فكلموه ، وخاصموه ، حتى تعذروا فيه» .

«فبعثوا إليه ، أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه»

وكان عليهم حريصاً ، يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم فقالوا له :

«يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك . لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا ، تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا – فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك !» فقال لهم رسول الله ﷺ :

«ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل علي كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله ، حتى يحكم بيني وبينكم»

هذا العزوف عن المجد والجاه عند الناس ، وعن المال والثراء ، وعن الدنيا كلها ، تؤيده حياته ، صلوات الله عليه ، من أولها إلى آخرها ، ويؤيده القرآن تأييداً حاسماً .

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما

كانوا يعملون [١]».

«من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحوراً) [٢]».

«اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو، وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) [٣]».

وعن جبير بن نفير رضي الله عنه قال: «دخلت على عائشة، رضي الله عنها، فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: القرآن».

وحقيقة الأمر: أن رسول الله ﷺ كان في كل ما يأتيه وفي كل ما يدعه قرآنا مطلقاً، ومن هنا كان قول الله سبحانه وتعالى: (وإنك لعلى خلق عظيم) القلم/٤.

كانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس: وأتى إليه صلوات الله عليه سبعون ألف درهم، فوضعها - كما يروى هارون بن رباب - على حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلا حتى فرغ منها».

«وبينما هو عائد من حنين تكاثرت الأعراب عليه يسألونه، وخطفوا رداءه، فوقف رسول الله ﷺ وقال: اعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاة شجر عظيم له شوك، نعما لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلا، ولا كذاباً، ولا جباناً».

ويقول، صلوات الله عليه، لأصحابه:

«مالي وللدنيا؟»

ويقول ﷺ:

«عرضت على الدنيا فأبيتها»

(١) سورة هود آية ١٥ - ١٦

(٢) سورة الإسراء آية ١٨.

(٣) سورة الحديد آية ٢٠

«ولقد كان رسول الله ﷺ كما يروى عن أنس رضي الله عنه أحب إنسان إلى الأنصار والمهاجرين ، ولكنهم كانوا إذا رأوه لا يقومون له لما يعرفون من كراهيته له : «أي القيام له» ويقول ﷺ لأصحابه :

«إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ؟ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء» ويقول ﷺ لأصحابه وهم جالسون حوله

«إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها»

إن الرسول صلوات الله عليه ما كان ليتطلع إلى الدنيا في مختلف جوانبها وهو يقرأ قوله تعالى

(زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب [1])

عزوفه ﷺ عن الدنيا إذن قضية هي من البداهة بحيث تتضح في النظرة الأولى كل دارس لسيرته ﷺ

وحينما رفعه الله إليه لم يترك الضياع والعمارات والبساتين ، ولم يترك الآلاف المؤلفة من الذهب والفضة ، وإنما ترك وراءه مبادئ الحق التي أوحاها الله إليه ، والتي مكث طول حياته يجاهد بقوله وعمله في سبيل إقامتها ونشرها ، ويكافح كفاحاً لا يهدأ ولا يفتر في سبيل تدعيمها ، وترك وراءه رجالا يؤمنون بهذه المبادئ ، ويثقون بأنهم مكلفون باعتبارهم من المسلمين بنشرها وإذاعتها بين أرجاء العالم أجمع ، وترك عبيراً يضوع رحمة ويشع نوراً ، مهما طالت الدهور وتطاولت الأزمنة

إنه ﷺ هو تلك الصورة الحية للتطبيق القرآني ، فكان ﷺ عازفاً عن الدنيا ما في ذلك من شك ، وكان عازفاً عن الدنيا بسعيه وراء الآخرة ، وعزمه المصمم على أن يكون فيما يأتي وفيما يدع مرضياً لله تعالى ، ومن كان كذلك كان صادقاً حتماً .

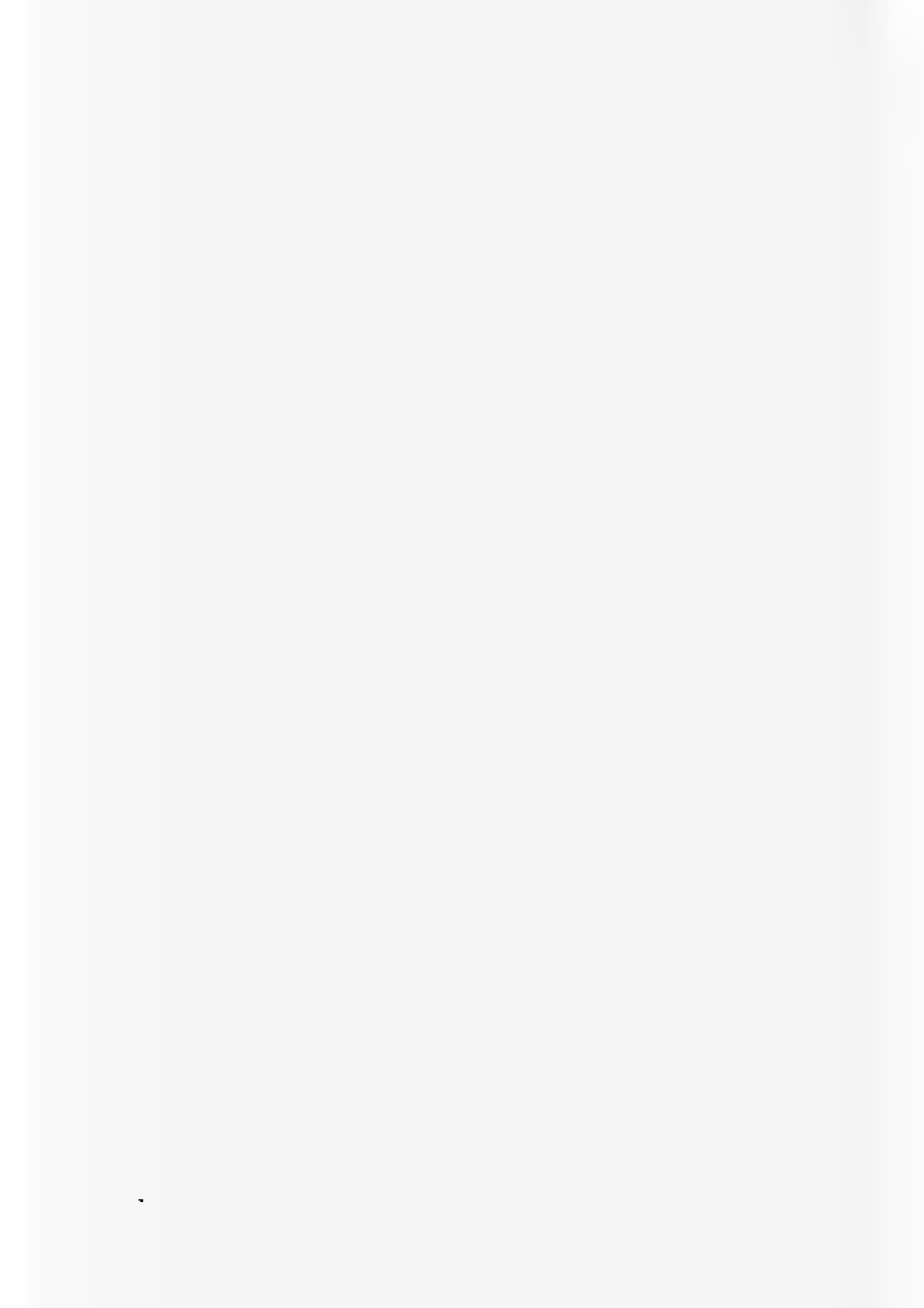
---

(1) سورة آل عمران آية ١٤

وعزوفه عن الدنيا من أقوى الأدلة على صدقه وعلى إخلاصه صلوات الله وسلامه عليه.

بيد أن هذا العزوف عن الدنيا، لا يعني إلا عدم تعلق القلب بها، ولكن السيطرة عليها وامتلاكها وتسخيرها في سبيل مرضاة الله، من واجبات كل مسلم، والمسلم مكافح دائماً في سبيل الله، ومن أجل مرضاته، وقد امتلك المسلمون الأول الدنيا، ودانت لهم المعمورة، وخضعت لهم مادة، فاستخدموا كل ذلك في الخير وإسعاد الإنسانية.

وقد تحدثنا فيما سبق عن الإسلام والعلم، وعن الإسلام وتسخير المادة، وقلنا إن ذلك عبادة.



الفصل الرابع

الإسراء والمعراج

وترقى به إلى قاب قوسـ ـين وتلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأماني حسرى دونها ما وراءهن وراء
ثم وافى يحدث الناس شكرا إذ أتته من ربه النعماء

يقول الله تعالى

(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ، لنريه من آياتنا : إنه هو السميع البصير[١])

ويقول تعالى :

(والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين ، أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى[٢]) .

هذه هي الآيات القرآنية عن الإسراء والمعراج .

أما الأحاديث النبوية فإنها كثيرة مستفيضة . ولقد رويت عن أكثر من ستة وعشرين صحابياً يكمل بعضها بعضا

ونحن هنا لا يعنينا أن نذكر الموضوع بكل تفصيلاته فإنه معروف عادة للمسلمين . وإنما الذي يعنينا أن نذكر على الخصوص الجانب الأخلاقي فيه .

وجانب المغزى منه

ولقد قدم ابن إسحاق – على حسب ما يروي ابن هشام – لحديث الإسراء بكلمة جميلة يقول فيها :

---

(١) سورة الإسراء آية ١

(٢) سورة النجم الآيات ١ – ١٨

« وكان في مسراه وما ذكر منه بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله ، في قدرته وسلطانه فيه عبرة لأولي الألباب ، وهدى ورحمة ، وثبات لمن آمن بالله وصدق ، وكان من أمر الله على يقين

فأسرى به كيف شاء ، وكما شاء ، ليريه من آياته الكبرى ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره ، وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد » .

ومجمل الأمر أن رسول الله ﷺ بينما كان نائماً أتاه جبريل ، فأيقظه ، وخرج معه ، فإذا أمامهما دابة بيضاء هي البراق ، وركبها رسول الله ﷺ . وسارت الدابة وجبريل معه - على حد تعبيره ﷺ « لا يفوتني ولا أفوته » حتى انتهى إلى بيت المقدس

فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء ، فأمهم رسول الله ﷺ ، وصلى بهم ، ثم أتي بإناءين في أحدهما خمر ، وبالآخر لبن ، فأخذ رسول الله ﷺ إناء اللبن ، وشرب منه ، وترك إناء الخمر فقال له جبريل

« هديت للفطرة ، وهديت أمتك ، وحرمت عليكم الخمر »

وتروى كتب السيرة أن رسول الله ، صلوات الله عليه ، أتاه ليلة الإسراء آت ففرج صدره ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً ، فأفرغه في صدره الشريف ، ثم أطبقه

ولما انتهى صلوات الله عليه من بيت المقدس عرج به إلى السماء ، وأخذ يرتقي سماء سماء ، ثم تجاوزها جميعها إلى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين أو أدنى ، وهناك حيا الرسول صلوات الله عليه ربه

(التحيات لله ، والصلوات والطيبات)

وحياه الله سبحانه وتعالى

(السلام عليك : أيها النبي ورحمة الله وبركاته) .

وقال الرسول ، صلوات الله عليه

(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) .

وفي هذه اللحظات الخالدة التي لا يتأتى أن توصف فرض الله سبحانه وتعالى الصلاة على الأمة الإسلامية

عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه الإمام أحمد، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لما كان ليلة أسري بي، وأصبحت بمكة فظعت بأمري، وعرفت أن الناس مكذبيّ».

قال: فمر عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له أبو جهل كالمستهزئ:

هل كان من شيء!

فقال رسول الله ﷺ: نعم

قال: ما هو؟

قال: إنه أسري بي الليلة

قال: إلى أين!

قال: إلى بيت المقدس

قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال: نعم

قال: فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحد الحديث، إذا دعا قومه إليه!

قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني!

فقال رسول الله ﷺ: نعم

فانطلق أبو جهل إلى قريش، فقال

هيا يا معشر بني كعب بن لؤي

قال: فانفضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما.

فقال أبو جهل: حدث قومك بما حدثتني

فقال رسول الله ﷺ: إني أسري بي الليلة.

قالوا: إلى أين؟

قال : إلى بيت المقدس
قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟
قال : نعم
فإذا بالقوم بين مصفق ، وبين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب فيما زعم
قالوا : وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد
فقال رسول الله ﷺ : « فذهبت أنعت ، فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت » .
قال : فجيء بالمسجد ، وأنا أنظر ، حتى وضع دون دار عقيل ، فنعته وأنا أنظر إليه
قال : فقال القوم : « أما النعت فوالله لقد أصاب »
وعن الحسن : أنه في يوم الحديث عن الإسراء ارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبي بكر ، فقالوا له :
هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟
يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلى فيه ، ورجع إلى مكة !
فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه
فقالوا : لا ، ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس .
قال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟
فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ ، فقال :
يا نبي الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم
قال : يا نبي الله ، فصفه لي فإني قد جئته !
قال الحسن : فقال رسول الله ﷺ : فرفع لي حتى نظرت إليه ، فجعل

رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ﷺ ، وكلما وصف له منه شيئاً قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله .
قال : حتى انتهى .

قال : رسول الله ، ﷺ لأبي بكر
وأنت يا أبا بكر : « الصديق » فيومئذ سماه : « الصديق »

هذا هو الهيكل الذي ترويه الكتب لهذا النبأ الجليل ، يسمعه قوم فلا يصل إلا إلى الجوانب الظاهرية منهم ، فيدخلون في الجدل الشكلي : أكان ذلك في اليقظة أم كان ذلك في النوم ؟ أكان ذلك بالروح والجسد ، أم كان بالروح فقط ؟
وهل كان ليلا أو كان نهاراً ؟

وهذه كلها صور من الجدل الذي يثور حيث يجف ورق الإيمان في النفوس .

ويسمع هذا النبأ قوم ، فيصل إلى أعماق قلوبهم ، فيتجهون في صورة طبيعية إلى مغزاه العميق ، وإلى روحانيته السامية ، ويرون أن هذا النبأ يطوى على توجيهات لا ينبغي أن يمر عليها الناس مر الكرام ، من هذه التوجيهات :

١ – لقد كان رسول الله صلوات الله عليه حلقة سلسلة من الأنوار التي يرسلها الله إلى العالم بين الفينة والفينة ، تهدى إلى الرشاد ، ولتقود إلى الله ، ولتسمو بالمؤمنين درجات في معارج القدس ؛ لتصل بالخيرين منهم إلى الكمال المرجو عن طريق الإرشاد الإلهي ، وكان الكتاب الذي أنزل عليه ، صلوات الله عليه ، وهو القرآن خاتم الكتب ، وأكملها ومهيمناً عليها .

ولأن الرسول ، صلوات الله عليه تخلق بأخلاق أكمل كتاب رباني ، فهو إذن أكمل رسول ﷺ

ومن هنا كانت إمامته صلوات الله عليه بالرسل والأنبياء في بيت المقدس ،

ولأنه صلوات الله عليه أكمل رسول ، كان من أجل ذلك أقرب المقربين إلى الله سبحانه وتعالى لقد تخطى الأرضين والسموات ، وتجاوز الكون كله ، ووصل إلى مالم يصل إليه بشر ، بل إلى ما لم يصل إليه جبريل نفسه عليه السلام ، لقد وصل صلوات الله عليه إلى « قاب قوسين أو أدنى » وكما أن المعنى الذي يدل عليه بأ

المعراج من وجود الأنبياء والرسل في السموات ، ومن أن الرسول صلوات الله عليه أخذ يتجاوز هذه السموات واحدة بعد الأخرى ، ويتجاوز الأنبياء واحداً بعد الآخر ، نقول : كما أن المعنى الذي يدل عليه النص معنى مكاني ، فإنه أيضاً – بل وبطريق أولى – معنى روحي ، أي أن الرسول صلوات الله عليه في تساميه الروحي في كل لحظة من اللحظات قد بلغ في معراجه درجات تجاوزت في روحانيتها آدم في سمائه الأولى ، ثم جاوزت يحيى وعيسى عليهما السلام في سمائهما الثانية ، ثم تجاوزت يوسف عليه السلام في سمائه الثالثة .

وهكذا حتى تجاوزت روحياً إبراهيم عليه السلام في سمائه السابعة ، ولقد تجاوزت كل ذلك وتجاوز الكون كله إلى سدرة المنتهى ، إلى شجرة النهاية ، إلى حيث لا يبلغ ملك مقرب ولا نبي مرسل

لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقام الرسول صلوات الله عليه !

ولكن بعض الناس نزل بنا من هذه الآفاق العليا والسموات السامية ومن الرحاب الإلهي ... ينزل بنا منحدراً ، فيجادل في الإسراء والمعراج ، أكان رؤية أم كان يقظة .. ؟

أستغفر الله ، وأتوب إليه !

إن ذلك الجدل ، إن دل على شيء – فإنما يدل على ضعف الإيمان في قلب المجادل .

وإذا كانت التوجيهات السابقة إنما كانت لتدل على مقام رسول الله صلوات الله عليه ، فتزداد بذلك تقديراً وحباً وإتباعاً ... فإن من هدى الله سبحانه وتعالى وتوجيهاته في نبأ الإسراء والمعراج ... هذه الرمزيات الأخلاقية التي تربط ربطاً محكماً بين الدين والأخلاق .

والواقع أن الأخلاق في جو الإسلام مرتبطة بالدين ارتباطاً لا ينفصل ... منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم ... وعنه تصدر . إنها جزء من الدين الإسلامي ... لا يتجزأ مصدرها هو مصدره ... إلهي رباني

وبعض الناس في العصر الحديث يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى

يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بيّن ، فالضمير يربى ويكوّن ، وتربيته وتكوينه هما شكله ، ونزعته واتجاهه الذي يتكيف حسب الثقافة والبيئة ، والعصر ، والوسط .

إن الضمير يصبغ كما تصبغ التربيات ، وهو إذن مقياس للأخلاق خاطئ .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة العامة ، ولكن المصلحة العامة كلمة غير محددة ، وكل من يتحدث باسم المصلحة العامة إنما يتحدث باسم فكرته هو منحرفة كانت هذه الفكرة أو غير منحرفة .

والمصلحة العامة إذن كأساس للأخلاق إنما هي أساس غير مضمون .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة الشخصية ، أو إلى اللذة أو إلى المنفعة . وكل هذا وارد الغرب الأوربي ، والغرب الأمريكي عندما انحرف هذا الغرب وألحد .

أما وارد الشرق الإسلامي أو بتعبير أدق ، وارد الإسلام الإلهي ، فإن مقياس الأخلاق فيه إنما هو المبادئ الدينية ، إنما هو آداب القرآن ، وإنما هو الفضائل التي وجهنا الله سبحانه وتعالى ، هذه الفضائل التي تحددها القرآن في أسلوب عربي مبين ، وتحدث عنها نبأ الإسراء والمعراج في صور رمزية دالة هادفة مؤثرة ، وبينتها السنة النبوية الشريفة .

سار رسول الله ﷺ في مسراه ، فمر على قوم يزرعون ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان .

فقال ﷺ لجبريل عليه السلام : ما هذا ؟

قال : هؤلاء هم المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين . ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء هم الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الضريع والزقوم ، ورضف جهنم !

فقال : ما هؤلاء ؟

قال : هؤلاء هم الذين لا يؤدون زكاة أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما ربك بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج طيب فى قدر طيب ، ولحم خبيث نىء فى قدر خبيث منجس، يأكلون من الخبيث النىء ويدعون النضيج الطيب

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال جبريل : هذا مثل الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتى امرأة خبيثة ، فيبيت عندها حتى يصبح ، ومثل المرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيبا ، فتأتى رجلا خبيثا ، فتبيت عنده حتى تصبح

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يريد عليها

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يزيد عليها

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم ، وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شىء !

قال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء خطباء الفتنة

قال : ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج ، فلا يستطيع !

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها ، فلا يستطيع أن يردها !

ثم أتى على واد فوجد فيه ريحاً طيبة باردة كريح المسك . وسمع صوتاً فقال ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول : رب آتني ما وعدتني ، فقد كثرت غرفي ، وإستبرقي ، وحريري ، وسندسي ، وعبقري ، ولؤلؤي ، ومرجاني ، وفضتي ، وذهبي ، وأكوابي ، وصحافي ، وأباريقي ، ومراكبي ، وعسلي ، ومائي ، ولبني ، وخمري ، فآتني ما وعدتني ! !

قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بي وبرسلي ، وعمل صالحاً ، ولم يشرك بي شيئاً ، ولم يتخذ من دوني أنداداً ، ومن خشيني ، فهو آمن ، ومن سألني فقد أعطيته ، ومن أقرضني جازيته ، ومن توكل علي كفيته ، إني أنا الله لا إله إلا أنا ، لا أخلف الميعاد ، قد أفلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن الخالقين

قالت : قد رضيت .

ثم أتى على واد ، فسمع صوتاً منكراً ، ووجد ريحاً منتنة !

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت جهنم تقول : رب آتني ما وعدتني ؛ فقد كثرت سلاسلي ، وأغلالي ، وسعيري ، وحميمي ، وضريعي ، وغساقي ، وعذابي ، وقد بعد قعري ، واشتد حري ، فآتني ما وعدتني

قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب

قالت : قد رضيت

فسار حتى أتى بيت المقدس

ومن الثمار التي جنتها الأمة الإسلامية ، والتي كانت من مقاصد إذاعة النبأ : انفصال ضعاف النفوس ، والشاكين والمترددين : انفصال كل هؤلاء عن الأمة الإسلامية الناشئة

لقد كفر عند سماع النبأ من كفر بعد إسلامه ، وارتد من ارتد بعد إيمانه .

وما كان هؤلاء لو بقوا إلا عاملا من عوامل الضعف أكثر من أن يكونوا عاملا من عوامل القوة

إن هؤلاء المكيين الذين نموا ، وصبروا على الحوادث القاسية ، على التعذيب وعلى الآلام ، وعلى الفتنة فى جميع مصادرها ، إن هؤلاء المكيين الذين صبروا وصابروا ، ومحصت أنفسهم من جميع النزعات المادية ، ومن جميع الأهواء فأصبحت خالصة لله وحده ، إن هؤلاء المكيين الذين كان فى تقدير الله سبحانه وتعالى أن تقوم عليهم الدولة فى نشأتها ، والذين من أجل ذلك ، يجب أن يكونوا مهيئين لأن يصمدوا لكل ما يمكن أن يعترضهم من عقبات ... إن هؤلاء المكيين ، يجب أن يصفوا تصفية تامة كاملة

ومن وسائل هذه التصفية إذاعة نبأ الإسراء والمعراج ، لينتكس من ينتكس وليبقى من يبقى عن بصيرة وبينة ، وعن إيمان لا تزعزعه مهما كانت الحوادث ، إيمان يصدق الرسول صلوات الله عليه فى كل ما يأتى به ، يصدقه بمجرد إتيانه

ومثل الأعلى فى كل ذلك إنما هو سيدنا أبو بكر حينما يعلن فى غير تردد ولا فتور

« لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه »

هذا الإيمان المطلق بالرسول هو الذى جعله صلوات الله عليه – يطلق على أبى بكر رضوان الله عليه « الصديق » ، و « الصديقية » مرتبة من مراتب الإيمان لا ينالها إلا من جاهد نفسه جهاداً تخطى به إيمان العامة ، وسما فى إيمانه درجة درجة إلى أن أصبح قائماً بالله متجهاً إليه ، عاملا على مرضاته فى جميع ما يأتى وما يدع

والأمة الإسلامية بأكملها مطلوب منها بالنسبة لأخبار رسول الله صلوات الله عليه أن تكون على غرار الصديق رضوان الله عليه ، تلقى بقيادها إلى أخباره وتسلم نفسها إلى أنبائه ، مصدقة تصديقاً كاملا ، تصديقاً يحملها على العمل ، وعلى اتباع كل ما جاء به ، وعلى الانتهاء عن كل ما نهى عنه ، تصديقاً إيجابياً يحقق للأمة

الإسلامية المجد الذى ترجوه ، تصديقاً يبنى على وجودها هؤلاء الذين انحرفوا مع المنحرفين ، واستجابوا لنداء أعداء الإسلام ، فأخذوا يشككون الناس فى أقوال الرسول ، صلوات الله عليه ، فى أحاديثه ، وفى سنته زاعمين أنهم من المجددين وما هم فى الواقع إلا أبواق من أبواق المستشرقين والمبشرين

إن هذه الأقلام التى تشكك فى السنة ، وفى الأحاديث النبوية ، ليست إلا أقلاما مقلدة للمستشرقين ، لا تحمل طابع الأصالة ، ولا طابع التجديد ، إنما تحمل طابع التقليد ، وطابع الشك والتردد الذى ينافى الإيمان ، وينافى التصديق.

أما ثمرة الإسراء والمعراج ، وأما هدية الإسراء والمعراج ، وأما أعظم المنح الإلهية فى الإسراء والمعراج أعظمها على الإطلاق ، أما النعمة العظمى ، والتجلى الإلهى الأكبر فى الإسراء والمعراج — فإنه الصلاة

ولا يتأتى لنا عجزاً وقصوراً أن نتحدث عن الحمد ، وعن الشكر عن هذه النعمة التى أنعم الله بها على الأمة الإسلامية فى هذه الليلة المباركة

فالصلاة هى الصلة به سبحانه ، وهى الكيفية ، وهى الطريقة ، وهى الوسيلة ، وهى اللحظات الجليلة التى تتم فيها الصلة وتتحقق

إنها فترة مناجاة ، فترة انقطاع كامل ويجب أن يكون كاملا عن عالم المادة ، وعن عالم الشهوات ، عالم الفتنة لتخلص النفس إلى المنعم ، حتى تنعم فى رحابه بسعادة الصلة به والقرب منه !

ومن أقام الصلاة فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين إن إقامة الصلاة أو إقامة الدين إنما هى إقامة الصلة بالله وتحقيق ذلك هو المثل الأعلى والغاية العظمى ، والسعادة الكاملة التى يجرى وراءها المؤمنون ، ليحققوا بها معراجهم نحو الله تعالى ، وما من شك فى أن الصلاة يقيمها الإنسان كما أراد الله ورسوله — من أنجع الوسائل فى القرب من الله ، إنها البراق الذى يجتاز به المؤمن فى سرعة سريعة طبقات البعد عن الله سبحانه ، ليصل إليه تعالى فينعم فى رحابه

هذه الزوايا ، وغيرها من عبر الإسراء والمعراج ، ومن توجيهات الله فيهما هى

التي يجب أن ننتبه إليها ، وأن نأخذ في تأملها والانسجام معها

إن الله سبحانه وتعالى أخذ يتحدث في سورة النجم عن الآفاق العلى وعن أجواء إلهية جليلة ، وعن مشارف من سمو ترتد عنها الأماني حسرى داهشة ، لقد أخذ سبحانه يتحدث عن سدرة المنتهى ، وعن جنة المأوى ، وعن آياته سبحانه الكبرى ، لقد أخذ سبحانه ، يتحدث عن

رتب تسقط الأماني حسرى   دونها ما وراءهن وراء

ثم ... ثم هوى بنا سبحانه ، في عنف عنيف ، هوى بنا في سرعة سريعة دون سابق إنذار ليفتح أعيننا على مهاوٍ ومهاوٍ من الشرك يضل فيها هؤلاء الذين هم كالأنعام أو أضل سبيلا ، فقال سبحانه بعد أن ذكر هذه التجليات الإلهية

(أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ؟) النجم/١٩ - ٢٠

لقد أراد سبحانه بهذه الكلمات للبشرية المسكينة في ضلالها الديني ، وفي انحرافها الذهني .

إن كل من يترك هذه الآفاق العلى ، ويتجاوزها ليتحدث عن أن الرسول ﷺ ، أسري به بجسمه وبروحه أو بروحه فقط ، أو أسري به يقظة ، أو مناماً — إنما هو سالك يتحدث بنفسه مختاراً من التجلي الإلهي : ليهوي بها منتكساً إلى جو اللات والعزى ، وينحدر بها منتكساً من جو سدرة المنتهى إلى جو المادي ، ومن مجالات النور السماوي المتلألئ إلى ظلمة الجدل وريح المهاترة في الدين

فلننصرف عنه ، ولنتركه وما اختار متعديين عن الجدل مع الممارين ، ولندع الله قائلين : (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب) آل عمران/٨ .

الفصل الخامس

هجرة

يالجلال الإيمان وثباته وقوته !

إن التاريخ نادراً ما يحدثنا عن هجرة خالصة مخلصة لله ولرسوله ، هجرة إلى مكان مجهول ، هجرة لا يدري المهاجر هل مهجره سيستقبله مرحباً ويؤويه في ألفة أو أنه سيقابله بالجفوة والعداوة ؟ هجرة لم يمهد لها الجو من قبل ، ولم يعد لها المكان إن التاريخ لا يكاد يحدث عن الهجرة بالإيمان ومن أجل الإيمان

ولكن التاريخ الإسلامي حافل بهذه الأنواع من الهجرة ، فإنه لما كثر المسلمون بمكة وظهر الإيمان ، وكثر الحديث عنه ثار ناس كثيرون من المشركين من كفار قريش على من آمن من قبائلهم ، يعذبونهم ، ويسجنونهم ، وأرادوا فتنتهم عن دينهم ، وتحمل المؤمنون العذاب ألواناً في سبيل الله .

ولما استمر الأمر دون فتور قال لهم رسول الله ، ﷺ ، شفقة عليهم ورحمة :

« تفرقوا في الأرض »

فقالوا : أين نذهب يارسول الله ؟

فأشار إليهم إلى الحبشة ، فهاجر إليها في بادئ الأمر طائفة من المسلمين ، منهم من هاجر مع أهله ، ومنهم من هاجر منفرداً

وأخذوا يعبدون الله مطمئنين آمنين على دينهم من الفتنة

ثم قدم بعضهم إلى مكة معتقداً أن الأمور قد هدأت فيما بين رسول الله والمشركين ، فلما قدموا إلى مكة اشتد عليهم قومهم ، وسطت بهم عشائرهم ، ولقوا منهم أذى شديداً

فأذن لهم رسول الله ، ﷺ ، بالخروج إلى أرض الحبشة مرة أخرى فكانت هجرتهم الأخرى مشقة ، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ، ونالوهم بالأذى ، وقال سيدنا عثمان ، رضي الله عنه مخاطباً رسول الله ﷺ .

يارسول الله ، فهجرتنا الأولى وهذه الأخرة إلى النجاشي ولست معنا !

فقال رسول الله ، ﷺ ، هذه الكلمة المؤثرة :

« أنتم مهاجرون إلى الله وإليَّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً »

قال سيدنا عثمان : « حسبنا يارسول الله »

وكان عدد هؤلاء المهاجرين من الرجال ثلاثة وثمانين رجلاً ، وكان عدد النساء ثماني عشرة امرأة .

ولم يرق لقريش أن يعبد الله هؤلاء القوم آمنين مطمئنين ، لم يرقها أنهم تخلصوا من التعذيب والفتنة ، فأرسلت وفداً من ساسة العرب الدهاة ، مزوداً بالهدايا إلى النجاشي ، ليعيدوا هؤلاء الموحدين إلى مكة ، لينزلوا عليهم العذاب من جديد !
(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)(١) .

ولم يفلح الوفد وعاد إلى مكة بخفي حنين .

ولما علمت قريش بذلك ثارت ثائرتها ، وزاد غضبها ، وأقدمت على عمل يتنافى تنافياً تاماً والإنسانية . فقد كتبوا كتاباً تعاهدوا فيه على ألا ينكحوا بني هاشم ولا يبايعوهم ، ولا يخالطوهم . وكان الكاتب للصحيفة هو منصور بن عكرمة العبدري ، وكان من تقدير الله تعالى أن شُلَّت يده !

وبهذه الصحيفة ، وهذا العهد - حصروا بني هاشم في شعب أبي طالب .

وكان ذلك في أول المحرم سنة سبع من نبوته صلوات الله عليه ، واستمر بنو هاشم منعزلين محصورين لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم ، حتى بلغ بهم الجهد مبلغاً خطيراً . وكانت قريش تسمع أصوات صبيانهم يتضاغون جوعاً ومسغبة ، فلا ترق قلوبهم ، ولا يتأثرون واستمر ذلك سنوات ثلاث .

وبينما هذه الأمور من الشدة والقسوة تجري تحت سمع الرسول وبصره كانت قريش ترسل له صلوات الله عليه من يعرض عليه المال والغنى والسلطان والجاه والملك بجميع ألوانها ، على أن يترك دعوته ، فلا يجدون إلى غايتهم سبيلاً .

وما ترك رسول الله ﷺ الدعوة قط ، كان يدعو ليلاً ، وكان يدعو نهاراً ، وكان يدعو في كل لحظة من لحظاته . يروي الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد ، وكان جاهلياً أسلم يقول :

---

(١) سورة آل عمران آية ٥٤

« رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول :

« يأيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » ويدخل فجاجها والناس متقصفون[1] عليه ، فما رأيت أحداً يقول شيئاً ، وهو لا يسكت يقول : يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا

أقام رسول الله ، ﷺ ، بمكة ثلاث سنين ، من أول نبوته ، مستخفياً ، ثم أعلن في الرابعة ، فأخذ يدعو الناس إلى الإسلام عشر سنين ، يوافى الموسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم في المواسم بعكاظ ومجنة وذي المجاز ، يدعوهم إلى أن يمنعوه ، حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد أحداً ينصره أو يجيبه ، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول :

« يأيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم العجم ، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة »

واستمر الأمر كذلك : لا يكف رسول الله عن الدعوة إلى الله ، ولا يكف المشركون عن المعارضة والإيذاء ، حتى كانت السنة الحادية عشرة من نبوته ، صلوات الله عليه . وكان الإسراء والمعراج فارتد من ارتد ، وثبت من ثبت ، وكان حدث الإسراء والمعراج هو حادث التصفية النكاملة ، وكان الفصل بين طائفتين طائفة مؤمنة ثابتة على إيمانها ، لا تزعزعها الأعاصير ، تمد الجبال ولا تميد ، وطائفة مشركة قد أحكمت أمرها ، ورتبت شئونها ، وصممت العزم على أن تقضي على الإسلام مهما طال الزمن

ولم يكد يعتنق الإسلام في هذه الفترة - فترة السنوات الثلاث التي سبقت الهجرة - مشرك من أهل مكة ، وفيها ثبت المسلمون على إيمانهم ثبات أولي العزم ، كانت هذه الفترة تربية للمؤمنين وصقلاً لهم ، وهي - وإن كان الرسول صلوات الله عليه لم يكف فيها عن الدعوة لحظة من اللحظات - كانت مع ذلك تربية قرآنية لرجال يؤهلهم الله ورسوله لحمل راية الإسلام ونشر دعوته

وإذا كانت المعسكرات قد تحددت ، في مكة ، وإذا كانت الفترة من الإسراء

---

(١) مجتمعون ومزدحمون

إلى هجرة الرسول صلوات الله عليه – كانت فترة تربية وصقل وتعليم وتهذيب – فإن الإسلام في هذه الفترة لم يكن قد وقف راكداً ، بل بالعكس قد هيأ الله له وسيلة الانتشار خارج مكة ، لقد ضم الرسول في معسكره المكي كل عناصر الخير بمكة . ولم يبق فيها – في الطرف المقابل – إلا من لا يحسم أمره عن طريق الدعوة ، وإنما عن طريق آخر . ولم كان هناك من مناص من مغادرة مكة للعودة إليها من جديد في ظروف مهيأة ، وبوسائل ملائمة ، لقد هيأ الله الأمر لانتشار الإسلام خارج مكة .

ويقول ابن سعد في الطبقات

« أقام رسول الله ﷺ بمكة ما أقام يدعو القبائل إلى الله ويعرض نفسه عليهم كل سنة بمجنة وعكاظ ومنى أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة ، فلم تستجب له قبيلة من العرب ، ويؤذى ، ويشتم ، حتى أراد الله إظهار دينه ، ونصر نبيه ، وإنجاز ما وعده ، فساقه إلى هذا الحي من الأنصار لما أراد الله بهم من الكرامة »

وكانوا ستة نفر ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فأسلموا ووعدوه أن يلاقوه في العام القادم

ولما عادوا إلى المدينة نشروا الإسلام في قومهم فأسلم من أسلم ، وكثر في المدينة الحديث عن الإسلام .

فلما كان العام الذي يليه حضر اثنا عشر رجلاً ، فبايعوا الرسول كما تحدثوا بذلك عن أنفسهم – « على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف »

قال فإن وفيتم فلكم الجنة ، ومن غشي من ذلك شيئاً كان أمره إلى الله إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه »

إن هذه البيعة بيعة فضيلة وخير ، إنها بيعة على العمل بالمثل الأخلاقية العليا ونشرها

وانظر إلى الدقة في قوله ولا نعصيه في معروف إنه لم يقل ولا نعصيه وسكت ، وإنما قيد ذلك بقوله « في معروف » وحاول أن تتأمل وثيقة البيعة

هذه ، فستقر – لا مناص – مآلها وثيقة إلهية

وعاد المسلمون إلى المدينة بأخلاق أخرى ، ووجوه عليها نور الإسلام ، وبقلوب انغمست في محيط الرحمة ، وأخذوا يدعون إلى الله مبشرين ومنذرين

ثم عادوا في العام التالي ، وهم سبعون أو يزيدون رجلا أو رجلين ومعهم امرأتان والتقوا ورسول الله ، صلوات الله عليه ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، ليس معه أحد غيره

قال أسعد بن زرارة فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال يامعشر الخزرج ، إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه ، ومحمد من أعز الناس في عشيرته يمنعه والله منا من كان على قوله ، ومن لم يكن منا على قوله ، يمنعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بمعاداة العرب قاطبة ، سترميكم عن قوس واحدة فارتئوا رأيكم وائتمروا أمركم ، ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع ، فإن أحسن الحديث أصدقه

فقال البراء بن معرور قد سمعنا ما قلت ، وإنا والله لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ، ﷺ

قال . وتلا رسول الله ﷺ عليهم القرآن ، ثم دعاهم إلى الله ورغبهم في الإسلام وذكر الذي اجتمعوا له

فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق ثم قال : يارسول الله ، بايعنا فنحن أهل الحلقة [1] ورثناها كابراً عن كابر

فقال العباس بن عبد المطلب وهو آخذ بيد رسول الله ﷺ أخفوا جرسكم [2] ، فإن علينا عيوناً وقدموا ذوي أسنانكم ، فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإنا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالّكم .

فتكلم البراء بن معرور فأجاب العباس بن عبد المطلب ، ثم قال ابسط يدك

(١) أهل السلاح.　(٢) كلامكم وصوتكم

يارسول الله ، فكان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ - فيما يقال - البراء ابن معرور

ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه ، فقال رسول الله ﷺ :

إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً ، فلا يجدن أحد منكم في نفسه أن يؤخذ غيره ، فإنما يختار لي جبريل »

فلما تخيرهم قال للنقباء : « أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل » على قومي »

قالوا : نعم . .

فقال رسول الله ﷺ : « انفضوا إلى رحالكم »

فقال العباس بن عبادة بن نضلة : يارسول الله ، والذي بعثك بالحق لئن أحببت لنميلن على أهل منى بأسيافنا ، وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيره

فقال رسول الله ﷺ : « لم نؤمر بذلك ، فانفضوا إلى رحالكم »

ولما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعة وقوماً أهل حرب وعدة ونجدة

وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين ، فلما ضاقوا بالأمر ذرعاً ، شكوا إلى رسول الله ﷺ ، واستأذنوه في الهجرة ، فقال لهم « قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهي : « يثرب » فمن أراد الخروج فليخرج إليها

وأخذ المسلمون يهاجرون سراً بادية عليهم آثار تربية الرسول ﷺ من الثقة بالله ، والصبر ، وتحمل المشاق في سبيل دينهم ، وتوطين النفس على أن يكونوا في جميع أحوالهم من جنود الله ، مهاجرين إليه ليعمل على إعلاء كلمته ، ونشر دينه ، ولو كره الكافرون

وما كانت الهجرة قط في نظر الرسول ﷺ ولا في نظر أصحابه ركوناً إلى الدعة والهدوء ، أو ميلاً إلى الراحة والسكون ، وإنما كانت محاولة مصممة على قيادة المعركة في سبيل الله من جهة أخرى .

وأخذ المسلمون يهجرون إلى الله ورسوله ، يهاجرون سراً جماعات أو فرادى ،

حتى لم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعلي ، رضي الله عنهما ، أو مريض ، أو عاجز عن الخروج

وعندئذ آن لرسول الله ﷺ أن يهاجر

هاهو ذا رسول الله ﷺ على مشارف مكة ينظر إليها على أمل وثقة من أنه سيعود إليها مبشراً بدين الله عاملاً على أن يعم كل بيت فيها .

ولما أوشكت أن تغيب عن نظره ودعها بهذه الكلمات المؤثرة

« والله ، إنك لأحب البلاد إلى نفسي ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت » .

ثم مضى هو والصديق إلى غار ثور فدخلاه ، ولما علم المشركون بالأمر ثارت ثائرتهم ، ووطنوا العزم على ألا يفلت المهاجران إلى الله من تكبيلهم

لقد كانوا قد دبروا قتل الرسول ﷺ ، وما كانوا يأبون قط بقتل رجل أن يقول : ربي الله !

ولقد كانوا أحكموا التدبير لقتله قبل أن يخرج ، ووضع مشروع المؤامرة أبو جهل ، وعرضها على الوضع التالي :

أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً نهداً جلداً ، ثم نعطيه سيفاً صارماً ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل جميعاً فيقبلوا الدية فنعطيهم إياها .

(ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)[1] .

دخل رسول الله ﷺ هو وأبو بكر الغار مختفيين ، وكان سيدنا أبو بكر حزيناً حزناً على الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فجاء النداء الإلهي على لسان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يملؤه ثقة وتفاؤلا (لا تحزن ، إن الله معنا)[2]

ولما سمع سيدنا أبو بكر خفق نعال المشركين أمام الغار وأصواتهم الصاخبة التي تعلن عن سخطهم وغيظهم لمكوث قال : لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه

---

(١) سورة آل عمران آية ٥٤

(٢) سورة التوبة آية ٤٠

لأبصرنا ويبتسم رسول الله صلوات الله عليه ، ويقول : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » .

ولما انتهى الطلب ، وعاد المشركون من حيث أتوا — خرج رسول الله ﷺ هو ورفيقه ، وكان خروجهما من الغار ليلة الاثنين لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول .

وبينما هما في الطريق لحق بهما سراقة بن مالك مدججاً بالسلاح على فرس تسابق الريح ، ليأسرهما حتى يفوز بالجائزة التي وعد بها المشركون من يأتي بالرسول ﷺ قتيلاً أو أسيراً .

فلما دنا منهما دعا عليه رسول الله ﷺ ، فساخت قوائم فرسه ، فقال : يا محمد ادع الله أن يطلق فرسي وأرجع عنك وأرد من ورائي ، ففعل ، فانطلق ورجع فوجد الناس يلتمسون رسول الله ﷺ ، فقال : ارجعوا فقد استبرأت لكم ما ههنا ، وقد عرفتم بصري بالأثر فرجعوا عنه .

وسار الركب تحفه رعاية الله وعنايته ، حتى وصل إلى المدينة ، حيث استقبل بـ :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وكان من أوائل الأعمال التي قام بها رسول الله صلوات الله عليه في المدينة :

١ — بناء المسجد ، المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم .

٢ — المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، تحقيقاً لمبدأ من مبادئ الدين الإسلامي يتمثل في قوله تعالى :

(إنما المؤمنون إخوة)[1] .

ربح قوم جمعوا بينا بأرض ألفته صبابها والظباء
وسلوه وحن جذع إليه وقلوه ووده الغرباء

(١) سورة الحجرات آية ١٠

أخرجوه منها وآواه غار ... وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت ... ما كفته الحمامة الحصداء
واختفى منهم على قرب مرآ ... هُ ومن شدّة الظُّهور الخفاء
ونحا المُصْطَفَى المَدينة واشتا ... قتْ إليه من مكة الأنحاء

الهجرة من زاوية أخرى

الهجرة حقيقة تاريخية ورمز روحي جميل يعبر خير تعبير عما يجب أن يكون عليه المسلم في كل فترة من فترات حياته ، بل في كل نفس من أنفاسه ونريد أن نتحدث الآن عن الهجرة كرمز عن الهجرة الروحية ، عن الهجرة التي لا ترتبط بزمان ولا بمكان والهجرة بهذا المعنى الذي يتجاوز الواقع التاريخي ، ويتجاوز الزمان والمكان قد وردت في الأحاديث النبوية الشريفة وفي القرآن الكريم

يقول رسول الله صلوات الله عليه فيما رواه البخاري رضي الله عنه

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »

هذا المعنى الروحي نتبينه في وضوح سافر فيما يلي

يقول الله تعالى :

(إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم)(١) .

وفي هذه الآية الكريمة يصور الله تعالى إخراج الكفار للرسول ، صلوات الله عليه ، من مكة ، وهجرته مستخفياً في جنح من الليل مفارقاً البلدة التي ولد بها ، والتي بها عشيرته وقومه ، إلى بلد يجد فيها حرية الدعوة إلى الله

يصور الله ذلك بأنه انتصار ، ومن الطريف أن الله تعالى يصوره بأنه انتصار في

---

(١) سورة التوبة آية ٤٠

الوقت الذى كان فيه الرسول صلوات الله عليه ، مختبئاً فى غار هو والصديق رضوان الله عنهما ، والمشركون بخيلهم ورجلهم وعدتهم وعتادهم منتشرون فى كل مكان يبحثون عنهما جاهدين للتنكيل بهما .

وما من شك فى أن الهجرة كانت انتصاراً مبيناً ، لأنها فرار إلى الله ، والفرار إلى الله انتصار ، حتى لو انتهى بالموت أو القتل .

(والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ، وإن الله لهو خير الرازقين[1]) .

ونحن مأمورون بالفرار إلى الله ، أى بالهجرة إليه (ففروا إلى الله ، إنى لكم منه نذير مبين)[2] وسيدنا إبراهيم عليه السلام قال : (إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم)[3] وقال (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين)[4] والفرار إلى الله ، والهجرة إليه ، والذهاب إليه ، من صفات المؤمنين الصادقين : إنهم يفرون إلى الله ويهاجرون إليه (يوميا) فهو هدفهم وغايتهم فى جميع أعمالهم ، وإذا كانت هجرة بعض الناس إنما هى إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها فهجرة المؤمن الصادق خالصة لله وحده ، متمحضة لوجهه الكريم ، وإذا ما كانت كذلك كان الله معه ، يقول صلوات الله عليه للصديق : (لا تحزن إن الله معنا) التوبة/٤٠ ذلك أن هجرتهما كانت لله رب العالمين لا شريك له . ومن كان كذلك فإن الله ينزل عليه السكينة : أى طمأنينة النفس والرضا ، ويؤيده بجنود لا تراها الأعين ، فيدخله فى نطاق رعايته ، ويشمله بجميل عنايته ، ويضفى عليه من توفيقه ورضاه ما يجعله قرير النفس ، هادئ البال سعيداً ولو ألقى فى النار لأنه لم يشعر بها إلا برداً وسلاماً .

وقد نظم الله للمؤمنين أمر الهجرة إليه تعالى .

وأول مرحلة فى سبيل الهجرة إليه سبحانه : إنما هى النية الخالصة لوجهه الكريم ، يقول صلوات الله عليه :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى : فمن كانت هجرته إلى الله

---

(١) سورة الحج آية ٥٨
(٢) سورة الذاريات آية ٥٠ .
(٣) سورة العنكبوت آية ٢٦
(٤) سورة الصافات آية ٩٩

ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »

فإذا ما توجهت النية بالأعمال إلى الله تعالى كانت الأعمال هجرة إليه ، أما إذا لم تتوجه النية إليه فإن الأعمال — ولو كانت خيراً في ظاهرها ؟ تكون هباء منثوراً ، ومن هنا يتبين المؤمنون حقاً فساد الأفكار التي يروجها الخائلون عن النهج الديني الصحيح من أمثال قولهم : إن العلم للعلم ، أو الفن للفن ، أو الخير للخير ، أو الخير لإرضاء الضمير ! إن كل ذلك يدل على عدم الفهم السليم للروح الدينية الصحيحة ، وهو أيضاً خطر على المجتمع ، لأن العلم والفن إذا لم يتجه بهما أصحابهما إلى الله أمسيا وغايات تحرفت بهما الإرادات والنيات إلى الشر والإفساد ، فتشقى بهما الإنسانية بدل أن تسعد .

أما الخير فإن معرفته معرفة حقيقية لا يتأتى إلا عن طريق الدين ، وقد حاولت العقول — مستقلة عن الدين — تحديده فتعارضت وتضاربت ولم تصل إلى نتائج ، والمؤمن إذن يهاجر إلى الله بعلمه — ويهاجر إليه بفنه ، ويهاجر إليه بعمله الخير .

على أن العبادات الإسلامية على تعددها واختلافها إنما هي تنسيق وتنظيم لأنواع وألوان من الهجرة إلى الله تسمو بالمؤمن صعداً إلى الصلة بالله ، وإلى النعيم في رضوانه ، وإلى السعادة في رحابه — فالصلاة فرار من الدنيئة والحو والمادة إلى الوقوف بين يدى الله — ومناجاته — لحظة من الزمن — فهى هجرة إلى الله

والزكاة انفصال عن جزء من المادة تقرباً إلى الله فهى ذهاب إليه

والصوم ابتعاد عن المادة فترة من الزمن ، تزكية للنفس ، وقربى إلى الله ، فهو ذهاب إليه .

أما مناسك الحج فإنها صور من التجرد لله بلغت الذروة والسنام ، وتبلورت في النداء الروحي الكريم « لبيك اللهم لبيك »

وختاماً فإن الصورة التامة الكاملة للهجرة الإسلامية الكبرى — إنما تتمثل في أروع مظاهرها في قوله تعالى

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك

أمرت وأنا أول المسلمين)[١]

يقول صلوات الله عليه « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » جهاد في كل ميادين الجهاد ، ونية خالصة طاهرة متمحضة لله ورسوله .

في هذه الهجرة نذكرى أيها الإخوة المؤمنون فإن فيها الخير كله

والله الموفق

---

(١) سورة الأنعام آية ١٦٢ ، ١٦٣

الفصل السادس

الجهــــاد

إن رسول الله ﷺ الذي كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه والذي كان في كثير من الأحيان يواصل في الصيام هو الذي يقول « والذي نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل »

وهو القائل « من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق »

إن النبي العابد هو نبي المكافح، وإن نبي الرحمة هو نبي الجهاد. وما كان الجهاد قط في الإسلام إلا في سبيل الله، فإذا ما خرج عن سبيل الله لم يكن إسلامياً، وكل ما في سبيل الله إنما هو رحمة.

وليس من شأننا أن نتحدث عن الغزوات سرداً وترتيباً وتفصيلاً، وإنما نذكر منها عبراً، حتى ننتهي إلى فتح مكة.

وأول ملاحظة هي أن الرسول العابد لم يتزحزح في غزوة قط. وكان الأبطال يتراجعون والصناديد من المهاجرين والأنصار يفرون أحياناً، ولكنه صلوات الله عليه يثبت ثبات الجبال الراسيات، لا يتزحزح عن موقفه، ولا يزول عن مكانه، وقد ثبت في مكانه في غزوة أحد التي غلب فيها المسلمون، وكان المشركون فيها يودون بكل ما استطاعوا أن يقضوا عليه، صلوات الله عليه

ووقف ثابتاً في غزوة حنين، وقد فر المسلمون، على كثرتهم يومذاك، وكيف يمكن أكمل رجل في الوجود أن يفر وأن يتراجع وهو أوثق الناس بالله وبرسالته ؟

ولقد كان واضحاً فيه صلوات الله عليه ما يقوله سيدنا علي، وهو من هو بطولة وفروسية « كنا إذا حمي الوطيس أي الحرب اتقينا برسول الله ﷺ أي احتمينا به وفيه، فيكون أقربنا إلى العدو »

وكان صلوات الله عليه مع التجائه إلى الله تعالى – يدعوه ويستغيث به، ويستنجزه وعده بالنصر – يحكم الأمر إحكاماً، بحيث لا يدع فيه ثغرة. هكذا كان أمره في جميع أموره. لقد نظم الجيش في غزوة بدر تنظيماً محكماً، ثم اتجه إلى

الله يدعوه ، وكان دائماً متفائلاً ، حتى لو كان العدو عشرة أمثال المسلمين

لقد كان المشركون فى غزوة بدر ثلاثة أمثال المسلمين ، فهزمهم المسلمون بإذن الله .

وكان انهزام المسلمين فى غزوة أحد شذوذاً فى القاعدة . وما كان ذلك إلا لأنهم خالفوا متأولين أوامر الرسول ﷺ ، غير أن تفاؤله صلوات الله عليه لم يفارقه لحظة ، إذ إنه بعد أن انهزم المسلمون فى غزوة أحد مباشرة أمرهم صلوات الله عليه بلم شعثهم ، وتضميد جراحهم ، والاستعداد فوراً لخوض المعركة من جديد .

ومن مظاهر تفاؤله صلوات الله عليه أنه فى غزوة الأحزاب ، وقد تجمع الشرك من جميع أرجاء الجزيرة ، يسانده اليهود والغادرون ، ليقضوا على الإسلام فى المدينة : ليقضوا عليه ديناً ، ويقضوا عليه دولة ، ويقضوا عليه عقيدة ، ويقضوا عليه رجالاً ، وقد كان المسلمون يعملون فى حفر الخندق حماية لهم ، ومنعاً من وصول العدو إليهم فى هذه اللحظة الحرجة : يروى البراء بن عازب رضى الله عنه القصة التالية ، على حسب ما رواه الإمام أحمد .

« أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق ، فعرضت لنا صخرة فى مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول ، فشكوها إلى رسول الله ﷺ ، فجاء ثم هبط إلى الصخرة فأخذ المعول ، وقال :

باسم الله ، فضرب ضربة ، فكسر ثلث الحجر وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى ، هذا ثم ، قال باسم الله ، وضرب ثانية ، فكسر ثلث الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر المدائن ، وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا ، ثم قال : باسم الله ، وضرب ضربة ثالثة فقطع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا »

وأشاع هذا التفاؤل الثقة والاطمئنان فى المسلمين ، وإن كان قد دعا إلى السخرية فى وسط المشركين والوثنيين الذين قالوا : إن محمداً يعدهم ويمنيهم وهم لا يأمنون على أنفسهم الآن .

هذا التفاؤل وهذه الثقة في الله لم تفارق الرسول قط في كفاحه الطويل الدائب الذي استمر إلى نهاية حياته الشريفة .

وغزوة فتح مكة ترتبط بآيات مباركات هي :

(بسم الله الرحمن الرحيم . إنا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا)[1] .

إن آيات الفتح هذه : نزلت في أثناء عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية ، نزلت تسلية للمسلمين ، وقد حزنوا لصدهم عن دخول مكة حاجين ومعتمرين ، مع أنهم كانوا على أبوابها . وقد نزلت تشير إلى فتح مكة وتبشر به . ولقد أوحاها الله إلى رسوله ليلاً ، فلما أصبح صلوات الله عليه قال : لقد نزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ قوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحا مبيناً) .

وهذه الآيات الكريمة : لا تكاد تنبئ عن فتح مادي حربي ، وإنما هي تشير - على الخصوص - إلى الآفاق العليا من الرضوان الإلهي . إنها وثيقة تسجل الثقة المطلقة التي شملت الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، والتي سمت برسول الله ، صلوات الله عليه إلى مستوى الرضا عن كل ما يأتي وما يدع .

إنها بشرى من الله بفتح مبين ، وغفران شامل ، وإتمام كامل للنعمة ، وهداية وقيادة دائمة مستمرة ، ونصر عزيز . وهذه منح إلهية عامة ، لا تفسر بالماديات وحسب ، وإنما تفسر أيضاً ومن باب أولى : بالمعاني الروحية في أسمى صور التجليات الإلهية . اللهم لك الحمد والشكر . ولذلك فإننا حينما نتحدث عن فتح مكة لا تحتل المسائل الحربية المكانة الأولى من الموضوع ؛ وإنما الذي يحتل ذلك إنما هو المثل العليا ، من الصور الأخلاقية النبوية ، والسمو الإنساني الممثل في الرحمة المهداة من الله تعالى إلى الإنسانية : أي في سيدنا رسول الله صلوات الله عليه .

ومهما يكن من شيء فإن قريشاً نقضت عهد الحديبية الذي كان يفرض الهدنة

---

(١) سورة الفتح الآيات : ١ - ٣ .

بينها وبين رسول الله صلوات الله عليه . وكانت فرصة مواتية لأن يركز الله تحكم رسول الله ﷺ ، فى أمر قريش

أما آن لقريش أن تسلم وجهها لله ، وأن توحده ، ولا تشرك به شيئاً ؟

(إنَّ الشرك لظلم عظيم)[1]

أما آن لقلوبهم أن تخشع لذكر الله ، وما نزل من الحق ؟

لقد دعا سيدنا إبراهيم فى رحاب مكة ربه مبتهلاً ضارعاً قائلاً :

(ربَّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم)[2]

وها هو ذا رسول الله ﷺ قد بعثه الله إليهم بهدى السماوى ، فهل استجابت قريش لهدى السماء ؟

وهذا البيت العتيق الذى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل قائلين : (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)[3] هذا البيت الذى عهد الله لإبراهيم وإسماعيل أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود هذا البيت قد احتلته الأصنام ، والتفت حوله ، وارتفعت على جوانبه معلنة – فى وقاحة سافرة – الشرك بالله

لابد من تحطيم الأصنام ، وتطهير البيت ، لابد من أن تسلم قريش وجهها إلى الله .

وصمم رسول الله ﷺ فى عزم لا يلين على أن يمحو الشرك وآثاره من معقله الحصين (أعنى مكة) وأن يطهر البيت من جديد للطائفين والعاكفين والركع السجود . وعبثاً حاول أبو سفيان – الذى أرسلته قريش سفيراً بينها وبين الرسول – أن يجدد العهد الذى نقضته قريش ، ولم يجد أبو سفيان – برغم دهائه ولباقته – عوناً من أحد ، حتى ولا من ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله التى بلغ بها النفور من الشرك أن طوت فراش رسول الله ﷺ ، حتى لا يجلس عليه أبوها – زعيم المشركين وحامى الشرك فى مكة – فلما سألها مستفسراً : أرغبت به عن الفراش أم رغبت

---

(١) سورة لقمان آية ١٣
(٢) سورة البقرة آية ١٢٩
(٣) سورة البقرة آية ١٢٧

بالفراش عنه؟ قالت هو فراش رسول الله، وأنت مشرك نجس! فانصرف مغضباً قائلاً: «والله لقد أصابك من بعدي شر» ولحظ أبو سفيان، فما أصابها شر، ولكنها كراهية الشرك.

وعبأ رسول الله صلوات الله عليه القوى وخرج يوم الأربعاء بعد العصر لعشر ليال خلون من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة، حتى إذا كان بالكديد، واجتمع الناس إليه أخذ إناء فشرب منه ثم أفطر، فأفطر الناس، من قبل الرخصة، فإن رسول الله ﷺ قبلها. ومن صام فإن رسول الله ﷺ صام.

حتى إذا بلغ صلوات الله عليه «مر الظهران» وهو مكان بالقرب من مكة أمر الجيش بالإفطار، لأنه فيما يبدو يوشك أن يخوض المعركة الفاصلة بين الشرك والإيمان.

وعسكر الجيش في مر الظهران، ولما رآه أبو سفيان وكان قد أسلم منذ ساعات، قال، بعقليته الجاهلية، للعباس: يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقال العباس، بعقليته الإسلامية: ويحك! إنه ليس بملك، ولكنها نبوة، قال أبو سفيان، نعم. وتوجه رسول الله نحو مكة محذراً من إراقة الدماء ولما قال سعد بن عبادة، وهو أحد قادة الجيش: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة» عزله النبي ﷺ. فقد كان رسول الله صلوات الله عليه يريد أن يكون اليوم يوم المرحمة.

ودخل رسول الله صلوات الله عليه مكة دون مشقة، وكان أول ما فعل أن طاف بالبيت سبعاً. ودخل البيت، فرأى فيه صور الملائكة بهيئة النساء، ورأى إبراهيم عليه السلام مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها، فقال: قاتلهم الله، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام! ما شأن إبراهيم والأزلام؟.

(ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين)(1)

وأمر بطمس الصور كلها، وعمد إلى الأصنام، فحطمها مردداً قوله تعالى

(1) سورة آل عمران: ٦٧

(جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً)[1]

وإذا كان رسول الله ﷺ قد حطم الأصنام المادية فإنه من قبل ذلك ومن بعد ذلك قد حطم كل صنم يعبد من دون الله . وبين أن الرياء شرك ، والهوى شرك ، والخضوع للشهوات شرك . وكلّ عمل لا يقصد الإنسان به وجه الله فإنه من أعمال الشرك وفي هذا اليوم تملكت الرحمة نفس رسول الله ، صلوات الله عليه .

فإنه حينما اجتمعت قريش إليه نظر إليهم وقال : يامعشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ فقالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . فقال وهو يبكي : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

أقول لكم ما قاله أخي يوسف لإخوته :

(لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين)[2]

فكان هذا اليوم حقّاً يوم المرحمة .

وبالله التوفيق

---

(١) سورة الإسراء آية ٨١

(٢) سورة يوسف آية ٩٢

الفصل السابع

النبي العابد

ألِفَ النُّسكَ والعبادةَ والخَلْـ ـوةَ طفلاً وهكذا النُّجباءُ
وإذا حلّتِ الهدايةُ قلباً نَشِطَتْ في العبادةِ الأعضاءُ

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أول آية نزلت من القرآن الكريم إنما هي

(اقرأ باسم ربك الذي خلق) العلق آية ١ ولقد كانت هذه الآية الكريمة بوضعها ومفهومها وجوها شعاراً عاماً وتوجيهاً شاملاً . فما كانت تعني بروحها القراءة فحسب . وإنما كانت تعني أنه منذ هذه اللحظة يجب أن يكون كل أمر باسم الله فعلاً كان هذا الأمر أو تركاً

ولقد تأكد هذا الاتجاه ، وأصبح سفراً فيما بعد ، بل لقد أصبح من الأوامر المفروضة على المسلم ، يقول الله تعالى لرسوله ، ﷺ .

(قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)[1] .

على أن المسألة أشمل من ذلك وأعم إذ كان يتأتى الشمول والعموم بعد هذا بأن الله سبحانه قد ذكر في قرآنه الكريم أنه ما خلق الجن والإنس إلا للعبادة يقول سبحانه

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[2]

فغاية الخلق العبادة . وسبب الخلق العبادة ، والثمرة التي يجب أن يعمل الإنسان على تحقيقها إذن إنما هي العبادة . ومن هنا كانت التوجيهات المتوالية للعبادة

(أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً وقل

---

(١) سورة الأنعام آية ١٦١ – ١٦٣
(٢) الذاريات ٥٦

رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا)[١]

(واسجد واقترب)[٢] .

(واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)[٣] .

(واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم)[٤]

وما من شك في أن الله سبحانه لا تضره معصية ، ولا تنفعه طاعة ، إنه سبحانه الغني المطلق ، والمانح المطلق ، والمعطي المطلق ، إنه سبحانه الوهاب ، الرزاق الغني إنه القائم بنفسه ، وغيره هو المحتاج .

وما كانت العبادة إلا لأجل تكميل الإنسان فمن فضل الله على عباده — أن فتح لهم باب التكمل على مصرعيه عن طريق العبادة ، ففائدة العبادة راجعة إلى العبد نفسه ، فضلا من الله ورحمة ، إنها راجعة إليه في الدنيا ، وراجعة إليه في الآخرة ، ويشمل الوجهين قوله تعالى .

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)[٥] .

ومن عناية الله بالأمة الإسلامية ، وبرسوله الكريم أن أول كلمات من الوحي كانت توجيهاً للرسول وللمسلمين بأن تكون أعمالهم كلها عبادة . لأن ما كان باسم الله كان عبادة ، ولو كان أكلاً أو شرباً مثلاً

واستجاب الرسول صلوات الله عليه لهذا التوجيه السامي الذي توالى منذ الأيام الأولى للرسالة ، واستمر طيلة الوحي

إن الرسول صلوات الله عليه حينما فاجأه الوحي ، عاد يرجف فؤاده إلى منزله الطاهر ، وقال : زملوني زملوني — نزل عليه قوله تعالى :

---

(١) سورة الإسراء الآيات ٧٨ - ٨٠

(٢) سورة العلق آية ١٩

(٣) سورة الحجر آية ٩٩

(٤) سورة الطور آيتا ٤٨ ، ٤٩

(٥) سورة الطور آيتا ٤٨ ، ٤٩

(يأيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً)(1)

ثم يقل له سبحانه: يأيها المزمل، لا تخش بأساً، أو يأيها المؤمن، لا تروع من [illegible] من عند الله، وربما كان أقدر على رحمة الفؤاد أمراً بالعبادة

وكذلك الشأن في كل ما يعترض المسلم من ضيق أو كرب [illegible] أمر بالعبادة مثل

(فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى)(2)

وهنا علق سبحانه الرضا وطمأنينة النفس، وسكينة الفؤاد على التسبيح والذكر والعبادة. ويشير الله إلى ذلك أيضاً فيقول

(فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود)(3)

واستجاب الرسول صلوات الله عليه استجابة كاملة للتوجيه الإلهي فجعل من كل ألوان الحياة عبادة، إذ إنه كان يعملها باسم الله. لقد جعل صلاته، ونسكه، وجعل حياته كلها، بل ومماته أيضاً لله رب العالمين. لقد جعل كلامه، وصمته، وجعل حركته وسكونه، وجعل نومه ويقظته بل جعل أنفاسه عبادة لله سبحانه، فكان ذلك توجيهاً به إلى الله، فكان عبادة له. وهذه الاستجابة الكاملة هي التي جعلت من رسول الله صلوات الله عليه أول المسلمين.

أوليس منذ أن خلق الله العالم إلى أن يطوى الله الأرض وما عليها، باعتبار أن الدين عند الله – منذ الأزل إلى الأبد – إنما هو الإسلام

لقد صير الرسول صلوات الله عليه الحياة كلها عبادة لا تفتر

وإذا استحالت إلى عبادة فقد استحالت إلى قوة، أرأيت حينما جعل من الجهاد عبادة، ومن العمل عبادة، ومن العلم عبادة، ومن الكفاح عبادة، ومن السعي

(1) سورة المزمل الآيات 1 – 4

(2) سورة طه آية 130

(3) سورة ق آيتا 39، 40

على المعاش عادة ، ومن ، ومن . ؟ هل يضعف المجتمع أو يقوى ؟ » وهل يأمن أهله أو يخافون ؟ وهل يسعدون أو يشقون ؟

مهما يكن من شيء فقد استجاب الرسول صلوات الله عليه استجابة تامة لما أراد الله سبحانه وتعالى . ولقد تحدث الله عن هذه الاستجابة ذاكراً لها فقال سبحانه

(إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه)[1]

ونذكر الآن بعض الأحاديث التي تصور هذا الجانب من حياة الرسول صلوات الله عليه ، ومن وراء إيضاح هذا الجانب من حياته صلوات الله عليه أهداف

١ - تأسي المسلمين به قدر الاستطاعة

٢ - رضاء النفوس وطمأنينة الأفئدة ، من الناحية النفسية . فليس هناك من علاج للشك والحيرة والتردد يعادل في نجاعته العبادة والنصيحة المجربة التي تسدى لشاك إنما هي « صلِّ » .

« فالصلاة خير علاج للاضطراب الديني ، من للاضطراب النفسي أياً كان ومتى وجدت النفس المطمئنة . والنفس المطمئنة لا وسيلة لوجودها إلا بالعبادة فإن الكثير من الأمراض الجسمية نفسها يرون بقرار أطباء الأجسام أنفسهم . ثم إنه بقرار أطباء الأجسام أيضاً لا يكون الإنسان المطمئن عرضة لما يتعرض له غير المطمئن من أمراض جسمية .

٣ - وهذه الأسوة بالرسول ، صلوات الله عليه ، التي نرجوها ستكون أيضاً سبباً في تفريج الضيق المادي

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . .)[2] .

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)[3] .

---

(١) سورة المزمل آية : ٢٠

(٢) سورة الأعراف آية ٩٦

(٣) سورة النحل آية ٩٧

وهذه الأحاديث التي ذكرناها ليس فيها حديث ضعيف ومع أن الأحاديث الضعيفة يعمل بها في فضائل الأعمال ، فإننا قد تحرينا تحرياً كاملاً ألا نذكر فيما يلي - إلى آخر الكتاب - حديثاً ضعيفاً

الصلاة

عن السيدة عائشة رضي الله عنها : « أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه » .

فقلت له : لم تصنع هذا يارسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

قال : « أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً ؟ »

أما عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقد قال :

« صليت مع النبي ﷺ ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء

قيل : وما هممت به ؟

قال : هممت أن أجلس وأدعه »

ولعل لابن مسعود ، رضي الله عنه عذره فقد كان صلوات الله عليه يقرأ في الركعة الأولى مثلاً سورة البقرة ، وفي الثانية آل عمران ، وفي الثالثة سورة النساء ، وكان يطيل القيام ويطيل الركوع ، ويطيل السجود . كان يطيل كل ذلك حينما كان يفعله منفرداً في جوف الليل

أما إذا كان مع الناس فإنه يخفف .

وقد ورد في السنة الصحيحة أطال الرسول صلوات الله عليه القراءة في الركعات التي يصليها في الليل ، وبسبب هذه الإطالة كانت هذه الركعات لا تتجاوز إحدى عشر ركعة

« عن عائشة رضي الله عنها : كان النبي ﷺ يصلي من الليل إحدى عشرة ركعة ، فإذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين ، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يجيء المؤذن فيؤذنه » .

وكان الرسول صلوات الله عليه ، يستغرق فى صلاته الليلية ويبكى

ويقص مطرف بن عبد الله عن أبيه قال

« أتيت النبى ﷺ وهو يصلى ، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل يعنى يبكى »

وللصلاة أهمية أكبر يوضحها الرسول صلوات الله عليه بقوله

« إن بين الرجل وبين الشرك والكفر : ترك الصلاة »

وكان صلوات الله عليه يتوضأ لكل صلاة .

عن أنس رضى الله عنه قال :

« كان رسول الله ﷺ يتوضأ لكل صلاة قيل له : كيف كنتم تصنعون ؟ قال : يجزى أحدنا الوضوء ما لم يحدث » .

والأحاديث التالية تبين بعض أحوال الرسول صلوات الله عليه فى الصلاة

كان عند الإقامة يقول

« أقامها الله وأدامها » .

« وكان ﷺ إذا قام إلى الصلاة طأطأ رأسه »

قالت عائشة ، رضى الله عنها : « لم يكن ﷺ على شىء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر »

عن سماك بن حرب قال : « قلت لجابر بن سمرة : أكنت تجالس رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، كثيراً ، كان لا يقوم من مصلاه الذى يصلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام » .

« وكان ﷺ يدخل فى الصلاة ، فيريد إطالتها ، فيسمع بكاء الصبى ، فيتجوز فى صلاته مخافة أن يشق على أمه »

وكان ، ﷺ يقرأ سورة « الجمعة » فى الركعة الأولى و « إذا جاءك المنافقون » فى الثانية

عن جبير بن مطعم قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب (والطور)

« وكان صلوات الله عليه » يقرأ فى المغرب . (والمرسلات عرفا) وإنها لآخر ما سمعته من رسول الله ، ﷺ

وعن أم هاشم بنت حارثة بن النعمان قالت: «ما أخذت «ق، والقرآن المجيد» إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس».

«وكان صلوات الله عليه يقرأ في صبح الجمعة «ألم تنزيل» السجدة، و«هل أتى على الإنسان حين من الدهر» رواه الشيخان من حديث أبي هريرة، وإنما كان يقرؤهما كاملتين وقراءة بعضهما خلاف السنة.

كان ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة: «سبح اسم ربك الأعلى» و«هل أتاك حديث الغاشية».

وكان «يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي».

«وكان صلوات الله عليه يقول بين التشهد والتسليم: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت».

«وفي السجود يقول صلوات الله عليه: اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

«وعن حذيفة كان يقول ﷺ في ركوعه: سبحان ربي العظيم، وفي سجوده: سبحان ربي الأعلى».

«وعن عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي يتأول القرآن» رواه مسلم، ومعنى يتأول القرآن يعمل بما به كما في قوله تعالى: (فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابا)[1] فكان ﷺ يقول هذا الكلام البديع في الجزالة، المستوفى ما أمر به في الآية.

---

(١) سورة النصر آية ٣

الصيام

أما إذا جئنا إلى رمضان وإلى الصيام على وجه العموم فالأحاديث التالية توضح بعض الأمر ، كما أن أحاديث الصلاة التي رويناها إنما بينت إشارات ولمحات فقط ، فكذلك الأمر في أحاديث الصيام

فرض رمضان في السنة الثانية من الهجرة ، فتوفى سيدنا محمد رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات

عن عائشة رضي الله عنها « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل ، وأيقظ أهله وجد وشد المئزر »

وعنها قالت « كان ﷺ ، يجتهد في رمضان مالا يجتهد في غيره ، وفي العشر الأخيرة مالايجتهد في غيرها »

« كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله تعالى » .

« كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يوماً » .

« إذا دخل العشر الأخيرة طوى فراشه ، واعتزل النساء ، واغتسل بين الأذانين ، وجعل العشاء سحوراً »

« روى البخارى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه صلوات الله عليه واصل ، فواصل الناس ، فشق ذلك عليهم ، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يواصلوا ، قالوا إنك تواصل ؟ قال لست كهيئتكم إني أظل أطعم وأسقى »

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « كان رسول الله ﷺ لايفطر الأيام البيض في حضر ولا سفر ، وهي ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة » .

وعن حفصة رضي الله عنها « أربع لم يكن النبي ﷺ يدعهن صيام عاشوراء ، والعشر أي تسع ذى الحجة — والأيام البيض من كل شهر ، وركعتا الفجر » .

«كان صلوات الله عليه يتحرى صيام يوم الإثنين والخميس».

«كان النبي ﷺ يصوم ثلاثة أيام من غرة كل شهر»

الذكر.

«لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»

وعن عائشة رضى الله عنها، قالت: «كان صلوات الله عليه يذكر الله على كل أحيانه».

«مثل الذى يذكر ربه والذى لايذكره – مثل الحى والميت»

وأفضل الذكر: – قراءة القرآن

«ومن قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»

«إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب».

«اقرءوا القرآن، فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

وبينما جبريل عليه السلام قاعداً عند النبى ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، ولم ينزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»

ولأن لا إله إلا الله أساس التوحيد، وتعبير عن التوحيد، وقد ذكرت بلفظها ومعناها فى القرآن على أنحاء شتى قال صلوات الله عليه: «أفضل الذكر لا إله إلا الله»

عن أبى موسى، رضى الله عنه قال: «قال لى رسول الله ﷺ: ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟».

فقلت: بلى، يارسول الله

قال : لاحول ولا قوة إلا بالله »

« قال رسول الله ﷺ . لقيت إبراهيم ﷺ ليلة أسري بي فقال : يا محمد ، أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غرسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »

وكان ، صلوات الله عليه يقول بأعلى صوته : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لاحول ولا قوة إلا بالله ، لاإله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن الجميل ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون »

« من قال لا إله إلا الله وحده ، لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه ».

وقال : « من قال : سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة ، حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر »

« إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لأصحابه : لامبيت لكم ولا عشاء ، فإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله قال الشيطان : أدركتم المبيت ، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه ، قال : أدركتم المبيت والعشاء ».

« الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله ، والحمد لله تملآن أو تملأ مابين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس تغدو : فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ».

« إن أحب الكلام إلى الله : سبحان الله وبحمده »

« لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس »

«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن
سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

الدعاء

وقال صلوات الله عليه وسلامه: «الدعاء هو العبادة».
أما أحسن أوقات الدعاء فإن الأحاديث التالية تذكر بعضها
«أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء، فقمين أن
يستجاب لكم».

«قيل لرسول الله ﷺ أي الدعاء أسمع؟ قال: جوف الليل الآخر، ودبر
الصلوات المكتوبة».

«دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، وعند رأسه ملك موكل كلما
دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل».

«لايزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم، مالم يستعجل، قيل:
يارسول الله، ما الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوت، وقد دعوت فلم أر
يستجيب لي فيستحسر عند ذلك ويترك الدعاء».

«ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه
من السوء مثلها، مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم. فقال رجل من القوم: إذن
نكثر، قال: الله أكثر».

«كان صلى الله عليه وسلم يحب الجوامع من الدعاء، ويدع ماسوى ذلك».

ومن جوامع دعائه مايلي

«أتاه رجل فقال: يارسول الله، كيف أقول حين أسأل ربي؟ قال: قل:
اللهم اغفر لي، وارحمني، وعافني، وارزقني، فإن هؤلاء تجمع لك دنياك
وآخرتك».

ومن جوامعه ﷺ :

« اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار »

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : دعا رسول الله ﷺ بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً

فقال : ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله ؟ تقول : اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ ، وأنت المستعان ، وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله اهـ .

« اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق ، والأعمال والأهواء »

« اللهم ألهمنى رشدى ، وأعذنى من شر نفسى »

عن شهر بن حوشب ، قال : قلت لأم سلمة رضى الله عنها : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك ؟

قالت : كان أكثر دعائه : يامقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك اهـ .

« اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » .

« اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » .

« اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، واجعل لى نوراً » .

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار »

ومن أدعيته ، صلوات الله عليه فى الصلاة

« عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ : علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى .

قال : قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ،

فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

« وكان صلوات الله عليه يقول بين سجدتين : اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، واهدنى ، وعافنى ، وارزقنى »

عن معاذ رضى الله عنه أن الرسول ﷺ أخذ بيده وقال : يامعاذ ، والله إنى لأحبك . ثم أوصيك يامعاذ ، لاتدعن فى دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك »

وعند الإفطار فى الصوم

« الحمد لله الذى أعاننى فصمت ، ورزقنى فأفطرت » .

« اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فتقبل منى ، إنك أنت السميع العليم » .

عند الكرب :

« ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث »

وعند الكرب أيضاً

« لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم »

فإذا كان الكرب شديداً فيحسن أن يكرر الإنسان دعاء الرسول ﷺ عند عودته من الطائف ، وهو من روائع بيانه ، ودقيق مناجاته

« اللهم ، إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولاقوة إلا بك »

وإذا خاف قوماً قال : « اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم »

لسداد الدين

« ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ لو كان عليك مثل جبل دين أداه الله عنك ؟ قل اللهم اكفني بحلالك عن حرامك ، وأغنني بفضلك عمن سواك »

وعند الخروج من البيت

« عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قال إذا خرج من بيته : باسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له : هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان »

وعند النوم واليقظة

« إذا أخذ أحدكم مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول : اللهم باسمك أموت وأحيا .

وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

وعند الأكل

« الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة »

وعند لبس الجديد :

« اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » .

وإذا رأى الهلال :

« اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ، ربي وربك الله هلال رشد وخير » .

وعندما ينتهي المجلس ، ويتفرق الحاضرون يقول

« سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

وعندما يودع شخصاً :

« كان رسول الله ﷺ ، يودعنا فيقول : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك »

الفصل الثامن

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

من هديه صلوات الله عليه في سبب بعثته

« إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق »

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

« إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق »

« بعثت بالحنيفية السمحة » هـ.

أما هو صلوات الله عليه فإنه رحمة مهداة إلى العالم.

« أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة »

« تعلمون أني رحمة مهداة ، بعثت برفع قوم ، ووضع آخرين » رفع من اتبعوه عند الله ، ووضع أمثال أبي جهل وأتباعه من المشركين والملحدين . ووضعهم عند الله وفي ميزان التقوى . . على أنه :

« ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله يبغض الفاحش البذيء »

والأخلاق لا وزن لها بدون الإخلاص . ومن هديه صلوات الله عليه في ذلك : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »

« إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم . ولكن إلى قلوبكم »

« دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة »

قوله : يريبك : هو بفتح الياء وضمها ، ومعناه : أترك ما تشك في حله واعدل إلى ما لا تشك فيه »

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به . فعرفه نعمه فعرفها .

قال فما عملت فيها ؟

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت

قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار

ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟

قال : تعلمت العلم ، وعلمته ، وقرأت فيك القرآن

قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارئ فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقى في النار

ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟

قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار

ومن هديه في موقف المسلم بالنسبة للمنكر يراه

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »

ومن المنكر : السبع الموبقات .

اجتنبوا السبع الموبقات

قالوا : يارسول الله ، وماهن ؟

قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات ، المؤمنات الغافلات » متفق عليه . الموبقات : المهلكات .

ومن هديه صلوات الله عليه فيما يتعلق بصلة المسلم بأخيه المسلم

« لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه »

«لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم»

«مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»

«المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضاً»

«كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وعرضه ، وماله»

«عن أبي بكرة ، رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال في خطبته يوم النحر بمنى ، في حجة الوداع : إن أموالكم وأعراضكم ودماءكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟»

«سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر»

«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قلت : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟

قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»

«المسلم أخو المسلم ، لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه ، وماله ، ودمه ، التقوى ههنا ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم !»

«المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»

«من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»

«ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»

«وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم

إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

«ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » ا . هـ .

«من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه »

«كان رجل يداين الناس وكان يقول لفتاه إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله يتجاوز عنا . فلقي الله فتجاوز عنه »

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى له على مدرجته ملكاً ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية . قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟ قال : لا ، غير أني أحببته في الله تعالى . قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدني ، قال : يارب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟

يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني ؟ قال : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟

يا ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقني ؟ قال : يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدي فلان ، فلم تسقه ! أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي ؟

ومن هديه صلوات الله عليه في العلم

«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على

سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» .

«من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»

وبالنسبة للمرأة .

«لايخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولاتسافر المرأة إلا مع ذي محرم»

فقال له رجل : يارسول الله ، إن امرأتي خرجت حاجة ، وإني كتبت في غزوة كذا وكذا ، قال : انطلق فحج مع امرأتك»

«لايخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم»

ومن هديه صلوات الله عليه وسلامه في الجهاد

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ـ مات على شعبة من النفاق» .

«قال رسول الله ﷺ تضمن الله لمن خرج في سبيله لايخرجه إلا جهاد في سبيلي ، وإيمان بي وتصديق برسلي ، فهو ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر وغنيمة ، والذي نفس محمد بيده ، ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم ، لونه لون دم ، وريحه ريح مسك ، والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ماقعدت خلف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولايجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني ، والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله ، فأقتل ، ثم أغزو فأقتل»

«والكلم الجرح»

الفصل التاسع

من توجيهات القرآن الكريم

١

يقول الله تعالى في كتابه العزيز

(لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين)[1]

وآيات القرآن كثيرة في هذا المعنى تؤكد كلها أن بعثة الرسول ﷺ كانت نعمة من نعم الله العظمى من الله سبحانه على جميع المؤمنين ، وأن هذا الفضل من الله سبحانه وتعالى إنما هو منة كريمة من لدن رب كريم :

ذلك أن هذا الرسول ﷺ إنما هو لسان صدق في تبليغ آيات الله ، فهو يتلوها على المؤمنين ، إنه يتلوها عليهم بعد أن تلاها على نفسه ، ووعاها وتشربتها روحه ، فانطبع بها وعاشها ، ومن أجل ذلك كان هذا الرسول ﷺ مصدر تزكية لهم إنه وقد أصبح طابعه آيات الله أصبح من أجل ذلك مصدر تزكية بالمثال والقدوة والتأسي للمؤمنين

لقد تزكى بآيات الله ، ولقد زكته آيات الله ، وإنه يتلوها ، ويحياها : فهو يبشر بها بقوله ، أو بتلاوتها ، ويبشر بها بمسلكه ، فهو بقوله يتلوها ، وهو بمسلكه يرسمها

ويعلمهم الكتاب ، إنه لا يتلو فحسب ، وإنما يعلم أيضاً ، إنه يشرح ويفسر ، ويطبق ، ويقوِّم تطبيق الآخرين إذا انحرفوا ، إنه يعلم القرآن

وهو يعلم القرآن بعد أن انطبع به ، وبعد أن أصبح هو قرآناً ، لقد أصبح فكره قرآناً ، وأصبحت عواطفه قرآناً ، وأصبحت إرادته قرآناً !

ولقد عبرت عن ذلك السيدة عائشة رضوان الله عليها خير تعبير وأحصره حينما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت رضوان الله عليها : «كان خلقه القرآن»

---

(١) سورة آل عمران آية ١٦٤

وما كان يتأتى أن يكون غير ذلك ، وكلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها إنما هى كلمة بديهية عند كل متبصر فالقرآن كان يظل مبادئ يعتقد الناس أنها مجرد مبادئ نظرية يستحيل تحقيقها فى الخارج لو لم تطبق فعلاً ، ولو لم تتحقق واقعياً ، وكان لابد من أن تتحقق بالفعل ، وكان لابد من صورة حية تتمثل فيها هذه المبادئ تتمثل فيها ذاتياً ، وتتمثل فيه من جهة تطبيقه على الغير ، وقيادة الغير إلى الأخذ بها فى صورة تقترب منها بقدر الاستطاعة

ولو لم يكن الأمر كذلك لظل الناس يؤمنون بأنها مجرد مبادئ .

بيد أن هذه الصورة الخالدة للأخلاق - كما يحب الله سبحانه لبنى الإنسان قد تحققت بالفعل حققها رسوله الكريم ﷺ ، وحققها فى ذاته ، وحققها فى مجتمعه حققها سلوكاً ، وحققها واقعياً هو فى نفسه على أكمل مايكون التحقيق تطبيقاً فى مجتمعه على الصورة التى تستدعيها هذا المجتمع

ونقول على الصورة التى استدعاها هذا المجتمع ، لأن لكل نظام من النظم حداً أدنى لايتأتى أن يكون النظام بدونه ، وحداً أسمى يتسامى نحوه المخلصون

لقد تحققت الصورة الإسلامية فى حدها الأسمى فى الرسول ﷺ ، وكان بذلك - بنص القرآن أول المسلمين

ونرسم الآيات القرآنية .

كيف ؟ ولم كان الرسول ﷺ أول المسلمين ؟ يقول الله تعالى :

(قل : إن صلاتى ونسكى ، ومحياى ومماتى ، لله رب العالمين ، لاشريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين)[1]

لقد كانت أعماله ، وحياته كلها ، بل ومماته ، لقد كان كيانه كله حركة وسكوناً ، حياة وموتاً ، لله رب العالمين فكان بذلك أول المسلمين

ولقد تحققت الصورة على تفاوت لاينزل عن حدها الأدنى فى آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم .

لقد وجد المجتمع الإسلامى بالفعل :

---

(١) سورة الأنعام آية ١٦٢ ، ١٦٣

ولقد انتهى بحث فكرة هؤلاء ممن رووا فى الماضى ، أو يرون فى الحاضر أن الإسلام مبادئ لا تطبق ، مبادئ نظرية ، مبادئ خيالية يستحيل تطبيقها

لقد تحقق الإسلام بالفعل ، فوجد مجتمعاً أسلم نفسه لله . وإن مجتمعاً يسلم نفسه لله لا يتأتى أن تتمحض الإنسانية عن خير منه

هذا المجتمع الذى وجد إنما كان ثمرة جهود الرسول ﷺ وكفاحه فى أن يخرج بالفعل الصورة التى أوحاها الله إليه ، فقد كان أثراً لتلاوة الرسول ﷺ آيات الله ولبركة الرسول ﷺ لمن حوله ، ولتعليمه القرآن ، ولتعليمه صلوات الله عليه القرآن لمن حوله

وتشربت روح رسول الله ﷺ القرآن ، وامتلأت به ، وصفت صفائه وزكت به ، واستنارت بنوره ، فصاغت الحكمة أثراً من آثار الهداية التامة ، ونتيجة للنور يغمر القلب ، وللسناء يتلألأ فى الفؤاد ، فكان الرسول ﷺ يعلم الكتاب ، ويعلم الحكمة ، وما الحكمة إلا أحاديث الرسول ﷺ ينير بها قلوباً ، ويرشد بها عقولاً ، ويقود بها عباد الله إلى الله . وكما أن الكتاب من عند الله فإن الحكمة أيضاً من عند الله ، يقول الله تعالى

(وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة، وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما)[1]

وما كان رسول الله ﷺ ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، فآيات الله نور ، وكتاب الله يعلمه ، والحكمة التى أنزلها على قلبه ينطق بها

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه

فذكر الله الكتاب ، وهو القرآن وذكر الحكمة . فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول . الحكمة سنة رسول الله .

وهذا يشبه ما قال ، والله أعلم

لأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة ، وذكر الله منة على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة فلم يجز ، والله أعلم ، أن يقال الحكمة هاهنا إلا سنة رسول الله .

(١) سورة النساء آية ١١٣

وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله ، وأن الله افترض طاعة رسوله ، وحتم على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال لقول . فرض إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقروناً بالإيمان به

وسنة رسول الله مبينة عن الله معنى ما أراد دليلاً على خاصه وعامه ، ثم قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها إياه ، ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله

هذه الصورة التي ترسمها الآية الكريمة التي صدرنا بها هذا المقال هي الصورة التي تمناها سيدنا ابراهيم ودعا الله ، سبحانه حينما كان يرفع القواعد من البيت وإسمعيل فقال عليه السلام

(ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم)[1]

ولقد صادفت دعوة سيدنا إبراهيم ماقدره الله أزلاً . لقد وافقت التقدير الإلهي الأزلي الذي أراد سبحانه به أن يكمل الدين ويتم النعمة على المؤمنين ، وأن يكون خاتم الأديان هو الدين الأزلي الخالد الذي لادين سواه ، والذي يرتضيه الله ولايرضى غيره وهو الإسلام

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)[2]

(إن الدين عند الله الإسلام)[3]

ولايتأتى في عرف المنطق ، وفي منطق الحق ، وفي بداهة العقول أن يكون الدين الخالد شيئاً آخر غير إسلام الوجه لله .

ومادام الرسول ﷺ أول المسلمين ، ومادام الدين عند الله هو الإسلام فالرسول إذن أول المتدينين على الإطلاق إنه وصل إلى الدرجة التي سبق بها جميع من مضى ، وسبق بها جميع أبناء عصره ، وسبق بها من سيأتي بعد ، إنه أول المسلمين في الماضي البعيد ، والماضي الذي يبتدئ منذ بدء الإنسانية .

(١) سورة البقرة آية ١٢٩
(٢) سورة المائدة آية ٣
(٣) سورة آل عمران آية ١٩

وما من شك في أن آدم عليه السلام كان مسلماً ، ولكنه لم يكن أول المسلمين .
ولقد كان نوح مسلماً ، ولكنه لم يكن أول المسلمين ، وهكذا كان الأنبياء جميعاً ،
صلوات الله وسلامه عليهم من المسلمين ، ولكن لم يكن أحد منهم أول المسلمين .
وما كان يتأتى أن يكون أحدهم أول المسلمين ، لأن الدين الذي جاءوا به صلوات
الله عليهم وسلامه - وإن كان إسلاماً - إن الصورة الكاملة التامة للإسلام إنما هي
القرآن :

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه)[1]

ويقول سبحانه : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم)[2]

وهو أول المسلمين في الحاضر ، وهو أولهم في المستقبل إلى أن تتبدل الأرض غير
الأرض والسموات ، وإلى ما بعد ذلك من آباد الله السرمدية . صلوات الله
وسلامه عليك ياسيدي يارسول الله

٢

يقول الله تعالى عن طابع الرسالة الإسلامية وعن طابع الرسول ﷺ :

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[3]

لقد كان إرسال الرسول ﷺ رحمة إذا نظرنا إلى الرسالة الإسلامية وكان
إرساله رحمة إذا نظرنا إلى شخصيته يقول صلوات الله وسلامه عليه

(إنما أنا رحمة مهداة)

لقد كان رحمة مهداة من حيث الرسالة ، وكان رحمة مهداة من حيث
الذات

لقد كان ينتسب صلوات الله وسلامه عليه إلى الرحمن رسالة ، وينتسب إلى
الرحمن صفات ، وكان ينتسب إلى الرحيم رسالة ، وينتسب إلى الرحيم صفات ،

---

(١) سورة المائدة آية ٤٨

(٢) سورة الزمر آية ٥٥

(٣) سورة الأنبياء آية ١٠٧

به رسالة وصفات سير في حياته بسم الله الرحمن الرحيم مشيراً الله الرحمن الرحيم إنه نبي الرحمة وإنها رسالة الرحمة . والله سبحانه وتعالى قد ربى رسوله على عينه ، واصطنعه لنفسه ، فنشأه على الرحمة ، فهو صلوات الله عليه وسلامه رحمة منذ ميلاده

وإننا إذا أردنا تعبيراً مجملاً جامعاً لمعنى الرحمة التي اتصف بها نبي الرحمة فإننا نجده في وصف السيدة خديجة رضوان الله عليها للرسول ﷺ حينما فجاءه الوحي وحدثها به وقال لها : «لقد خشيت على نفسي» .

فقالت رضي الله عنها فوراً

كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

إن هذا الوصف الصادق للرسول ﷺ إنما يعبر في كل جملة من جمله عن الرحمة وهو وصف اتسم به الرسول ﷺ طيلة حياته ولا بد القرآنية

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[1] لا تخصيص فيها ، لا من ناحية نوع الرحمة ، ولا من ناحية موضوع الرحمة ، ويشرح هذه الآية في شمولها وعمومها . يشرحها في دقة وفي عمق موقف كريم من موقف التوجيه النبوي لقد كان الرسول ، ﷺ ، يتحدث عن الرحمة ، ويدعو إليها ، ويعرف بمنزلتها من الدين ، فقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم «إنا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهلينا»

فلم يرض هذا القول رسول الله ﷺ لأنه فهم قاصر محدود لا ينبغي أن يكون عاماً شاملاً ، إنه تقييد للمطلق ، ولذلك رد عليه الرسول ، ﷺ ، بقوله «ما هذا أريد إنما أريد الرحمة العامة»

وما من شك في أن من الرحمة رحمة الأزواج ، والأولاد ، والأهل وقد حث على ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه

بيد أن ما أراده الرسول ﷺ إنما هو أن تتغلغل الرحمة في الكيان الإنساني كله حتى تصبح ، وكأنها من فطرته وطبيعته وجبلته ، فيكون الإنسان وكأنه قبس من

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٧

الرحمة لازمة يبثها إذا سار، ويبثها إذا جلس، ويبثها أينما كان. ويبثها حيثما حل.

وإذا كان كذلك فإنه يكون قد حقق الطابع العام للرسالة الإسلامية رحمة للعالمين.

ولقد حقق الرسول ﷺ، هذا الطابع بقوله، وحققه بعمله، ولقد كانت الرحمة، وهي طابع للرسالة الإسلامية هي طابع تصرفاته. ونظرة إلى الحادثة الآتية الحادثة التي نزل فيها قوله تعالى (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة)[1] وهي لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعون وأسر سبعون استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم، والعشيرة والإخوان. وإني أرى أن نأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان (قريب لعمر) فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل، فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه يعني العباس، فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة في ميل للمشركين.

أما رأي الرسول ﷺ فقد كان معروفاً، يعرفه كل من عرف رسول الله وعرف طابعه، وعرف صلة هذا الطابع بطابع الرسالة الإسلامية، إنه أخذ الفدية. وقد كان أبو بكر رضي الله عنه مثل الناس في الاقتداء برسول الله ﷺ فكان اتجاهه من اتجاه رسول الله ﷺ.

وهذا الاتجاه لم يرفضه القدر أيده الله سبحانه بل زاد عليه حتى خير رسوله، فيما بعد بأنه إذا وضعت الحرب أوزارها له أن يمن وله أن يأخذ الفداء (فإما منا بعد وإما فداء)[2]

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٧

(٢) سورة محمد آية ٤

وقبل بدر أخذ رسول الله ﷺ الفداء . فقد فادى في سرية عبد الله بن جحش قبل بدر بنحو عام

فلما كانت بدر سار الرسول ﷺ على سنته ، وتصرف مستلهماً طابع الرسالة التي أرسله الله بها ، ولكن بعض الصحابة رضوان الله عليهم نظر إلى موضوع الفداء نظرة مادية ، وأخذ في تقدير الفدية وزناً وكيلاً وقيمة ومقداراً وكماً وكيفاً وأخذ في تكييف الفدية حسب الغنى والفقر ... بعض الصحابة نظر إلى المسألة نظرة مادية ، فنزل قول الله . سبحانه وتعالى مصححاً الوضع هؤلاء الذين لم يضعوا الأمور في وضعها الصحيح ، ولم يزنوها بميزان التوجيه الإلهي

يقول الخطيب القسطلاني في كتابه « المواهب اللدنية » في ذلك « فهذا بيان ما خص به وفضل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فكأنه قال ما كان نبي غيرك » اهـ

ويقول القاضي بكر بن العلاء « أخبر الله تعالى نبيه في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من إحلال الغنائم والفداء » اهـ .

والتوجيه الإلهي في خاتمة الرسالات السماء أنها رسالة رحمة ، ولرسالة الرحمة ميزات وخصوصيات تفيض عن الرحمة نفسها . وما كان لنبي من قبل نبي الرحمة أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض فلما كانت رسالة الرحمة ، وما كان نبي الرحمة - أباح الله له التصرف بحسب الرحمة ، وهو الفداء ، ثم زاده تكريماً على تكريم حيث زاده رحمة على رحمة ، فجعل له الخيار بين المن والفداء

وإن كل نظرة تفيض عن هذه النظرة وتصدر عنها لاترى ولاتحس ولاتشعر بالجانب المادي ، ولكنكم ياهؤلاء الذين نظرتم النظرة المادية تريدون عرض الدنيا وتتخذونه مقياساً ، إنه ليس بمقياس ... إن المادة ليست في موازين الله مقياساً ، فإن الله يريد الآخرة . ويريد للذين آمنوا به وبرسوله أن تكون مقاييسهم مستمدة من كتاب الله ومن توجيهات رسوله ﷺ (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)(1) وإنه لمن أفضال الله على رسوله أنه سبحانه لم يقل « أسوة »

---
(١) سورة الأحزاب آية ٢١

وحسب إنما قال «أسوة حسنة» ، وقال سبحانه

(أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)[1]

ثم إن الله سبحانه لم يأمر المسلمين برد تقليد ، ولم يكن أسير ذلك ، ولم ينقص الله سبحانه ما أمره رسوله المرء عن أن يسير إلا على بصيرة ، والمرء عن أن يهدى إلا إلى الصراط المستقيم صراط الله

هذه الفطرة الرحيمة حملت الرسول ﷺ على أن يكافح طيلة حياته في غير فتور ، ولا هوادة لهداية الإنسانية وإسعادها . لقد كان ﷺ يشق على نفسه في سبيل ذلك ويحملها من الأمور ما لا تطيق

حتى لقد قال الله له :

(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)[2]

وقال سبحانه : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً)[3]

ولقد رسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه موقفه من الناس ، ومثله كموقف رجل يحاول ما استطاع أن يمنع الناس عن التردي في نار يتهافتون على الاحتراق فيها ، ولعل الحادثة التالية تصور بعض جوانب التربية الرحيمة التي كان يستعملها الرسول ﷺ في سلوكه مع الناس ، وهي وإن كانت خاصة برجل معين ليست مقصورة عليه بل لها صفة العموم

جاءه أعرابي يوماً يطلب منه شيئاً فأعطاه ﷺ ، ثم قال له مستفسراً متودداً : أحسنت إليك ؟ فقال الأعرابي : لا ، ولا أجملت . فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم الرسول ﷺ أن كفوا ، ثم قام ، ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابي ، وزاده ، ثم قال : أحسنت إليك ؟

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢١

(٢) سورة فاطر آية ٨

(٣) سورة الكهف آية ٦

فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال له النبي ﷺ إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك

وتحدث الأعرابي إليهم، وطابت أنفس أصحاب رسول الله ﷺ، يقول الأعرابي: فقال صلوات الله وسلامه عليه هذا التعقيب الرائع:

«إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه، فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحب الناقة أن خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها وأعلم، فتوجه إليها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض، فردها هوناً هوناً، حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها، واستوى عليها

وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار» هذا

لقد كانت نفس رسول الله ﷺ رحيمة حتى مع الأعداء

لقد قيل له يوم أحد، وهو في أشد المواقف حرجاً: ادع عليهم يا رسول الله! فقال صلوات الله وسلامه عليه: «إني بعثت رحمة، ولم أبعث لعاناً»

وكان إذا سئل أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له بالهداية والصلاح، وكان يريد باستمرار أن يشعر المسلمون بل الناس على وجه العموم بالتعاطف فيما بينهم، سئل مرة: أي الناس أحب إليك؟ فقال: أنفع الناس للناس، وسئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: إدخال السرور على المؤمن، وقال: أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وألطفهم بأهله

وكانت رحمته صلوات الله وسلامه عليه عامة، شاملة، حتى لقد تناولت الحيوان الأعجم لقد قال يحث على الشفقة بالحيوان: «بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها، ثم خرج منها، فإذا هو بكلب يلهث الثرى (يأكل الثرى من شدة العطش) فقال: لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، قالوا

يارسول الله ، وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : (نعم) لكم في كل ذات كبد رطبة أجر

وقال ﷺ «دخلت النار امرأة في هرة حبستها ، فلاهي أطعمتها وسقتها ، ولاهي تركتها تأكل من خشاش الأرض»

لقد كان ﷺ رحمة وكان رحمة للعالمين

الكتاب الثالث

السنة الشريفة ومكانتها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

يقول الله تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله)[١]

ويقول سبحانه : (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا)[٢]

ويقول : (فلا ، وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليماً)[٣] .

وفي حديث صحيح يقول المقدام بن معدي كرب : «حرم النبي ﷺ أشياء يوم خيبر ، منها الحمار الأهلي وغيره ، فقال رسول الله ﷺ : يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يحدث بحديثي ، فيقول : بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله»

---

(١) سورة النساء آية ٨

(٢) سورة الحشر آية ٧

(٣) سورة النساء آية ٦٥

تمهيد

يحب القراء عادة أن يعرفوا شيئاً عن ظروف تأليف الكتب التي يقرءونها ، لأن ذلك يضعهم في جو يمهد لهم تقدير الكتاب في صورة أعمق ، حيث عرفوا الظروف والملابسات ، ولأن ذلك يقربهم من جو الكاتب نفسي ، ويدخلهم نوعاً ما في محيطه الخاص ، فتكون بينهم وبينه — على البعد — بعض أسباب الألفة

ومن أجل توضيح ذلك أكتب هذه المقدمة[1] : إن السنة دعوة للخلق إلى أرقى الأخلاق التي تجري وراءه الإنسانية المهذبة ، إنها دعوة إلى التاجر أن يكون صدوقاً ، فيحشر مع النبيين والصديقين والشهداء

وإلى العامل أن يتقن عمله ، لأن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه

وإلى الصانع أن يؤدي العمل كما يجب حتى أخذ الأجر ، ومن أخذ الأجر حاسبه الله على العمل

وهي دعوة إلى الأب باعتباره أباً ، وإلى الأم في وضعها كأم ، وإلى الأخ في مهمته كأخ ، وإلى غيرهم من أفراد المجتمع أن يرعى كل منهم ما وكل إليه من أمر رعيته ؛ لأنه مسئول عن رعيته ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته

وهي دعوة للناس إلى الأمانة ، حيث إنه لا إيمان لمن لا أمانة له

وإلى الصدق ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً

وإلى الرحمة ، الرحمة العامة الشاملة ، وصلوات الله وسلامه على من قال «إنما أنا رحمة مهداة»

ومن قال : «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»

وخذ أي خلق كريم تتمنى أن يسير عليه المجتمع — فستجد في السنة دعوة إليه بوسيلة ما

(١) كان هذا الباب رسالة مستقلة طبعت في كتب مستقلة

وهي في هذه الدعوة تنبه دائماً إلى دور الأمة الإسلامية في الأخلاق العملية إن دورها إنما هو دور الرائدة الراعية ، وعلى الرائد دائماً أن يكون مثل الأعلى والأسوة الكريمة ، والقدوة الصالحة .

ولقد كان رسول الله ، ﷺ ، الصورة الحية الصادقة لما سبق كمبادئ إنسانية ممكنة الخلق الذي رسمه الله وأحبه للإنسانية جمعاء ، والذي عبرت عنه السنة أجمل تعبير وأنبله

ومن أجل هذا التقدير الكريم لسنة الشريعة كان العلماء المستنيرون في كل عصر مجاهدون من أجلها . ومن أجل مكارم الأخلاق التي تعبر عنها ، وكان هؤلاء العلماء علماء السنة يعرفون بسيماهم ، فقد كانوا من الزهد في حطام الدنيا بحيث لاينازعون الناس في دنياهم .

لقد كانوا مشغولين عن جمع المال بخدمة الدين . وكانوا مشغولين عن الجاه بغرس الخلق الصالح الكريم ، وكانوا مشغولين عن السلطان بمن بيده السلطان يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء مالك الملك ذي الجلال والإكرام

وكانوا صادقين ، فقد كان الصدق ديدنهم وفطرتهم .

وكانوا صابرين على الحياة ، وصابرين على العمل فقد قاموا نهارهم ، وأسهروا ليلهم عملا على مرضاة الله ورسوله ﷺ

والمثل الذي يجب أن نسوقه كصورة لهؤلاء عموما هو الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، إنه المحدث الذي حاول أن يكون صورة صادقة لما كان عليه الرسول ﷺ في الزاوية الأخلاقية

وسيرة الإمام رضوان الله عليه مثل أعلى في التمسك بما يراه حقاً وفي الصبر على ماناله في سبيل التمسك بالحق

على أن كل من تشيع بالسنة حقاً إنما هو صورة قريبة بقدر المستطاع من الإمام أحمد

ولقد كان الإمام البخاري وغيره ممن أشربت نفوسهم حب السنة أمثلة كريمة للخلق الكريم .

والأمثلة الكريمة لتحلق لكريم هدف دائماً نسهم النموذج الأثيمة التي استهواه الشيطان في قتل أرق كثير ، إنها الصراع الدائم بين الفضيلة وأصحابها ، وبين الممثلين لنزعات الهوى والضلال .

ولولا وجود هذه المثل العليا لمكارم الأخلاق في كل عصر لفقدت الإنسانية الثقة بنفسها ، ولما اطمأن إنسان لإنسان ، ولما وثق شخص بآخر !

لقد ربت السنة رجالاً ، وخصائصها التي ربت بها الرجال قائمة فيها ، لأنها من طبيعتها ومن ذاتها ولقد شاهدت الإنسانية واعترفت بسمو هؤلاء الرجال ، وأولتهم ثقتها وتقديرها :

إن الإمام أحمد بن حنبل ، وإن الإمام البخاري ، وإن أمير المؤمنين في الحديث الإمام سفيان الثوري ، وأمثال هؤلاء رضي الله عنهم منارات يهتدي بهم عشاق المثل العليا الأخلاقية .

لابد إذن من العمل على نشر السنة وإذاعتها ، ومحاولة الإكثار من النفوس التي تنشرها وتحققها وتتمثلها وتحياها

لابد من نشرها وطنية .

ولابد من نشرها إنسانية ، لأنها تعبر عن أرقى مستوى إنساني

ولابد من نشرها ديناً

ولابد من نشرها ذوقاً أدبياً

ولابد من نشرها للثروة اللغوية ومن أجل ذلك تكونت « دار الحديث » وهي دار أسست على التقوى من أول يوم

ولقد دعا إليها السيد/ حسن عباس زكي (وزير الاقتصاد) واستجابت له طائفة من العاملين في الحقل الديني

ولقد ظفرت الدار من أول أمرها بتشجيع ولاة الأمور لقد ظفرت بوعد من السيد نائب رئيس الوزراء للثقافة والإرشاد أن يفسح لها مجالاً في « التليفزيون » لبرنامج أسبوعي بعنوان « من هدى الرسول ﷺ »

وبوعد من السيد نائب رئيس الوزراء للأوقاف أن يساعدها لمساعدة الفعالة

التي تعمل الدار في سعة من حيث طبع مآثره صالحاً لنشر السنة ، وتدعيم جوها الفكرى والروحى والمعنوى :

ومامن شك في أن للسنة جوا فكرياً فالرسول ﷺ يتحدث عن إصلاح المجتمع ، وعن عوامل الهدم التي تعمل على تقويضه وعن عوامل البناء التي تعمل على إقامته على قواعد سليمة ، ويتحدث عن النظم التي ينبغي أن تسود المجتمع الإنساني ، وعن الأوضاع التي يجب أن تستقيم

وللسنة جو لغوى فالرسول ﷺ قد أوتي جوامع الكلم ، وكلامه ﷺ أبلغ الكلام البشرى ، ونشر السنة عامل من أهم العوامل على رقية اللغة التي يكتب بها الكتاب ، وعلى وضع الناشئين والمتعلمين في وضع أدبي ممتاز من حيث اللغة ، ومن حيث الأسلوب .

وللسنة جو روحي إنها تهذيب للنفس ، وتربية للروح وسمو بالأخلاق إلى درجة لا تجارى ، وهو ﷺ على من قال :

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»

ورحم الله (شوقي) إذ يقول :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن أجل ذلك كله كان نشر السنة واجباً دينياً ، وعملاً اجتماعياً كريماً ، وواجباً وطنياً حتمياً ، وإصلاحاً أخلاقياً سامياً

وهو على كل حال ضرورة وضيقة ملحة في عصر تحاول الرذيلة فيه أن تعمم الاعتلال الخلقي في كل أسرة وفي كل بيت . ويحاول الفساد أن يأتي على مقدسات الأمة ومقوماتها . من عرض وشرف وكرامة

ومن أجل كل هذه المعاني أيضا تكونت «دار الحديث»

ونعود فنقول زيادة في الإيضاح إن «دار الحديث» لم تتكون كدار للبحث العلمي فحسب وما من شك في أن البحث العلمي في السنة من أهم أغراضها - وإنما تكونت من أجل

الفن في السنة : أي بلاغتها وجمالها

ومن أجل الأخلاق فى السنة

ومن أجل التشريع وبيان التشريع

وتكون حبنا فى صاحب السنة صلوات الله وسلامه عليه لدى رسم سلوكه وتقويمه أسمى ما يمكن أن تصل الإنسانية إليه فى مختلف عصورها

لقد أحب الله للإنسانية مثلاً أخلاقياً كريماً رسمه سبحانه فى القرآن الكريم قولاً ، فكان الرسول ﷺ الصورة التطبيقية الكاملة للرسم الإلهى ، وكان بذلك الإنسان الكامل

لقد كان المثل الأعلى فى الرحمة ، والمثل الأعلى فى الكفاح والمثل الأعلى فى الصبر ، والمثل الأعلى للمجاهد المثابر ، والمثل الأعلى فى الصدق ، فى الإخلاص ، فى الوفاء ، فى البر ، فى الكرم

ولقد وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله .

(وإنك لعلى خلق عظيم) القلم/ ٤

ولاريب فى أن الأمة الإسلامية حين تقتدى بالرسول ﷺ ، إنما تقتدى بأعظم البشر رجولة وإنسانية .

وتقتدى بمن أحب الله سبحانه أن تقتدى به (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً) الأحزاب/ ٢١

وإن العمل على نشر السنة إنما هو توجيه للاقتداء بالرسول ﷺ

الفصل الأول

(وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً)

« سورة سبأ من آية ٢٨ »

خاتم الأنبياء

يقول الله تعالى لرسوله الكريم ، ﷺ :

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) سبأ/ ٢٨

ولم تكن هذه الرسالة العامة لأحد من الرسل من قبله . فموسى عليه السلام أرسل لبني إسرائيل خاصة ، لقد اقتصرت دعوته على بني إسرائيل مصرحة أنه حينما ذهب هو وهارون عليهما السلام إلى فرعون قالا له :

(إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل) طه/ ٤٧

فموسى ذهب إلى فرعون ليرسل معه بني إسرائيل . ولم يكافح سيدنا موسى الشعوب ، أو الأمم في سبيل دعوته .

وعيسى عليه السلام إنما أرسل إلى « الخراف من بني إسرائيل الضالة » ، على حد تعبيرهم القديم ولم يحاول سيدنا عيسى أن ينشر دعوته خارج فلسطين . ولم يحاول أن يجاهد من أجلها

أما رسول الله ، ﷺ فإنه أرسل إلى الناس جميعاً إنه أرسل إلى الناس جميعاً من حيث المكان . وأرسل إليهم جميعاً من حيث الزمان فهو الرسول الدائم زماناً ومكاناً « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا »

وقد تكفل الله تعالى بحفظ الكتاب الذي أنزله على رسوله ﷺ ضماناً لهذا العموم في الزمان وفي المكان وتحقيقاً له ، (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) الحجر/ ٩

ومن أجل هذا الوعد بحفظ الوحي كاملاً غير منقوص صحيحاً غير محرف كانت الحكمة الإلهية في أن الإنسانية لا تحتاج إلى رسول بعد الرسول ، ولا إلى نبي بعد النبي ، إنه صلوات الله وسلامه عليه خاتم الرسل ، وخاتم الأنبياء

ولقد امتزج رسول الله ﷺ برسالته الخالدة ، فكان هو هي شرحاً وتفصيلاً وكانت هي هو بياناً لمعدنه وجوهره ، وخلافة له ، ونيابة عنه

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها «لقد كان خلقه القرآن»

وهذه الكلمة من السيدة عائشة رضوان الله عليها تحتاج إلى تحديد وبيان ذلك أن القرآن يحدد الخلق الكريم في حده الأدنى ، ثم لايقتصر على ذلك ، وإنما يرسم القمم من مكارم الأخلاق ، ويوجه إلى التسام منها ، ويقود إلى المشارف العليا من درجات المقربين

فهل تريد السيدة عائشة رضوان الله عليها حينما تصفه ﷺ بأن خلقه القرآن هل تريد الخلق الكريم في حده الأدنى أو تريده في حده الأوسط أو تريده في حده الأسمى ؟

إن القرآن يحدد الدرجة التي وصل إليها الرسول ﷺ من خلق القرآن فيقول ، سبحانه لرسوله ، ﷺ (وإنك لعلى خلق عظيم) القلم ٤

هذه الآية القرآنية الكريمة تحدد درجة الأخلاق القرآنية التي وصل إليها الرسول ﷺ إنها ذروتها وسنامها

أول المسلمين :

ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه

«إنى بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»

إنه ﷺ بعث ليتمم المكارم الأخلاقية ليتممها بذاته سلوكه وليتممها بقوله برسالته

إنه لم يبعث لينشر الأخلاق الكريمة فحسب ، وإنما بعث ليتمم مكارمها

ومكارم الأخلاق لم تكن قبل الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد تمت ، إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد ، وكانت لذلك مكارم الأخلاق ناقصة ، كان ينقصها أكمل صفة لمكارم الأخلاق ، وهي إسلام الوجه لله إسلاماً تاماً . إن الكائنات لم تكن قد وصلت لا في نبي مرسل ، ولا في ملك مقرب – إلى الذروة من إسلام الوجه لله

والذروة من إسلامنا الوجه لله ، أو أول المسلمين – والتعبيران سواء – إنما هي الذروة من مكارم الأخلاق .

إنه الكائن الرباني ، إنه أول المسلمين ، أولهم بإطلاق ، أولهم بالنسبة للملائكة ، وأولهم بالنسبة لبني آدم ، أولهم قديماً إلى الأبد – إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد .

وكانت الإنسانية بذلك ناقصة ، وكانت الكائنات كلها بذلك ناقصة

كان الكون مادة ومعنى ، كان ينقصه أن تتعطر أرضه بأزكى الأجساد ، وأن يتعطر جوه بأزكى الأرواح ، وكان لابد من وجود كائن بهذه المثابة يكمل الله به الدين ، ويتم به النعمة ، ويرضى رسالته ديناً عاماً خالداً للإنسانية جمعاء – هو إسلامه الوجه لله

ونزل القرآن محدداً إسلام الوجه لله وسائل ، ومحدداً إسلام الوجه لله غايات محدداً إسلام الوجه لله طرقاً وأساليب ، ومحدداً له بواعث وأهدافاً ومن هنا كان من يبتغي غير الإسلام ديناً لايقبل منه – يقول الله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) [1] وكيف يقبل منه مايناقض إسلام الوجه لله ؟

إن إسلام الوجه لله هو الذروة من مكارم الأخلاق ، وهو جوهر التدين ، إنه الدين القيم ، إنه الدين الخالد ، والنص الوحيد ، النص الإلهي الفريد في العالم كله الذي يبين كيفية إسلام الوجه لله – إنما هو القرآن – وإذ وصل الإنسان إلى إسلام الوجه لله كان بذلك في ذروة الإنسانية ، وفي الذروة من مكارم الأخلاق

ويتفاوت الناس في إسلام وجوههم لله ، ولابد من أن يكون أحدهم أول المسلمين ، فكان رسول الله ، ﷺ أولهم بإطلاق مطلق .

(قل إن صلاتي ونسكي ، ومحياي ومماتي ، لله رب العالمين ، لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) [2]

ولم يصف القرآن بأول المسلمين شخصاً آخر غير الرسول ﷺ

ومكارم الأخلاق لايحدها – من حيث التشمير لها – مكان ، ولايحدها زمان ،

---

(١) سورة آل عمران آية ٨٥ (٢) سورة الأنعام آية ١٦٢ – ١٦٣

بل لايحدها عالم من عوالم الله في الأرض والسماء ، ومن أجل ذلك كانت رسالته
صلوات الله عليه وسلامه رحمة للعالمين
بقوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) الأنبياء ١٠٧

من مكانة الرسول ﷺ عند ربه .

ورسول الله ، ﷺ – لأنه يمثل الأخلاق القرآنية في ذروتها وسموها جعل الله سبحانه وتعالى له مكانة خاصة بين المسلمين فهو صلوات الله وسلامه عليه لأنه تمثل القرآن وحققه ، وأصبح قرآناً – أصبح بذلك يمثل الحق بقوله ، ويمثل الحق بعمله فلا ينطق عن الهوى ، ولايعمل بالهوى

يقول الله تبارك وتعالى به مخبراً عن هذه الحقيقة أروع تعبير (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله) الشورى ٥٢ ٥٣
ويقول الله تعالى لرسوله ، ﷺ (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ، ديناً قيماً) الأنعام ١٦

من إن طريق الدعوة نفسه كان صلوات الله وسلامه عليه يسير فيه معصوماً ، وكل من يسير في الدعوة على نسقه إنما يسير معصوماً بعصمة الرسول ، ﷺ التي منحها الله تعالى إياه (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) يوسف / ١٠٨ .

ودعوته إذن وطريق دعوته يسير فيها على هدى ، وعلى نور من ربه ، وليست إذن (من يطع الرسول فقد أطاع الله) النساء ٨٠

ويعمم الله سبحانه الحكم تعميماً ، ويطلقه إطلاقاً ، فيقول سبحانه
(وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا) ، الحشر/ ٧
ويقول تعالى : (وإن تطيعوه تهتدوا) النور / ٥٤

واتباع الرسول ﷺ علامة على محبة الله تعالى لمن يتبعه وسبب في حبه تعالى له

(قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله .)[1]

إن حب العبد لله لا يفيد مالم يتخذ العبد الوسيلة الناجحة لذلك ، وهذه الوسيلة هي : اتباع رسول الله ﷺ .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى في حديث قدسي ، رواه الإمام البخاري : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب . ومايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه »

وهذه النوافل التي ذكرت في الحديث الشريف ، والتي إذا أكثر الإنسان منها بعد أداء الفرائض أحبه الله ، إنما هي سلوك رسول الله ﷺ ، إنها طريق رسمه صلوات الله عليه وسلامه بقوله وبعمله ، إنها سنة صلوات الله وسلامه عليه التي سنها ، ليدل الإنسان بها محبة الله سبحانه

من مكانة رسول الله ﷺ عند ربه أيضاً

وأحب الله سبحانه رسوله ﷺ ، وكان هذا الرسول بعبوديته لله سبحانه حبيب الله ، وبلغ الرسول صلوات الله عليه وسلامه بعبوديته التامة درجة أول المسلمين ، كما سبق أن ذكرنا .

ولما كان أول المسلمين ، وكان حبيب الله ونبيه ورسوله ، ميزه الله ، سبحانه وتعالى على بقية البشر بكونه خيرهم ، وهذا التمييز لا يخرجه صلوات الله عليه وسلامه عن البشرية ، فهو بشر وهو خير البشر . ومنتهى القول فيه أنه بشر ، وأنه خير خلق الله كلهم ، ولأنه خير البشر يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين

(لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) النور/ ٦٣

إن الإنسان الذي خصه الله بالوحي ، واجتباه لرسالته ، واصطفاه ليكون باسمه ، سبحانه ، بشيراً ونذيراً - إن هذا الإنسان الذي فضله الله على العالمين يجب أن نعرف له مكانته ومنزلته في الشرف الذي أنزله الله فيه . إن هذا السراج المنير ، إن

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١

هذا الرءوف الرحيم – بمعنى ألا يدعى كما يدعى زيد وعمرو ، بمعنى لاتنادوه باسمه فتقولوا يامحمد ، ولابكنيته فتقولوا يا أبا القاسم بل نادوه واخصوه بالتعظيم ، والتكريم والتوقير بأن تقولوا يارسول الله ، يانبى الله ، ياإمام المرسلين ، يارسول رب العالمين ، ياخاتم النبيين ، وغير ذلك .

واستفيد من هذه الآية كما يقول الشيخ الصاوى فى حاشيته على تفسير الجلالين أنه لايجوز نداء النبى بغير مايفيد التعظيم ، لا فى حياته ، ولابعد وفاته ، فبهذا يعلم أن من استخف بجنابه ﷺ فهو كافر ملعون فى الدنيا والآخرة ا هـ

ويقول الله سبحانه فى أول سورة الحجرات .

(يأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) أى لاتقدموا بأمر من الأمور قولاً كان أو فعلاً إلا إذا أذن الله ورسوله وكل أمر قولاً كان أو فعلاً أتاه الإنسان بدون إذن الله ورسوله فإنه لايقع على السنن المستقيم .

يقول الضحاك عن ذلك هو عام فى القتال وشرائع الدين ، أى لاتقطعوا أمراً دون الله ورسوله

(واتقوا الله إن الله سميع عليم) الحجرات/ ١

(يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) الحجرات/ ٢ .

واحذروا إن فعلتم ذلك (أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) الحجرات/ ٢

(إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم) الحجرات/ ٣ .

أما هؤلاء الذين أساءوا الأدب دون أن يقصدوا فأخذوا ينادونك من وراء الحجرات منادة الأعراب الأجلاف فإن عقولهم فى الأغلب الأعم ناقصة

(إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم) الحجرات ٤ ، ٥

على أن مجرد الرغبة فى الحديث إلى رسول الله ﷺ يحتاج تنفيذها إلى تقديم صدقة ، يقول الله تعالى فى سورة المجادلة :

(يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم وأطهر ، فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) مجادلة/ ١٢

وتدل الآية الكريمة على أن ترك تقديم الصدقة إثم ، لأن من لم يجد الصدقة فإن موقف الله سبحانه منه ـ لعدم قدرته ـ المغفرة والرحمة . ولاتكون المغفرة والرحمة إلا على إثم أتاه الإنسان

وعدم توفر الاستطاعة سبب في مغفرة الله سبحانه

(أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات) مجادلة / ١٣

وإذا حملكم خوف الفقر على ألا تفعلوا ، وإذا قادكم الضعف الإنساني إلى ألا تفعلوا ذلك ، ثم ندمتم واستغفرتم فتداركوه حتى يتوب الله عليكم ، وأثبتوا حسن نيتكم ، وصفاء سريرتكم ، بأن تقيموا الصلاة على الوجه الأكمل ، وتؤتوا الزكاة طيبة بها نفوسكم ، وتطيعوا الله ورسوله في الصغير والكبير ، ومامن ريب في أن الله سبحانه خبير بكل ماتعملون

يقول تعالى : (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ، فإذ لم تفعلوا ، وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأطيعوا الله ورسوله ، والله خبير بما تعملون) (١)

وبعد : فيقول رسول الله ، ﷺ : «أنا سيد ولد آدم ولافخر»

ويقول الله تعالى :

(يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً) (٢)

هذا جانب من مكانة الرسول ﷺ التي أحبه الله بها ، والتي نص عليها سبحانه في كتابه العزيز

طاعة رسول الله من طاعة الله :

وجانب آخر أحبه الله تعالى لرسوله يريد أن نبينه : وهو أن الله سبحانه وتعالى قد

---

(١) سورة المجادلة آية ١٣ (٢) الأحزاب الآيات ٤٥ – ٤٧

فرض طاعة رسوله ﷺ مقرونة بطاعته ، بل لقد ذكرها الله سبحانه وتعالى وحدها باعتبارها فرضاً

ويقول الله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً)(١)

ويقول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)(٢)

ويقول سبحانه : (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا ، فإن الله لا يحب الكافرين)(٣)

وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن الإعراض عن طاعة الله أو عن طاعة الرسول كفر ومامن شك في أنه كفر ، ذلك أن الإيمان من أركانه الإيمان برسول الله ﷺ ، وبأن كل ما أتى به صدق ، فالتولي عنه استخفافاً أو جحوداً وإنكاراً ، أو عناداً وتمرداً - ذلك كله كفر يخرج به المعرض عن دائرة الإسلام

يقول الله تعالى في طاعة الرسول صلوات الله وسلامه عليه حينما يورده بالحديث :

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)(٤)

ويقول تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم)(٥)

ويجعل سبحانه وتعالى طاعة الرسول ﷺ طاعته فيقول سبحانه

(من يطع الرسول فقد أطاع الله)(٦) ويجعل بيعته صلوات الله وسلامه عليه بيعة الله ، فيقول سبحانه

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٦
(٢) سورة الأنفال آية ٢٤
(٣) سورة آل عمران آية ٣٢
(٤) سورة النساء آية ٦٥
(٥) سورة النور آية ٦٣
(٦) سورة النساء آية ٨٠

(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) [١]

وطاعة رسول الله ﷺ إنما هي فيما افترضه الله سبحانه أو سنه ، وفيما افترضه رسوله صلوات الله عليه وسلامه أو سنه .

وقد تابع الرسول ﷺ القرآن الكريم في بيانه منزلة السنة ووجوب اتباعه ﷺ فيما سنه ، فلقد حث رسول الله ﷺ على تتبع السنة ونشرها ، فقال فيما رواه أبو داود والترمذي عن زيد بن ثابت : «نضر الله وجه امرئ سمع مقالتي ، فحفظها ووعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع» .

وروى في معناه من طريق آخر : «رحم الله امرأ سمع مقالتي فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع» .

وكان رسول الله ﷺ يأمر صحابته أن يبلغ الشاهد منهم الغائب فيقول فيما رواه أبو بكر : «ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب» .

ولقد روى الحاكم والبيهقي أن رسول الله ﷺ قال : «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما ، كتاب الله وسنتي» .

ويقول رسول الله ، ﷺ ، في خطبة الوداع : «إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم ، ولكن رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروا ، إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً ، كتاب الله وسنتي» .

ويبين رسول الله ، ﷺ ، فيما رواه البخاري عن أبي هريرة أن المسلمين سيدخلون الجنة إلا من لا يرغب منهم في ذلك .

يقول ﷺ : «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا : يارسول الله ومن يأبى ؟ قال : «من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى» .

---

(١) سورة الفتح آية ١٠

مكانة السنة من القرآن :

وسنة رسول الله ، ﷺ ، لها مكانتها بالنسبة إلى القرآن ولها مكانتها بالنسبة إلى التشريع .

إنها المصدر الثانى - بعد القرآن - للإسلام ، إنها المصدر الثانى للإسلام باعتباره عقيدة ، والمصدر الثانى للإسلام باعتباره تشريعاً ، والمصدر الثانى للإسلام باعتباره أخلاقاً ،

أما منزلتها بالنسبة إلى القرآن فإنها على حسب ما يقول الإمام الشافعى : «وسنن رسول الله ﷺ مع كتاب الله وجهان :

أحدهما : نص كتاب ، فاتبعه رسول الله كما أنزل الله

والآخر : جملة بين رسول الله فيها عن الله معنى ما أراده بالجملة ، وأوضح كيف فرضها عاماً ، أو خاصاً ، وكيف أراد أن يأتى به العباد ، وكلاهما اتبع فيه كتاب الله

وفى كلمة أخرى يبين الإمام الشافعى الوجهين فيقول : «أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب ، فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب ، والآخر : مما أنزل الله فيه جملة كتاب ، فبين رسول الله معنى ما أراد » وهذان الوجهان لم يختلف فيهما أحد من الفقهاء ولا من المحدثين ، يقول الإمام الشافعى : « وهذان الوجهان اللذان لم يختلف فيهما »

والوجه الأول بين بنفسه

إنه من الواضح أن رسول الله ﷺ كان يبين القرآن عقيدة ، وشريعة وأخلاقا على وجوه شتى ، وعلى أنحاء مختلفة ، وعلى أساليب تختلف فى الإيجاز والإسهاب ، حسب حالة المخاطب ، يقول الله تعالى :

(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) النحل/ ٤٤

رسول ﷺ كان يبين للناس ما نزل إليهم بسلوكه وبقوله ، وبإقراراته ، يقول

صلوات الله عليه وسلامه : «ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به ، ولا تركت شيئاً مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه»

ولكن بيان رسول الله ، ﷺ كان يشتمل أيضاً على بيان ما أجمل في كتاب الله ، وهذا الوجه كثير في السنة .

يقول الإمام الشافعي ، رضي الله عنه : قال تبارك وتعالى

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) النساء/ ١٠٣ .

وقال : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) البقرة/ ٤٣

وقال : (وأتموا الحج ، والعمرة لله) البقرة/ ١٩٦

ثم بين على لسان رسوله عدد ما فرض من الصلوات ، ومواقيتها ، وسننها . وعدد ركعاتها ، والزكاة ومواقيتها ، وكيف عمل الحج والعمرة ، وحيث يزول هذا ويثبت ، وتختلف سنته وتتفق ، ولهذا أشباه كثيرة في القرآن والسنة » اهـ

وقد كان رسول الله ، ﷺ يبين كيفية الصلاة بقوله وعمله ، كان يبين أوقاتها ، وأركانها ، وعدد ركعاتها ، وافتتاحها ، وترتيب حركاتها بعد الافتتاح ويقول ﷺ : «صلوا كما رأيتموني أصلي»

وبين رسول الله ، ﷺ مناسك الحج ، أركانه ، وواجباته ، وسننه ، ويقول «خذوا عني مناسككم»

وفرض الله ، سبحانه وتعالى الزكاة ، ولم يبين مقاديرها ، ولم يذكر بالتفصيل الزروع والثمار والأموال التي تجب فيها الزكاة ، فبين رسول الله ﷺ ذلك كله وطبقه

وبعد ، بينت السنة أن القاتل لا يرث ، وأن الوصية لا تكون في أكثر من الثلث ، وأن الدين يقدم على الوصية ، هذا وكثير غيره مما بينته السنة .

عن عمران بن حصين رضي الله عنه : أنه قال لرجل يريد أن يقتصر على القرآن دون السنة : إنك امرؤ أحمق ! أتجد في كتاب الله الظهر أربعاً لا يجهر فيها بالقراءة ، ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ثم قال : أتجد ذلك في كتاب الله مفسراً ؟ إن كتاب الله أبهم هذا ، قال : والسنة تفسر ذلك

ولقد قيل لمطرف بن عبد الله بن الشخير : لا تحدثونا إلا بالقرآن

فقال : والله ما نبغي بالقرآن بدلاً ، ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن
ويقول الإمام الشافعي رضي الله عنه : «ومن قبل عن رسول الله فعن الله
قبل ، لما افترض الله من طاعته» .

مكانة السنة من التشريع

رسول الله ، ﷺ ، يشرع – عن الله تعالى – فيما لا نص فيه من كتاب الله
روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم : أن رسول الله ﷺ بعث
معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن فقال له : «كيف تقضي إذا عرض لك
قضاء ؟» .

قال : أقضي بكتاب الله

قال : «فإن لم يكن في كتاب الله ؟»

قال : فبسنة رسول الله

قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟

قال : أجتهد رأيي ولا آلو .

فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : «الحمد لله الذي وفق رسولَ رسول
الله ﷺ لما يرضي رسول الله» .

وسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في رسالته في القضاء إلى أبي موسى
الأشعري رضي الله عنه التي بدأها بقوله : «سلام عليك ، أما بعد فإن القضاء
فريضة محكمة وسنة متبعة» .

يقول سيدنا عمر في هذه الرسالة : «الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس
في كتاب ولا سنة» .

فجعل سيدنا عمر السنة مصدراً من مصادر التشريع .

ولقد سئل سيدنا أبو بكر رضي الله عنه عن ميراث الجدة فقال : «مالك في
كتاب الله من شيء ولكن اسأل الناس» . فسألهم فقام المغيرة بن شعبة ، ومحمد بن
مسلمة ، فشهدا : أن النبي ﷺ أعطاها السدس

ولم يكن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلم سنة الاستئذان حتى أخبره بها أبوموسى رضي الله عنه[١]

ولم يكن يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها حتى كتب إليه الضحاك بن سفيان أمير رسول الله ﷺ على بعض البوادي يخبره أن رسول الله ﷺ «ورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها»

ولم يكن يعلم حكم المجوس في الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»

ولما قدم «سرغ» وبلغه أن الطاعون بالشام واستشار المهاجرين الأولين الذين معه، ثم الأنصار، ثم مسلمة الفتح، فأشار كل عليه بما رأى ولم يخبره أحد بسنة حتى قدم عبد الرحمن بن عوف، فأخبره بسنة رسول الله ﷺ في الطاعون، وأنه قال: «إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه»

وهذا عثمان رضي الله عنه لم يكن عنده علم بأن المتوفى عنها زوجها تعتد في بيت زوجها حتى حدثته الفريعة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري بقضيتها لما توفي زوجها وأن النبي ﷺ قال لها

«امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» فأخذ به عثمان

ولقد روى الحاكم ما يلي

«حرم رسول الله ﷺ أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلي وغيره»

فقال رسول الله ﷺ «يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته، فيحدث بحديثي فيقول: بيني وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه وما وجدنا فيه حراماً حرمناه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله»

ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به، أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»

---

(١) فبين له الاستئذان ثلاثاً، فإذا لم يؤذن له انصرف

روى أبو داود والترمذي وابن ماجه عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه. ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله».

وعن حسان بن عطية أنه قال: «كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه القرآن. ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن»

وعن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «آتاكم الله القرآن ومن الحكمة مثليه» أخرجهما أبو داود في مراسيله

وقيل لمطرف بن عبد الله بن الشخير: لا تحدثونا إلا بالقرآن، فقال: والله ما نبغي بالقرآن بدلاً، ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لعن الله الواشمات، والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله» فبلغ ذلك امرأة من بني أسد، فقالت: يا أبا عبد الرحمن بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: «ومالي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله» فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته. فقال: لئن كنت قرأته لقد وجدته، أما قرأت: (وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا)(١)، قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ.

وبعد أن يذكر الإمام الشافعي الوجوه الثلاثة:

١ - بيان السنة للكتاب على ما في الكتاب

٢ - بيان السنة لمجمل الكتاب.

٣ - ما بين رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب

يقول: وذلك ما نريد أن ننتهي إليه، وهو بين في وضوح من كل ما ذكرنا، وفي هذا فقد بين الله أنه فرض فيه طاعة رسوله. ولم يجعل لأحد من خلقه عذراً بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله، وأن قد جعل الله بالناس كلهم الحاجة إليه في

---

(١) سورة الحشر: ٧

دينهم ، وأقام عليهم حجته بما دلهم عليه من سنن رسول الله ، معاني ما أراد الله بفرائضه في كتابه ، ليعلم من عرف منها ما وصفنا - أن سنته ﷺ إذ كانت سنة مبينة عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه ، وفيما ليس فيه نص كتاب آخر - فهي كذلك أين كانت ، لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال .

الفصل الثاني

تدوين السنة

بدأ رسول الله ﷺ في العهد المكي يبشر بالقرآن الكريم ورسالة التوحيد سراً ثم جهراً ، وكان الرسول ﷺ سلط بالأضواء كلها على القرآن

١ ـ ذلك أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى ، وهو بأسلوبه معجز ، وهو بمعناه يأخذ بالأفئدة ، وهو بعظاته يملك القلوب ، وهو بمنطقه يسيطر على العقول

٢ ـ ثم إن موضوع القرآن في هذه الفترة كان موضوعاً محدداً ، لقد كان جملة من القضايا يتصل بالغيب ، بالغيب الإلهي ، أو بتعبير آخر ، توضح العقيدة توحيداً ، ورسالة ، وبعثاً .

وكان أسلوب القرآن في ذلك واضحاً لا لبس فيه ، بيناً بياناً ساطعاً .

٣ ـ وخشي رسول الله ﷺ ، أن يضيف بعض الناس شيئاً من كلامه إلى القرآن ويخلطوه به ، وربما أسرفوا في هذه الإضافة فلا يستبين الناس الفواصل والفروق بين الأسلوب القرآني والإلهي ، والأسلوب النبوي حينما يتلونهما في أول العهد بالإسلام ممتزجين ، لا تمييز بينهما .

إن معالم الأسلوب القرآني واضحة ، وكلام الله سبحانه إنما كان يتميز بصفات تجعله يسمو بمعزل عن غيره .

ولكن لابد من إيجاد الفرصة الكافية لترتسم هذه المعالم في النفوس أي لابد من تقديم القرآن خالصاً صافياً لا يمتزج به غيره

لابد من تقديمه كما أُنزل في ثوبه الإلهي البحت حتى تصبح المعالم معالم الإعجاز المعجز بيّنة ساطعة .

من أجل ذلك نهى رسول الله ، ﷺ عن كتابة حديثه صلوات الله وسلامه عليه

٤ ـ على أن هذه الآيات القرآنية في العهد المكي وهي تشرح التوحيد توحيد الله في الذات ، وتوحيد الله في الصفات – إنما وهي تشرح هيمنة الإله على الكون ، على العوالم ، جميع العوالم – ليست في حاجة إلى بيان أوضح ، أو إلى تعبير أقوى .

بل إنه لا يتأتى أن يكون هناك بيان أوضح أو تعبير أقوى

إنها وهي تهدم الشرك ، وتدك حصونه تقول مثلا :

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون ، أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون

أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى عما يشركون أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ، أإله مع الله ، قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين [1]) .

إنها حينما تقول ذلك لا تحتاج إلى شرح أو تفسير

وهي حينما تتحدث عن البعث فتقول :

(ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون [2]) .

ليست بحاجة إلى شرح أو تفسير

وهي حينما تتحدث عن الرسول ﷺ ونزول القرآن عليه فتقول

(نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين) الشعراء / ١٩٣ / ١٩٥ .

ليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

ثم هي ، حينما تقول ترغيبا وتبشيرا

---

(١) سورة النمل الآيات ٥٩ – ٦٤

(٢) سورة الزمر الآيات ٦٨ – ٧٠

(إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ، سلام قولا من رب رحيم)[١] .

ليست بحاجة إلى شرح أو تفسير

وحينما تكون موعظة وإنذاراً .

(ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين [٢])

ليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

٥ – ثم إن الموضوعات التي تتحدث فيها هذه الآيات المكية – موضوعات غيبية ، والموضوعات الغيبية دقيقة وغاية في الدقة ، فهل إذا تحدث الرسول ﷺ في هذه الموضوعات ، ونقل عنه هؤلاء شفهياً وهم حديثو عهد بالإسلام وقريبو عهد بالجاهلية الوثنية فهل سيحسنون التعبير عنها أو سيقولونها كما تحدث بها الرسول ﷺ في دقته الدقيقة وفهمه الواعي عن الله سبحانه وتعالى ؟

من أجل كل ذلك أمر رسول الله ﷺ ألا يكتب عنه غير القرآن .

وحكمة هذا الأمر وتعليله واضح كل الوضوح مما ذكرنا .

ولكن في فترة العهد المدني تغير الوضع :

ها هو ذا الإسلام ينتشر انتشاراً واسعاً وسريعاً ، وها هي ذي الأمة الإسلامية الناشئة المؤمنة القوية تبعث الأمل واسعاً في أن دين الله سينتشر في الآفاق ، وسيعم نوره الأقطار ، وستحطم كلمة الحق صروح الباطل ، وسيتم الله نوره ولو كره المشركون ، وسيعم لألاؤه برغم أنوف الكافرين

(١) سورة يس الآيات ٥٥ – ٥٨

(٢) سورة فصلت الآيات ١٩ – ٢٤

ومن أجل هذه الأمة بدأ الوحي ينزل إرسالا إرسالا بالتشريع في جميع ألوانه : تشريع دولي ، وتشريع جنائي ، وتشريع مدني ، وتشريع للعبادة ، وتشريع للأحوال الشخصية

لقد بدأ التشريع الإلهي ينظم حياة الفرد : عبادة ومعاملة . حياته مع نفسه ، وحياته مع أمته ، وحياته مع الله تعالى .

لقد أخذ ينظم حياة الإنسان منذ أن يستيقظ في الصباح إلى أن ينتهي به الأمر إلى الصحو من جديد في صباح تال

وينظم حياته من أسبوع إلى أسبوع ، ومن شهر إلى شهر ، ومن عام إلى عام .

وينظم حياته في بيته ، وينظم حياته في أسرته ، وينظم حياته في مجتمعه وينظم حياة المجتمع الإسلامي كله في الكون كله .

وما كان يتأتى أن يتعرض الوحي في ذلك للتفصيلات المفصلة ، ولا للجزئيات الجزئية التي لا تحد ولا تحصى ، ولكنه كان يفصل تفصيلا يشبه أن يكون تاما في الأمور التي تكون عادة مثار النزاع ، وخصوصاً الماليات كالميراث ، وكتابة الدين مثلا .

ويضع قواعد عامة شاملة تتضمن الجزئيات المتعددة في موضوعات أخرى وكان لابد من أن يتصدى الرسول ﷺ في البيان والشرح والتفسير

وكان المسلمون قد ألفوا الجو الإسلامي ، وألفوا الأسلوب القرآني عرفوا مفهوم الشرك ومفهوم التوحيد ، وتبينت لهم الفروق الفاصلة بين العلم والجهل ، وبين الإسلام والجاهلية ، وبين توجيه الوجه لذي فطر السموات والأرض ، وتوجيهه للأصنام أو الشهوات أو للهوى ، ولم يكن هناك من خوف على خلط أسلوب القرآن الكريم بغيره .

وكان لابد من تدوين شروح الرسول ﷺ وتفسيراته

لم يكن هناك ظروف توجب عدم كتابة الحديث . وكانت هناك ظروف توجب كتابته .

ومن أجل ذلك أباح الرسول ﷺ كتابته بعد أن كان قد نهى عنها .

وبدأ الصحابة رضوان الله عليهم يكتبون

روى الإمام البخاري في كتاب العلم ، باب كتابة العلم قال

« حدثنا محمد بن سلام قال : أخبرنا وكيع عن سفيان عن مطرف ، عن الشعبي ، عن أبي جحيفة ، قال : قلت لعلي : هل عندكم كتاب ؟

قال : لا ، إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة .

قلت : فما في هذه الصحيفة ؟

قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر

ويروي الإمام البخاري

حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ، قال حدثنا شيبان ، عن يحيى ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة

أن خزاعة قتلوا رجلا من بني ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه ، فأخبر بذلك النبي ﷺ فركب راحلته ، فخطب فقال

« إن الله حبس عن مكة القتل ، أو الفيل شك أبو عبد الله ، وسلط عليهم رسول الله ﷺ ، والمؤمنين ، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ، ولم تحل لأحد بعدي ، ألا وإنها حلت لي ساعة من نهار ، ألا وإنها ساعتي هذه حرام لا يختلى شوكها ، ولا يعضد شجرها ، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد ، فمن قتل فهو بخير النظرين إما أن يعقل ، وإما أن يقاد أهل القتيل

فجاء رجل من أهل اليمن ، فقال : اكتب لي يا رسول الله

فقال : اكتبوا لأبي فلان

فقال رجل من قريش : إلا الإذخر يا رسول الله ، فإنا نجعله في بيوتنا وقبورنا

فقال النبي ﷺ : إلا الإذخر ، إلا الإذخر .

قال ، أبو عبد الله : يقال : يقاد ، بالقاف

فقيل : لأبي عبد الله ، أي شيء كتب له ؟

قال : كتب له هذه الخطبة

ويقول البخارى

حدثنا على بن عبد الله قال حدثنا سفيان قال حدثنا عمرو ، قال أخبرنى وهب بن منبه عن أخيه قال سمعت أبا هريرة يقول ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب تابعه معمر عن همام ، عن أبى هريرة ، انتهى عن البخارى

ولقد اشتهرت كتابة عبد الله بن عمرو لكل ما يصدر عن رسول الله ﷺ حتى لقد نوقش فى ذلك من بعض القرشيين فهو رضى الله عنه على حسب ما يروى فى سنن الدارمى وغيره كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ ، أريد حفظه ، فنهتنى قريش ، وقالوا تكتب كل شىء سمعته من رسول الله ﷺ ! ورسول الله ﷺ بشر ، يتكلم فى الغضب والرضا ! فأمسكت عن الكتاب . فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فأومأ بإصبعه إلى فيه ، وقال كتب ، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلا حق

وروى عن أبى هريرة ؟ كما يذكر الترمذى أن رجلا من الأنصار كان يشهد حديث رسول الله ﷺ ، فلا يحفظه ، فيسأل أبا هريرة ، فيحدثه ، ثم شكا قلة حفظه إلى الرسول ﷺ ، فقال له النبى ﷺ استعن على حفظك بيمينك ، أى بالكتابة

وروى عن رافع بن خديج كما يذكر فى كتاب « تقييد العلم » أنه قال قلت يا رسول الله ، إنا نسمع منك أشياء ، أفنكتبها ؟ قال « اكتبوا ولا حرج »

على أنه قد روى عن رسول الله ، ﷺ أنه كتب كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره ، كما يروى ذلك صاحب كتاب « جامع بيان العلم وفضله » .

هذا بعض ما كتب من الصحابة فى عهد الرسول ﷺ ، وتكثر الروايات فيما كان من كتابة الصحابة بعد انتقاله صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى

فى مسند الإمام أحمد عن أبى عثمان النهدى قال كنا مع عتبة بن فرقد ، فكتب إليه عمر بأشياء يحدثه عن النبى ﷺ ، فكان فيما كتب إليه .

إن رسول الله ﷺ قال : « لا يلبس الحرير فى الدنيا إلا من ليس له فى الآخرة منه شيء إلا هكذا

وقال بأصبعيه السبابة والوسطى » . قال أبو عثمان : « فرأيت أنها أزرار الطيالسة حين رأينا الطيالسة » .

ولقد كان الصحابة ينقل بعضهم عن بعض : فعروة بن الزبير رضى الله عنه ينقل عن خالته السيدة عائشة رضوان الله عليها ، فتقول له : يا بنى ، بلغنى أنك تكتب عنى الحديث ، ثم تعود فتكتبه .

فقال لها : أسمعه منك على شيء ، ثم أعود فأسمعه على غيره

فقالت : هل تسمع فى المعنى خلافاً ؟

قال : لا .

قالت : لا بأس بذلك

وبشير بن نهيك يكتب عن أبى هريرة ، ويجيزه أبو هريرة بالرواية عنه

يقول بشير - كما يذكر كتاب : « السنة قبل التدوين » نقلا عن كتاب « المحدث الفاصل » وغيره : أتيت أبا هريرة بكتابى الذى كتبته ، فقرأته عليه ، فقلت : هذا سمعته منك ؟

قال : نعم

وكان لابن عباس رضى الله عنه ألواح يكتب فيها عن الصحابة : مثل أبى رافع صاحب رسول الله ﷺ

بل لقد وصل الأمر بأنس رضى الله عنه الذى لازم رسول الله ﷺ ملازمة تكاد تكون تامة طيلة عشر سنوات : أنه كان يملى الحديث على جموع من المتطلبين ، فإذا كثر عليه الناس ، واحتاجوا إلى صحف يكتبون فيها جاء إليهم بها من عنده فألقاها إليهم ، ثم قال : هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله ﷺ ، وعرضتها عليه

وكان يقول ، رضى الله عنه لبنيه : يا بنى ، قيدوا العلم بالكتاب .

وكان الصحابة يتدارسون فى الأحاديث يستفسرون ويتذاكرون : فمعاوية بن

أبي سفيان رضي الله عنه يكتب للمغيرة بن شعبة رضوان الله عليه عدة مرات ، يستفسر عن بعض ما يرويه المغيرة عن رسول الله ﷺ .

فيجيبه المغيرة بن شعبة مرة عما كان رسول الله ﷺ مثلا يقول في ختام كل صلاة :

« اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »

ويجيبه مرة أخرى بأن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال

ويكتب زياد بن أبي سفيان إلى السيدة عائشة رضوان الله عليها يسألها عن مسائل تتعلق بالحج ، ويذكر لها فتوى بن عباس رضي الله عنه ، فتكتب له بما كان ﷺ يفعله في الحج

ويصف المرحوم الأستاذ السباعي بعض الجهود التي قام بها الصحابة لجمع الحديث فيقول في نهاية حديثه عن تلك الجهود .

فلما كان عهد عثمان سمح للصحابة أن يتفرقوا في الأمصار ، واحتاج الناس إلى الصحابة ، وخاصة صغارهم بعد أن أخذ الكبار يتناقصون يوماً بعد يوم ، فاجتهد صغار الصحابة لجمع الحديث من كبارهم ، فكانوا يأخذونه عنهم .

كما كان يرحل بعضهم إلى بعض من أجل طلب الحديث ، فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد ، وأحمد ، والطبراني ، والبيهقي ، واللفظ له ، عن جابر بن عبد الله قال بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ لم أسمعه ، فابتعت بعيراً فشددت عليه رحلي ، ثم سرت إليه شهراً حتى قدمت الشام ، فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصاري ، فأتيته ، فقلت له

حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم لم أسمعه ، فخشيت أن أموت ، أو تموت قبل أن أسمعه

فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يحشر الناس غرلا بهما » .

قلنا : وما بهم ؟

قال : ليس معهم شيء ، فيناديهم بنداء يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصها منه

ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، ولأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى أقتصها منه حتى اللطمة

قلنا : كيف ؟ وإنما نأتي الله عراة غرلا بهما ؟

قال : بالحسنات والسيئات

وأخرج البيهقي وابن عبد البر عن عطاء بن أبي رباح أن أبا أيوب الأنصاري رحل إلى عقبة بن عامر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه منه غيره ، فلما قدم إلى منزل مسلمة بن مخلد الأنصاري وهو أمير مصر فخرج إليه فعانقه ، ثم قال

ما جاء بك يا أبا أيوب ؟

قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ في ستر المؤمن

فقال نعم ، سمعت رسول الله ﷺ ، يقول

« من ستر مؤمناً في الدنيا على كربته ستره الله يوم القيامة »

ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته ، فركبها راجعاً إلى المدينة ، فما أدركته جائزة مسلمة إلا بعريش مصر » اهـ

ولقد وقر في أذهان الناس بصورة راسخة أن السنة لم تدون إلا في القرن الثاني ، ومن أجل اقتلاع هذه الفكرة الخاطئة أبدأ في نقل بعض النصوص التي تثبت الحقيقة ، وهي أن السنة دونت في القرن الأول في عهد الرسول ﷺ ، وفي عهد الصحابة الأجلاء

ومن أجل زيادة الأمر وضوحاً ، ومن أجل تأكيد الحقيقة في الأذهان ننقل هنا نصاً أي الأستاذ الجليل السيد سليمان الندوي ، كبير علماء مسلمي القارة الهندية في هذا العصر ، ننقله عن كتابه النفيس « الرسالة المحمدية » وهو محاضرات ألقاها في جامعة مدراس :

يقول :

وإني أكشف القناع لأول مرة في ناديكم هذا بأن من زعم أن الأحاديث النبوية لم تدون إلى مائة سنة أو سبعين سنة قد أخطأ . والتاريخ يعارضه والسبب في هذا الخطأ ظنهم أن أول كتاب في الحديث النبوي هو كتاب الموطأ لمالك بن أنس ، وأول كتاب في السيرة كتاب المغازي لابن إسحاق ، وهذان الإمامان الجليلان كانا معاصرين ، وتوفي الأول سنة ١٧٩ هـ ، والثاني سنة ١٥١ هـ ، فاعتبروا العقود الأولى من القرن الثاني بداية تدوين الأخبار والسير والأمر ليس كذلك فإن بواكير التدوين بدأت قبل ذلك بكثير . وقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ عالماً جليلاً ، ولي إمارة المدينة ثم استخلف سنة ٩٩ ، وقد عهد إلى القاضي أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الذي كان إماماً في الحديث والعبر أن يبدأ في تدوين سنن النبي ﷺ وأخباره . لأنه خاف على العلم أن يرجع شيئاً فشيئاً .

وخاف دروس العلم وعفاءه ، وقد ذكر هذا في تعليقات البخاري ، والموطأ لمالك ، والمسند للدارمي فقام بذلك أبو بكر بن حزم ، وكتبت الأحاديث والأخبار والسنن في القراطيس ، وأرسلت إلى دار الخلافة بدمشق ، ونسخت في الصحف والكتب ، وبعث بها إلى البلاد الإسلامية وكبريات المدن يومئذ (مختصر جامع بيان العلم للحافظ بن عبد البر ص ١٣٨ طبع مصر)

فأبو بكر هذا الذي عظم مكانته من العلم والفضل وكان قاضياً بالمدينة المنورة — هو الذي اختاره عمر بن عبد العزيز لهذا العمل الجليل لعلمه وفضله ولأن خالته عمرة كانت من كبريات تلميذات أم المؤمنين عائشة ، وكان مدونته خالته عمرة عن أم المؤمنين عائشة محفوظاً عنده فأوعز إليه عمر بن عبد العزيز بتدوين مرويات خالته ، وقد اختصها بالذكر في كتابه إليه

ويتابع السيد سليمان الندوي حديثه فيقول

وأمر ﷺ فكتبت أحكام الزكاة ، وما تجب فيه ، ومقادير ذلك ، فكتبت مشروحة مفصلة في صحيفتين ، وبعث بصورة ذلك إلى أمراء البلاد وولاتها ،

وبقيت مجموعة فى بيت أبى بكر الصديق ، وأبى بكر بن عمرو بن حزم (الدارقطنى فى كتاب الزكاة ٢٠٩) وكان عند عمال الزكاة رسائل فيها أحكام الزكاة

وكان لمرويات عبد الله بن عباس كراريس عنده

وجاءه قوم من أهل الطائف بكرسة منه ليرووها عنه (العلل للترمذى ٦٩١)

وكان سعيد بن جبير يكتب روايات عبد الله بن عباس (الدارمى ٦٩)

وبقيت صحيفة عبد الله بن عمرو (الصادقة) موجودة عند حفيده عمرو بن شعيب (سنن الترمذى) ، (ص ٦١ ، ١١٣)

وكانوا يضعفون عمرو بن شعيب ، لأنه يروى من الصحيفة ، وكان ينبغى له أن يروى من حفظه

وجمع وهب بن منبه روايات جابر بن عبد الله ، وكانت عند إسماعيل بن عبد الكريم ، وضعفوه لأجل ذلك (تهذيب التهذيب لابن حجر ٣١٦)

وروى سليمان بن سمرة بن جندب أنه كان عند أبيه صحيفة فيها أحاديث وكذلك روى ابنه حبيب بن سليمان (تهذيب التهذيب ٤ : ١٩٨) .

وجمع همام بن منبه روايات أبى هريرة وهو أكثر الصحابة رواية ، وأوعاهم حفظاً لأحاديث الرسول ﷺ ، فصارت تعرف صحيفته بين المحدثين بصحيفة همام ، وقد أوردها الإمام أحمد بن حنبل فى الجزء الثانى من مسنده (ص ٣١٢ ٣١٨ الطبقة الأولى)

وكذلك بشير بن نهيك كتب مروياته عن أبى هريرة فى كتاب وقرأه عليه (كتاب العلل للترمذى ص ٦٩١ والدارمى ص ٦٨ والسنن الكبرى للبيهقى ١٠ : ٢٨٠)

وذكر ابن حجر فى كتابه فتح البارى أن أبا هريرة جاء برجل إلى بيته وأراه أوراقاً وقال هذه رواياتى وقال الذى روى ذلك إنها لم تكن مكتوبة عنده (فتح البارى ١ ١٨٤ ، ١٨٥)

وكان أنس بن مالك وهو معروف بكثرة الرواية يقول لأولاده يا بنى ، كتبوا العلم وقيدوه بالكتابة (الدارمى ص ٦٨)

وكان تلميذه «...» يكتب رواياته بين يديه (الدارمي ص ٦٨).

وروى عن سلمى قالت: رأيت عبد الله بن عباس يستملي أبا رافع خادم رسول الله ﷺ وما كان ﷺ يعمل أو يقول (طبقات بن سعد ٢ - ٢ - ١٢٣).

والواقدي وهو من متقدمي المصنفين في السيرة النبوية يقول: رأيت عند عبد الله بن عباس الكتاب الذي أرسله رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى سيد عمان مع كتب أخرى (زاد المعاد ٢ - ٥٧).

وفي تاريخ الطبري: أن عروة بن الزبير كتب جميع ما كان في غزوة بدر مفصلا إلى عبد الله الملك الخليفة الأموي (الطبري ١٢٨٥).

ويقول سعيد بن جبير التابعي: كنت أكتب على الأقتاب ما أسمعه في الليل من عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، فإذا أصبحت كتبته واضحاً. (الدارمي ص ٦٩).

وكان أصحاب البراء بن عازب يكتبون عنده رواياته (الدارمي ٦٩).

وكان نافع - وقد صحب ابن عمر ثلاثين سنة - يملي على الناس (الدارمي ص ٩٦).

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود أنه أخرج كتاباً وقال: وايم الله، هذا ما كتبته يد ابن مسعود. (جامع العلم لابن عبد البر ص ١٧)

ونتابع الحديث في الموضوع على الرغم من أن الأمر أصبح واضحاً فنضيف إلى ما سبق:

أن مروان قد خطب في الناس، فذكر مكة وحرمتها، فقال رافع بن خديج بصوت يسمعه الناس.

والمدينة حرم حرمها رسول الله ﷺ، وهو مكتوب عندنا في أديم خولاني إن شئت أن نقرئكه فعلنا

فناداه مروان: أجل قد بلغنا ذلك (مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤ - ١٤١).

وأرسل الضحاك بن قيس كتاباً إلى النعمان بن بشير يسأله فيه عن السورة التي كان رسول الله ﷺ يقرؤها في صلاة الجمعة غير سورة الجمعة

فكتب إليه يقول كان يقرأ (هل أتاك) ، (صحيح مسلم) .

وكتب عمر بن الخطاب إلى عتبة بن فرقد كتاباً ذكر فيه أن رسول الله ﷺ نهى عن لبس الحرير (صحيح مسلم)

« ويقول مجاهد : رأيت عند عبد الله بن عمرو كتاباً فسألته ما هذا ؟ فقال هذه « الصادقة » فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ ، ليس في بيني وبين رسول الله ﷺ أحد »

ولما ولى رسول الله ﷺ عمرو بن حزم اليمن وبعثه إليها أعطاه أحكاماً مكتوبة في الفرائض والصدقات والديات « كنز العمال ٣ : ١٨٦ »

وتلقى عبد الله بن حكيم كتاباً من رسول الله ﷺ فيه أحكام الحيوانات الميتة (المعجم الصغير للطبراني . ص ٢١٧) .

ولما أراد وائل بن حجر أن يرجع لبلاده حضرموت ناوله رسول الله ﷺ كتاباً فيه أحكام الصلاة والصوم والربا والخمر وغير ذلك (الطبراني ص ٢٤٢)

ولما وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السؤال إلى أصحاب رسول الله ﷺ إن كان عند أحد منهم سنة عن النبي ﷺ في نصيب المرأة من دية زوجها — قام الضحاك بن سفيان فقال

نعم عندنا كتاب من رسول الله ﷺ يبين فيه ذلك (الدارقطني ٢ : ٤٨٥) [1] .

وقد بلغ عدد الصحابة رضي الله عنهم في آخر حياة النبي ﷺ عندما حج حجة الوداع مائة ألف ، ومن هؤلاء عشرة آلاف صحابي مذكورة أسماؤهم وأحوالهم في كتب التاريخ التي أفردت لتدوين أحوالهم خاصة

وإن التاريخ لم يهتم بتدوين أحوالهم ولم يحفظ لنا شئونهم إلا لأن كل واحد منهم حفظ شيئاً من أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتصرفاته وهديه وسيرته .

---

(١) انظر « السنة قبل التدوين » والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، ورجال الفكر والدعوة

لقد توفى رسول الله ﷺ سنة ١١ من الهجرة النبوية ، وبقى فريق من كبار الصحابة بعده إلى سنة أربعين ، وبقى بعد ذلك من الصحابة الذين كانوا أحداثا فى حياة النبى ﷺ عدد غير قليل فلما انقرض ذلك الجيل لم يبق من الصحابة أحد ، وانطفأ كل سراج أوقد بنور النبوة .

وإليكم أسماء آخر من مات من الصحابة والبلاد التى ماتوا فيها ، وسنوات وفاتهم :

آخر الصحابة موتاً	المدن التى توفوا فيها	سنة الوفاة
١ – أبو أمامه	الشام	٨٦
٢ – عبد الله بن الحارث بن حزء	مصر	٨٦
٣ – عبد الله بن أبى أوفى	الكوفة	٨٧
٤ – السائب بن يزيد	المدينة	٩١
٥ – أنس بن مالك	البصرة	٩٣

وأنس بن مالك هذا الذى كان آخر من بقى من الصحابة كان الخادم لرسول الله ، ﷺ استمر فى خدمته عشر سنوات متوالية

ومعظم هذه الثروة الحديثة كما يقول الأستاذ الجليل أبو الحسن الندوى قد كتب ودون بأقلام رواة فى العصر الأول ، وقد يزيد ما حفظ فى الكتب والدفاتر كتابة وتحريراً فى العصر النبوى وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم على عشرة آلاف حديث فإذا جمعت صحف ومجاميع أبى هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعلى ، وابن عباس رضى الله عنهم فيمكن أن يقال إن ما ثبت من الأحاديث الصحاح واحتوت عليه مجاميعه ومسانيدها قد كتب ودون فى عصر النبوة وفى عصر الصحابة قبل أن يدون الموطأ والصحاح بكثير .

جمعت السنة إذن - جميعها تقريباً - فى عهد الرسول ﷺ وعهد الصحابة

جمعت دون ترتيب ولا تنسيق .

جمعت متفرقة متناثرة يكتب هذا الحديث والحديثين ، ويكتب الثانى المائة ومائتين ، ويزيد الثالث عن ذلك ، ويعنى الرابع من حفظه على الآخرين . وهكذا . وفى ذلك لم يكن لأحد اهتمام بالتنصيف أو التنسيق

يقول الأستاذ العالم الورع المتثبت أبو الحسن الندوى فى كتابه « رجال الفكر والدعوة » ما يلى :

وإذا جمعت هذه الصحف والمجاميع ، وما احتوت عليه من الأحاديث - كونت العدد الأكبر من الأحاديث التى جمعت فى الجوامع والمسانيد والسنن فى القرن الثالث .

وهكذا يتحقق أن المجموع الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله - من غير تقدم وترتيب - فى عهد رسول الله ﷺ . وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم

وتحدث الأستاذ أبو الحسن الندوى عن الوهم الشائع بين الناس من أن السنة لم تدون إلا فى القرن الثالث ، ويعلل هذا الوهم تعليلا منطقياً فيقول

وقد شاع فى الناس - حتى المثقفين والمؤلفين - أن الحديث لم يكتب ولم يسجل إلا فى القرن الثالث الهجرى ، وأحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب ودون فى القرن الثانى

ولم ينشأ ذلك الغلط إلا عن طريقين

الأولى : أن عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدونى الحديث فى القرن الثانى ، ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت فى القرن الأول ، لأن عامتها فقدت وضاعت مع أنها اندمجت وذابت فى المؤلفات المتأخرة ،

الأخرى : أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الصحيحة الهائل الذى لا يتصور أن يكون قد جاء فى هذه المجاميع الصغيرة التى كتبت فى القرن الأول ، مع أن عدد الأحاديث الصحيحة غير المتكررة المتجردة من المتابعات والشواهد لا يزال قليلا .

وقد نبه على ذلك العلامة مناظر أحسن الكيلانى رئيس القسم الدينى سابقا فى

الجامعة العثمانية بحيدر أباد في كتابه العظيم « تدوين الحديث » يقول رحمه الله :

وقد يتعجب الإنسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية فيقال . إن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبعمائة ألف حديث .

وكذلك يقال عن أبي زرعة

ويروى عن الإمام البخاري أنه كان يحفظ مائتي ألف من الأحاديث الضعيفة ، ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة

ويروى عن مسلم أنه قال جمعت كتابي من ثلثمائة ألف حديث ولا يعرف كثير من المتعلمين فضلا عن العامة أن الذي يكون منشأ لعدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التي عني بها المحدثون .

فحديث « إنما الأعمال بالنيات » مثلا يروى من سبعمائة طريق

فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد بقي عدد قليل من الأحاديث

فالجامع الصحيح للبخاري لا تزيد الأحاديث التي رويت بالسند الصحيح فيه على ألفين وستمائة وحديثين

وأحاديث مسلم يبلغ عددها أربعة آلاف حديث

وهكذا لا يبلغ عدد الأحاديث المروية في كتب الصحاح الستة ، ومسند أحمد ، وكتب أخرى خمسين ألف حديث ، منها الصحيح ، ومنها السقيم ، ومنها المتفق عليه ومنها المتكلم فيه

وقد صرح الحاكم أبو عبد الله — الذي يعد من المتساهلين المتوسعين — أن الأحاديث التي في الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف « توجيه النظر ص ٩٣ »

ويقول الأستاذ

ولم ينتصف القرن الثاني حتى كانت حركة الجمع والتدوين اشتد وأقوى ، وكان ممن سبق إليها من رجال هذا القرن .

ابن شهاب الزهري (مات عام ١٢٤ هـ)

وابن جريج المكي (مات عام ١٥٠ هـ)

وابن إسحق (مات عام ١٥١ هـ).

ومعمر اليمني (مات عام ١٥٣ هـ).

وسعيد بن أبي عروبة المدني (مات عام ١٥٦ هـ).

والربيع بن صبيح (مات عام ١٦٠ هـ).

وسفيان الثوري (مات عام ١٦١ هـ).

ومالك بن أنس (مات عام ١٧٩ هـ).

والليث بن سعد (مات عام ١٧٥ هـ).

وابن المبارك (مات عام ١٨١ هـ)

ثم تتابع الناس [1]

ليس من همنا في هذا التفصيل أن نتابع السنة في تدوينها ، وإنما أردنا أن نوضح توضيحاً شافياً فكرة أن السنة دونت في عهد الرسول ﷺ وعهد الصحابة رضوان الله عليهم ، وأظن أنه قد استبان الآن الأمر كما لا يحتاج إلى مزيد ، وشكر الله للباحثين الأعلام المتصدرين الذين استندنا إليهم في هذا البحث .

---

(١) انظر كتاب رجال الفكر والدعوة لأبي الحسن الندوي.

الفصل الثالث

المحدثون في جهادهم

وفي ضوء ما سبق قد يتساءل بعض الناس: هل معنى ذلك أنه لم تحدث محاولات للوضع، أو حدث وضع بالفعل وتزييف واختراع في السنة؟ والواقع أن من يزعم أن السنة – على مجرى التاريخ – قد خلت من الوضع إنما ينكر حقائق ثابتة:

لقد حاول الكثيرون وضع أحاديث على لسان الرسول ﷺ، حاولوا ذلك لأسباب مختلفة منها:

١ – أن بعض الناس كذابون بطبيعتهم اتخذوا الكذب هواية، لا يستقيم أمرهم إلا على الكذب، فكذبوا على رسول الله ﷺ، وإذا كان من المعروف في جميع الأديان أن بعض الناس يكذب على الله فإن من الأمور التي تحدث أن يكذب بعض الناس على رسول الله ﷺ.

٢ – وبعض الناس يسيطر عليه مذهب من المذاهب أو نزعة من النزعات، ويتشيع لذلك حتى يملأ عليه أقطاره، فيكذب على رسول الله ﷺ تأسيساً لمذهبه، وتأكيداً لنزعته، وإرضاء لهواه.

٣ – وبعض الناس دخل في الإسلام كرهاً للإسلام، دخله ليتآمر عليه، دخله ليكون في ظروف أكثر ملاءمة للتآمر عليه، فكذب على رسول الله ﷺ إفساداً للمبادئ الإسلامية الصحيحة، وتزييفاً لها.

٤ – وبعض الناس استباح الكذب على رسول الله ﷺ في سبيل موعظة الآخرين وهدايتهم، ورأى أن غايته التهذيبية تبيح له ركوب هذا المركب الفاسد!

هذه هي كل أو أكثر الأسباب التي دعت إلى وضع الأحاديث والكذب على رسول الله ﷺ.

ولكن ذلك لم يكن في السنة بدعاً من الأمر.

فهذه الأسباب في جملة كانت ولا تزال الأسباب لتزييف التاريخ.

إن التاريخ – منذ عرف – لم يخل من نحو من التي تحاول وضعه على غير ما كان

عليه بالفعل ، وتلوينه على الصورة التي يريد بعض الناس – لو ملوكاً أو أمراء أو زعماء على أي وضع كانوا – أن يكون عليها

ولكن تزييفهم للتاريخ لم يمنع من ظهور الحقائق ، وكذبهم على التاريخ لم يمنع من بيان الحق ومعرفة الناس له

ولقد وضع المؤرخون المحدثون أصولا للنقد ، وعلامات للحوادث المزيفة وقواعد لمعرفة الحقيقة

ولقد استعانوا في سبيل معرفة الصحيحة بالنقد ، وبالحوادث اليقينية المتواترة ، وبالشهود العدول ، وبالمقارنات :

لقد استعانوا بالنقد الداخلي والنقد الخارجي ، ووصلوا بذلك إلى الحقائق التي يطمئنون إليها برغم ما يفصل بينهم وبين مكان الأحداث من آلاف الأميال ، وبرغم ما يفصل بينهم وبين أزمنة الحوادث من عشرات القرون

ومع كل ما حاوله المؤرخون من جهد ، ومع كل ما وضعوه من قواعد للوصول إلى اليقين فإنهم – والحق يقال – لم يصلوا في كل ذلك إلى ما وصل إليه سادتنا المحدثون رضوان الله عليهم ، وذلك للأسباب الآتية

١ – لقد بدأ تسجيل السنة في عهد الرسول ﷺ ، وتم تسجيلها – كلها تقريباً – في عهد الصحابة رضوان الله عليهم . فكان قرب الزمن إذن من عوامل صحة السنة

٢ – وسجل أكثرها في المكان نفسه الذي كان فيه رسول الله ﷺ ، أو في أمكنة قريبة نسبياً منه

٣ – ولقد روى عن الرسول ﷺ أحاديث كثيرة تحذر من الوضع في السنة على الأقل ، مثل حديث

« من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »

وهذه ملاحظات نذكرها لا نقول إنها حاسمة فيما يتعلق بأمر صحة ما روى ، ولقد قدمنا أن الوضع وجد بالفعل – ولكننا نذكرها في مقابلة ما يحاول بعض الناس التهويل به من أمر التزييف والوضع

أما الأمور الحاسمة التي تحمد لهم في النتائج والآثار التي وصل إليها السلف الصالح فيما يتعلق بأمر السنة فتبدو في أسسها

١ - إيمان هؤلاء السلف بأنهم في عنايتهم بالسنة بما صح منها، وبما وضع فيها إنما يجاهدون في سبيل الله

لقد كانوا مؤمنين إيماناً عميقاً ثابتاً في عقولهم وجناناً دينياً أن يخلصوا سنة رسول الله ﷺ من كل ريب، وأن ينقوها من الكدورات في إخلاص مخلص، وفي صورة من اليقين لا يفترون في الوصول إليه

ولقد كانوا يعدون بالآلاف، ويمتازون كما يقول أبو الحسن الندوي بعلو نشاطهم، وقوة احتمالهم وصبرهم وقوة ذاكرتهم وحفظهم. وقد تدفق سيلهم من بلاد العجم. وقد ملكت قلوبهم وعقولهم الرغبة الشديدة في جمع الحديث، وشغفوا به شغفاً حال بينهم وبين الشهوات، فطاروا في الآفاق، وتقلبوا في البلاد في البحث عن الروايات المختلفة، والأسانيد الصحيحة

وكان لهم في ذلك همم وعزائم لم تعرفها عن أمة من الأمم في التاريخ كله. يدل على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدثين من تجوال في البلاد، والسفر في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه

فقد روي أن البخاري صاحب الصحيح بدأ رحلته العلمية وهو لا يزال في الرابعة عشرة من سنه. وقد زار البلدان الإسلامية ما بين بخارى ومصر وشيوخه

وروي عن أبي حاتم الرازي (م ٢٧٧ هـ) قال:

«أول ما رحلت أقمت سبع سنين، ومشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ، ثم تركت العدد وخرجت من البحرين إلى مصر، ثم إلى الرملة ماشياً، ثم إلى طرسوس ولي عشرون سنة»

وقد سمع محدث الأندلس ابن حيون (م ٣٧٤ هـ) الحديث في الأندلس والعراق، والحجاز واليمن. وهكذا قطع قارة أفريقيا من طنجة إلى مصر، وعبر البحر الأحمر

ومن المحدثين من سافر في قارة أفريقيا وآسيا وأوروبا في طلب الحديث، وهكذا

انتظمت رحلته العلمية ثلاث قارات من القارات الكبرى

وكان كثير من المحدثين يخرج من الأندلس أقصى الغرب في العالم المتمدين المعروف يومئذ، ويبلغ أقصاه في الشرق إلى خراسان أو بالعكس. ومطالع في تذكرة الحفاظ للذهبي تدهش لطموح هؤلاء الرجال وتحملهم المشاق في طلب العلم

٢ - ولقد استعمل أئمة النقد الداخلي والنقد الخارجي، بل لقد استعملوا ما يمكن أن نسميه المشاركة الوجدانية، أو بعبارة أدق: استرواح رائحة النبوة، أو استلهام طابع رسول الله ﷺ في الحديث، أو استبصار القلب، وإلهام الروح، وإشراق البصيرة في المعرفة:

يقول الربيع بن خيثم:

« إن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار تعرفه به وإن من الحديث حديثاً له ظلمة كظلمة الليل تعرفه به [1] »

وهذه الطريقة تعتبر في العصر الحاضر لأوربي من مبتدعات القرن العشرين لقد استعملها أئمتنا ووضعوا لها الأصول، وبينوا كيفيتها، ولم يتركوها للأهواء والمشارب، ومن أدق التعبيرات عنها ما يقوله ابن القيم

سئلت: هل يمكن معرفة الموضوع بضابط من غير أن ينظر في سنده؟ فهذا سؤال عظيم القدر

وإنما يعلم ذلك من تضلع في معرفة السنن الصحيحة، واختلطت بلحمه ودمه، وصار له فيها ملكة، وصار له اختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار، ومعرفة رسول الله ﷺ وهديه فيما يأمر به وينهى عنه، ويخبر عنه ويدعو إليه، ويحبه ويكرهه، ويشرعه للأمة بحيث كأنه مخالط للرسول ﷺ كواحد من أصحابه

ومثل هذا يعرف من أحوال الرسول ﷺ وهديه وكلامه وما لا يجوز ما لا يعرفه غيره

(١) الحاكم في معرفة علوم الحديث ص ٦٢

وهذا شأن كل متبع مع متبوعه ، فلا أخص به الحرص على تتبع أقواله وأفعاله في العلم به ، والتمييز بين ما يصح أن ينسب إليه وما لا يصح أو ما ينسب لمن لا يكون كذلك .

وهذا شأن المقتدين مع أئمتهم يعرفون من أقوالهم ونصوصهم ومذاهبهم وأساليبهم ومشاربهم ما لا يعرفه غيرهم . وفي هذه الطريقة أيضاً يقول ابن دقيق العيد .

« وكثيراً ما يحكمون بذلك (أي بالوضع) باعتبار يرجع إلى المروي وألفاظ الحديث . وحاصله أنها حصلت لهم لكثرة محاولة ألفاظ النبي ﷺ هيئة نفسانية وملكة يعرفون بها ما يجوز أن يكون من ألفاظه وما لا يجوز » .

ويقول ابن الجوزي :

الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم ، وينفر منه قلبه في الغالب

٣ – وإنه لمن المعروف أن عناية سلفنا الصالح لم تكن موجهة إلى جمع الحديث وتدوينه فحسب ، وإنما تعدت ذلك – كما يقول الأستاذ خليل أبو الحسن الندوي – إلى الوسائط التي وقعت في رواية الحديث – وهم الرواة الذين رووا هذه الأحاديث

فعنوا بمعرفتهم ومعرفة أسمائهم وأسماء آبائهم ، وحوادث حياتهم وأخلاقهم ومكانتهم في الأمانة والصدق والحفظ

وهكذا أصبح الذين اتصلوا بالشخصية الكريمة للنبي وعد الله له بالخلود وبقاء الذكر وانتشار الاسم (ورفعنا لك ذكرك) أصبح الذين اتصلوا بها موضوع الدارسين والباحثين . وخرجوا من زوايا الخمول واستحقوا الحياة والاشتهار ، وأصابهم فيض من حياة هذه الشخصية الخالدة ، فحيوا وظهروا ، واختص التاريخ بأسمائهم وأحوالهم ، ورآه حقاً على نفسه . وهكذا ظهر علم أسماء الرجال في عالم الوجود ، وكان من مفاخر هذه الأمة التي لا تشاركها فيها أمة من الأمم ، قال الدكتور « اسبرنجر » Sprenger في مقدمته الإنجليزية على كتاب الإصابة في أحوال الصحابة للحافظ بن حجر العسقلاني ما ترجمته :

« لم تعرف أمة في التاريخ ، ولا توجد الآن على ظهر الأرض وقفت لاحترام فن من أسماء الرجال الذي يستطيع بفضله أن نقف على ترجمة خمسمائة ألف (نصف مليون) من الرجال »

ولم يعن المحدثون بتعريف رجال الحديث فحسب ، بل التزموا الصدق والصراحة في تعريفهم ، وجمعوا كل ما يتصل بأخلاقهم وعاداتهم ، وما يدل على قوتهم وضعفهم واحتياطهم وتساهلهم وتقواهم وعلمهم وذاكرتهم ، وجمعوا كل ما قاله معاصروهم فيهم ، ولم يداروا ولم يجاملوا في ذلك ، ولم يهابوا أحداً ، ولو كان بعضهم أميراً مهيباً أو شيخاً وقوراً

وقد روى التاريخ في ذلك طرائف تدل على شدة هؤلاء الناقدين وعلمهم بقوله تعالى

(كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين [1])

وتدقيقهم

قال أبو داود كان أبو وكيع على بيت المال ، فكان وكيع (م ١٩٧) إذا روى عنه قرنه بآخر

وقد ترك معاذ بن معاذ العنبري (م ١٩٦ هـ) رواية المسعودي لأنه رآه يطالع الكتاب ، يعني قد تغير حفظه وقد قدم إليه عشرة آلاف دينار ، وطلب منه أن يسكت عن فلان فلا يتكلم فيه بجرح ولا تعديل ، فأبى ورفض هذا المال العظيم ، وقال : « لا أكتم الحق » !

وهذا قليل من كثير جداً يدل على أمانة علماء الحديث ورجاله وتدققهم في موضوعهم ، وتحريهم الحق والعدل في شهاداتهم ، فهل في تاريخ العلم نظير هذه الأمانة والتدقيق ؟

• • •

وما من شك في أن سلفنا الصالح بدأ بالاهتمام بالإسناد

أي بالاهتمام بهؤلاء الذين رووا الحديث واحداً عن واحد وصلوا به إلى رسول

---

(١) سورة النساء به ١٣٥

لله ﷺ ، أو إلى أحد الصحابة رضوان الله عليهم

ولقد اهتموا بالإسناد إلى درجة أن جعلوه من الدين

يقول الإمام الزهري

« الإسناد من الدين »

لقد بحثوا عن هؤلاء الذين جاء حديث رسول الله ﷺ عن طريقهم

لقد بحثوا عن ميلادهم ، وعن وفاتهم ، وعن أخلاقهم ، وعن عفتهم وسهوهم ، ويقظتهم وصحوهم ، وعن ذاكرتهم ونسيانهم ، لقد بحثوا عن كل ما يتصل بهم في ألفاظهم التي ينطقون بها ، وفي سلوكهم الذي يسيرون عليه ، وفي سمتهم من ناحية الوقار والخفة ، وفي شئونهم ومشاربهم ، وفي نزعاتهم ، وفي ميولهم على وجه العموم

لقد اخترع المسلمون علم تشريح كامل وضعوا به على مائدة المعرفة ما يقرب من نصف مليون من البشر

لقد اخترعوا علماً لم يخترعه سابقوهم ، حتى بالنسبة لكتبهم المقدسة ، ولم يصل إليه لاحقوهم حتى في العصر الحديث

علماً يقول عنه المستشرق الألماني « اشبرنجر » في تصديره لكتاب الإصابة لابن حجر حينما كان في كلكتا ١٨٥٢ – ١٨٦٤ الكلمة التي سبق أن ذكرناها ، والتي تعبر عن الحقيقة الواقعة

ولقد قيل مرة لابن المبارك : « هذه الأحاديث المصنوعة ؟ »

فقال : « يعيش لها الجهابذة »

هؤلاء الجهابذة قاموا بما عليهم خير قيام

يتحدث صاحب كتاب « تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل » عن بعض ما قام به هؤلاء الجهابذة فيقول

« التمييز بين الرواة » قال أبو محمد

فلما لم نجد سبيلا إلى معرفة شيء من معاني كتاب الله ، ولا من سنن رسول الله ﷺ إلا من جهة النقل والرواية ، وجب أن نميز بين عدول الناقلة والرواة وثقاتهم

وأهل الحفظ والتثبيت والإتقان منهم ، وبين أهل الغفلة والتشتت وسوء الحفظ والكذب ، واختراع الأحاديث الكاذبة

ولما كان الدين هو الذي جاءنا عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ بنقل الرواة حق علينا معرفتهم ، ووجب الفحص عن الناقلة والبحث عن أحوالهم ، وإثبات الذين عرفناهم بشرائط العدالة والتثبت في الرواية ، مما يقتضيه حكم العدالة في نقل الحديث وروايته بأن يكونوا أمناء في أنفسهم ، علماء بدينهم ، أهل ورع وتقوى وحفظ للحديث وإتقان به وتثبت به

وأن يكونوا أهل تمييز وتحصيل ، لا يشوبهم كثير من الغفلات ولا تغلب عليهم الأوهام فيما قد حفظوه ووعوه ، ولا يشبه عليهم بالأغلوطات

وأن يعزل عنهم الذين جرحهم أهل العدالة ، وكشفوا لنا عن عوراتهم في كذبهم ، وما كان يعتريهم من غالب الغفلة وسوء الحفظ وكثرة الغلط والسهو والاشتباه ، ليعرف به أدلة هذا الدين (وأعلامه ١) وأمناء الله في أرضه على كتابه وسنة رسول الله ﷺ ، وهم هؤلاء أهل العدالة ، فيتمسك بالذي رووه ويعتمد عليه ، وليعرف أهل الكذب تخرصاً وأهل الكذب وهماً ، وأهل الغفلة والنسيان والغلط ورداءة الحفظ ، فيكشف عن حالهم وينبئ عن الوجوه التي كان يجري روايتهم عليها ، إن كذباً فكذب ، وإن وهماً فوهم ، وإن غلطاً فغلط .

طبقات الرواة : ثم احتيج إلى تبيين طبقاتهم ومقادير حالاتهم ، وتباين درجاتهم ، ليعرف من كان منهم في منزلة الانتقاد والجهبذة والتنقير والبحث عن الرجال والمعرفة بهم ، وهؤلاء هم أهل التزكية والتعديل والجرح .

ويعرف من كان منهم عدلاً في نفسه من أهل التثبيت في الحديث والحفظ له والإتقان فيه ، فهؤلاء هم أهل العدالة

ومنهم الصدوق في روايته ، الورع في دينه ، الثبت الذي يهم أحياناً وقد قبله الجهابذة النقاد ، فهذا يحتج بحديثه أيضاً

ومنهم الصدوق الورع المغفل الغالب عليه الوهم والخطأ والسهو والغلط ، فهذا

يكتب من حديثه الترغيب والترهيب والزهد والآداب ، ولا يحتج بحديثه في الحلال والحرام .

ومنهم من قد ألصق نفسه بهم ودلسها بينهم ، ممن قد ظهر للنقاد العلماء بالرجال منهم الكذب ، فهذا يترك حديثه وتطرح روايته ويسقط ، ولا يشتغل به ، اهـ .

ولقد كان هؤلاء جهابذة في سبيل الدين ينسون آباءهم في أمس الناس بهم نصيحة للمسلمين ، وتروى منهم عن زيد بن أبي أنيسة كما يذكر صحيح مسلم بشرح النووي - يقول : « لا تأخذوا عن أخي » .

ويسأل علي بن المديني عن أبيه فيقول :

« سلوا عنه غيري » .

فيعيدون السؤال من جديد ، فيطرق ، ثم يرفع رأسه ، ويقول :

« هو الدين ، إنه ضعيف »

وكان أمر وكيع بن الجراح طريفاً : فقد كان أبوه رجلا صالحاً ، لا مأخذ عليه ، غير أنه كان على بيت المال ، ومن أجل وظيفته هذه كان ابنه - إذا روى عنه - يقرن معه آخر .

لقد كان سلفنا رضوان الله عليهم يعنون بالإسناد عناية فائقة ، حتى لقد قال سفيان الثوري رضي الله عنه :

« الإسناد سلاح المؤمن فإذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل ! » [1] .

ويفسر الدكتور ناصر الدين الأسد العناية بالإسناد تفسيراً صادقاً فيقول ص ٢٢٦ من كتابه النفيس « مصادر الشعر الجاهلي » :

« ونرى أن مرد التزام الإسناد المتصل في رواية الحديث إلى أمرين : أمر داخلي ، وآخر خارجي .

أما الداخلي فمنبعه من نفس الراوي ، ومصدره شعوره بالتحرج الديني ، وذلك

---

(١) أنظر كتاب السنة قبل التدوين ص ٢٢٣

أنه يقل كلاماً من كلام رسول الله ﷺ ، وهو الذى قال فى حديثه المشهور « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »

وفى الإسناد المتصل ما يجعل المحدث يطمئن إلى أن غيره من شيوخه وشيوخ شيوخه ، ثم التابعين والصحابة ، يشاركونه فى تحمل تبعة هذا الحديث ونقله ، وأنه لا يستقل وحده بحمل هذا العبء ، وأن تبعته لا تعدو النقل الأمين لما سمعه عن شيخ ثقة ثبت

وأما الأمر الخارجى فمرجعه إلى سامعى الحديث من المحدث ، وذلك أن الحديث يتضمن جزءاً كبيراً من السنة ، أو هو السنة كلها ، وهو من أجل ذلك مصدر من مصادر التشريع الإسلامى ، بل إنه هو المصدر الثانى الذى يلى فى القيمة كتاب الله ، فلذلك كان ما رأيت منهم من التدقيق والتحقيق ، ومما يبعث الطمأنينة فى نفوس السامعين ، ويوحى إليهم بالثقة فى حديث المحدث أن يصل بين عصره وعصر الرسول الكريم سلسلة متصلة من الرواة المحدثين ، كلهم يشهد أنه سمعه ممن قبله حتى يصل الإسناد إلى الصحابة فالرسول .

مصادر الشعر الجاهلى ٢٥٨ : ٢٩٥ ا هـ.

ودخل فى هذا الباب — باب الإسناد — نقد الرواة وتصنيفهم إلى فئات يأخذون من بعضهم ويتوقفون عن بعض ، ويعلنون على ملأ من الناس كذب بعض وكان لهم فى هذا المجال شعور مرهف ، أو شعور مترف إذا أمكن هذا التعبير

يقول الإمام مالك رضى الله عنه

لا يؤخذ العلم عن أربعة

١ — رجل معلن بالسفه ، وإن كان أروى الناس

٢ — رجل يكذب فى أحاديث الناس ، وإن كنت لا أتهمه أن يكذب على رسول الله ﷺ .

٣ — وصاحب هوى يدعو الناس إلى هواه

٤ — وشيخ له فضل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث به

ولقد كان يحيى بن سعيد القطان رحمه الله يترك حديث الكثير ممن يظن بعض الناس بهم الخير، فقيل له :

« أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله يوم القيامة ! »

فقال : لأن يكون هؤلاء خصمي أحب إلى من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ ، يقول : لم لم تذب الكذب عن حديثي ؟

لقد اتفق المحدثون على ألا يأخذوا الحديث عن

١ - الكذابين على رسول الله ﷺ . بل لقد اختلفوا في كفر هؤلاء . بل لقد إختلفوا في قبول الله لتوبتهم . ويكفي أن يعرف الكذب من أحدهم مرة واحدة على رسول الله ﷺ ، فيسقط ذلك جميع أحاديثه .

على أن الكذب على الناس كان في ترك حديث الكذب ، حتى لو كان يتحرج من الكذب على رسول الله ﷺ ، كما ذكر الإمام مالك رضي الله عنه فيما سبق

ولأئمتنا في تعقب الكذابين طرائف :

يقول الأستاذ السباعي في كتابه النفيس « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » :

مبينا بعض علامات الوضع في السند . ومنها أن يروي الراوي عن شيخ لم يثبت لقاه له ، أو ولد بعد وفاته ، أو لم يدخل المكان الذي ادعى سماعه فيه كما ادعى مأمون بن أحمد الهروي أنه سمع من هشام بن عمار

فسأله الحافظ بن حبان

متى دخلت الشام :؟

قال : سنة خمسين ومائتين .

قال بن حبان : فإن هشاماً الذي تروي عنه مات سنة خمس وأربعين ومائتين

وكما حدث عبد الله بن إسحق الكرماني عن محمد بن أبي يعقوب ، فقيل له : مات محمد قبل أن تولد بتسع سنين .

وكما حدث محمد بن حاتم الكشي عن عبد بن حميد ، فقال الحاكم أبو عبد الله

هذا الشيخ سمع من عبد بن حميد بعد موته بثلاث عشرة سنة !

وفي مقدمة مسلم : أن المعلى بن عرفان قال :

حدثنا أبو وائل ، قال : خرج علينا ابن مسعود بصفين ، وقال أبو نعيم يعني الفضل بن دكين حاكيه عن المعلى : أتراه بعث بعد الموت ! وذلك لأن ابن مسعود توفي سنة اثنتين أو ثلاث وثلاثين ، قبل انقضاء خلافة عثمان بثلاث سنين .

ولا شك أن العمدة في مثل هذه الحالة على التاريخ : تاريخ موالد الرواة ، وإقامتهم ورحلاتهم ، وشيوخهم ، ووفاتهم . ولذلك كان علم الطبقات قائما بذاته علما لا يستغني عنه نقاد الحديث .

قال حفص بن غياث القاضي : إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين يعني سنه : وسن من كتب عنه .

وقال سفيان الثوري : لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التواريخ . اهـ

ومن أعجب ما روي في ذلك ، ما يرويه أبو أحمد بن عدي الحافظ عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الجامع الصحيح ، قال :

« سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون : إن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر ، وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشرة أنفس لكل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين .

فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخاري :

« لا أعرفه » .

فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ والبخاري يقول :

« لا أعرفه » .

وكان العلماء ممن حضروا المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون

« فهم الرجل »

ومن كان لا يدرى القصة يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الحفظ

ثم انتدب رجل من العشرة أيضاً ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة

فقال

« لا أعرفه »

فسأله عن آخر فقال

« لا أعرفه »

فلم يزل يلقى عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته والبخارى يقول

« لا أعرفه »

ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخارى لا يزيدهم على أن يقول : « لا أعرفه »

فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا ، وصوابه كذا ، وحديثك الثانى كذا ، وصوابه كذا ، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة ، فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه . وفعل بالآخرين مثل ذلك

فأقر الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل »

قال الحافظ ابن حجر بعد ما حكى هذه القصة « قلت : هنا يخضع للبخارى ، فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب ، فإنه كان حافظاً ، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة »

ونختم هذا الفصل بقول الأستاذ العلامة الكبير الشيخ شبلى النعمانى : « لقد أرادت الأمم الأخرى من غير المسلمين أن تجمع فى أطوار مختلفة أحوال رجالها ورواتها ممن كان قد فات عليهم زمن طويل ، وانقضى بينها وبينهم عهد بعيد ، فحاولوا كتابة شئون أمة قد ذهبت ، ولم يميزوا بين غث ذلك الماضى وسمينه ، وصحيحه

وسقيمه ، بل لم يعلموا أحوال رواة تلك الأخبار ولا أسماءهم ، ولا تواريخ ولادتهم .

فاكتفوا بأن اصطفوا من أخبار هؤلاء الرواة المجهولين ورواياتهم ما يوافق هواهم ، ويلائم بيئتهم ، وينطبق على مقاييسهم .

ثم لم يمض غير زمن يسير حتى صارت تلك الخرافات كالحقائق التاريخية المدونة في الكتب وعلى هذا المنهاج السقيم صنعت أكثر الكتب الأدبية مما يتعلق بالأمم الخوالي ونشوئها ، والأقوام القديمة وأخبارها ، والأديان السالفة ومذاهبها ورجالها

أما المسلمون فقد جعلوا لرواية الأخبار والسير قواعد محكمة يرجعون إليها ، وأصولا متقنة يتمسكون بها

فلم يأخذوا ألا تروى واقعة من الوقائع إلا عن الذى شهدها ، وكلما بعد العهد على هذه الواقعة وجب تسمية من نقل خبرها عن الذى شهدها ، ثم تسمية من نقل ذلك الخبر عن الذى نقله عمن شهد ، وهكذا بالتسلسل من وقت الإشهاد بالواقعة والتحدث عنها إلى زمن وقوعها ، والتثبت عن أمانة هؤلاء الرواة ، وفقههم وعدالتهم وحسن علمهم للخبر الذى يروونه .

وإذا كانوا على خلاف ذلك وجب تنبيه أيضاً

وهذه المهمة من أشق الأمور ، ومع ذلك فإن مئات من المحدثين تفرغوا لها ، ووقفوا أعمارهم على تحرى ذلك واستقصائه وتدوينه ، وطافوا لأجله بالبلاد ورحلوا بين الأقطار باحثين دارسين لأحوال الرواة ، وكانوا يلقون المعاصرين لهم من الرواة لينقدوا أحوالهم

وإذا ضموا إلى سيرة فريق منهم سألوهم عما يعرفونه من أحوال الطبقة كانت قبلهم

وقد اجتمع من هذا المجهود العلمى العظيم علم مستقل من العلوم الإسلامية أطلق عليه فيما بعد عنوان (أسماء الرجال) ، فتيسر من أتى بعدهم أن يقفوا على أقدار مئات الألوف من الحفاظ والعلماء والرواة وغيرهم

الفصل الرابع

الوضاعون في العصر الحاضر

يقول الله تعالى

(يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)[١]

والفاسق هو الذي لا تتوفر فيه شروط العدالة ، ولقد وضع أئمتنا شروطا متعددة نذكر منها أن :

من شرط العدل أن يتوفر فيه الصدق بمعناه الأعم الأشمل الذي يدخل فيه عدم تزييف النص بزيادة أو نقصان ، والذي يدخل فيه أولا وبالذات عدم الكذب في الرواية ، وعدم الكذب في الحديث العادي

ولا نريد هنا أن نستقصي ما قيل في العدالة ، إنما نريد أن ننقل بعض نصوص لنرى فيما بعد تطبيقها على بعض المؤلفين المحدثين

ومن شيء دقة أسلافنا مصفقة مما قاله الشعبي وأقسم عليه ، وله مغزاه العميق في بيان مدى ما كان عليه أسلافنا رضي الله عنهم من تحر للصواب . يقول الشعبي

« والله لو أصبت تسعا وتسعين مرة ، وأخطأت مرة ، لعدوا على تلك الواحدة »

« وكان أسلافنا يعتبرون الإعلان عن الكذابين وفضحهم والتشهير بهم من الدين : يقول عبد الرحمن بن مهدي :

سألت شعبة ، وابن المبارك ، والثوري ، ومالك بن أنس عن الرجل يتهم بالكذب ، فقالوا

« انشره فإنه دين »

وعن يحيى بن سعيد قال : سألت سفيان الثوري ، وشعبة ، ومالكا ، وابن عيينة عن الرجل لا يكون ثبتا في الحديث ، فيأتيني الرجل ، فيسألني عنه قالوا : أخبر عنه ، إنه ليس بثبت

(١) سورة الحجرات آية ٦

ولقد قال رسول الله ﷺ :

« من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »

وهذا الذي يكذب على رسول الله فيتبوأ مقعده من النار فاسق بحكم التشهير به ، وهو فاسق قد سقطت عدالته ، ومن سقطت عدالته فإنه يجب على كل مؤمن أن لا يثق في حديثه ولا في رأيه أو نتائج بحثه .

ومن ثبت عليه الكذب أو الغش ، أو الزيادة في النص ، أو النقصان منه ، لتثبت الزيادة أو النقصان رأياً يتفق مع هواه ، ومع نزعاته — فإن كل من يفعل ذلك فقد سقطت عدالته .

على أن من يزيد في النص أو ينقص منه ، أو عرف عنه يتعمد ذلك لحظ من النفس أو لميل منه — فإنه من الناحية الإنسانية قد نزل إلى مرتبة تأنف الإنسانية السليمة منها ، وانحط إلى درجة تنفر الفطرة الطاهرة منها .

وبعد هذا نقول : إنه نشأ في زماننا هذا طائفة من الناس يزعمون أنهم من الباحثين على الأسلوب الحديث ، أسلوب النقد والتمحيص ، وشتان بين ما يزعمون

وما من شك في أن أسلوب النقد والتمحيص في الحديث وفي رواية الحديث أسلوب البحث العلمي بأدق ما يمكن أن تعبر عنه هذه الكلمة . إنه وجد حقاً عند أسلافنا من المحدثين ، إنهم هم أصحاب المنهج العلمي الدقيق في كتابة التاريخ ، إنهم المخترعون له ، ولا يزالون للآن أدق من اتبعه ، وطبقه في صدق . والمؤرخون الحديثون لم يصلوا بعد إلى ما وصل إليه منذ سنين المحدثون القدماء من الدقة المحكمة

ولا نريد أن نتعجل فنقول : إن هؤلاء الذين يزعمون في العصر الحاضر أنهم قد تخصصوا للبحث العلمي ليسوا من البحث العلمي في شيء ، وسنريث قليلاً حتى نطبق عليهم مقاييس أسلافنا في العدالة لنرى : هل كانوا أهلاً للثقة أو ليسوا بأهل لها !

لقد كان أسلافنا يكتفون بثبوت الكذب مرة واحدة على شخص ، فيسقطونه من قائمة العدول ، وقد ثبت مثل ذلك على هؤلاء الكتاب الحديثين فلنسقطهم من طبقة العدول ، ولنضعهم في قائمة الذين وصمهم الله بالفسق حين قال فيهم

﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ [1] .

لقد أراد قوم تحت تعلة البحث العلمي التشكيك في السنة ، بل هدم السنة رأسا ، وهؤلاء تقودهم أهواء مختلفة

أرأيت إلى مركب النقص في إنسان مغرور يطمع أن يتبوأ مركز القيادة الفكرية فلا تسعفه مواهبه القاصرة بالأصالة أو الاختراع أو الابتداع ، فيتجه إلى الحط من شأن الآخرين والنيل منهم . ويوجه كل النزعات الشيطانية فيه إلى تزييف في التاريخ ، ليحط من شأن قوم قد كتب لهم التاريخ في صحائفه الصحيح ما يبوئهم مكانة عليا في الخلق الكريم ، وفي الصدق الصادق ، وفي العمل الجاهد لإحياء سنة رسول الله ، ﷺ نشراً وتطبيقاً ، إذاعة ، واتباعاً ، فكانوا أئمة لقومهم ، وأئمة بعملهم ، وانتقلوا إلى العالم الآخر مرضياً عنهم من معاصريهم ومرضيا عنهم من الله إن شاء الله .

أرأيت إلى مركب النقص في إنسان مغرور كيف يحمله على الهجوم على صحابة رسول الله ، ﷺ الذين قال فيهم ، صلوات الله عليه وسلامه ، وهو المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، الكثير من المدح ، والكثير من الثناء ، والذين نهى رسول الله ﷺ أن يتناولهم غيرهم بالإساءة أو التحقير .

أرأيت إلى مركب النقص في إنسان مغرور كيف يحمله على حمل القلم ، لا ليرسم هداية قرآنية أو خلقاً سويا ، ولا ليثبت إيمانا أو يهاجم إلحاداً ، وإنما ليشوه هؤلاء الذين كرسوا حياتهم لخدمة السنة النبوية لا يبغون من وراء ذلك مالا ولا جاهاً ، ولقد عرض على أحدهم مبلغ ضخم من المال ليسكت - مجرد سكوت - عن محدث ، فلا يتعرض له بجرح أو تعديل ! لقد عرض عليه الكثير لا ليشهد زوراً ولا ليمدح من لا يستحق المدح ، وإنما ليهمل شخصا معينا ؛ ليصرف النظر عنه ، ليسقطه من قول ما يعتقد أنه الحق فيه ، فأبى وقال عن المحدث ما رأى أنه يوافق الحق والصواب .

---

(١) سورة الحجرات آية ٦

إن مركب النقص عند بعض المغرورين الذين حرمهم الله مواهب الفضلاء يحملهم على حمل القلم للنيل من بعض صحابة رسول الله ﷺ جرحاً، وقدحاً، وسباً وشتماً وتحقيراً وإساءة.

ومن أجل إرضاء ما بنفوسهم من نزعة تحقير كل فاضل، والنيل من كل كريم طاهر تراهم يزيفون التاريخ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ويكذبون متعمدين، ليصلوا إلى هدم من سجل التاريخ خلودهم فضلاء ممتازين.

ولننظر الآن إلى أي مدى يصل بهم تحريف الكلم عن مواضعه وتزييفه والكذب فيه إرضاء لنزعتهم الفاسدة. يقول المرحوم الأستاذ مصطفى السباعي في كتابه النفيس «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» متحدثاً عن الكذب والتحريف والبهتان لدى في كتاب «أضواء على السنة» لمؤلفه أبي رية:

١ - يقول في الهامش رقم ٣ من صحيفة ١٦٢ من كتابه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه:

«وكان قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب وكان يرويهما للناس» عن النبي» ثم نسب هذا القول إلى ابن حجر في فتح الباري ص ٦٦ ج

وعبارته في الفتح ليس فيها «عن النبي» وإنما زادها أبو رية، ونسبها إلى الحافظ ابن حجر، ليؤكد مفترياته على أحاديث صحابة رسول الله ﷺ الذي كان بعضهم يستمع إلى مسلمة أهل الكتاب يتحدثون عن أخبار الأمم الماضية فمنهم من كان ينقلها عنهم على أنها قصص متعلق بالماضين.

ولكن أبا رية كان يتهمهم بأنهم كانوا «ينسبونها» إلى النبي ﷺ، ولم يكتف بذلك البهتان حتى نسبه إلى الحافظ ابن حجر، وهو لم يقله قط، ولا يقوله مسلم يعرف ما كان عليه هذا الجيل الفذ في تاريخ الإنسانية من صدق اللهجة، واستقامة الدين، ووقوف عند حدود الله فيما أمر وفيما نهى، وهم يعلمون أن الله لعن الكاذبين ومقتهم. وليس أقر لعيون أعداء الله والإسلام من أن يرموا بما رماهم به «أبو رية».

٢ – ونقل في ص ١١٥ عن ابن كثير في البداية والنهاية (ص ٢٠٦ جـ ٨ أن عمر رضي الله عنه قال لكعب الأحبار:

لتتركن الحديث « عن رسول الله » أو لألحقنك بأرض القردة

وعبارة ابن كثير: لتتركن الحديث « عن الأول » وليس فيها « عن رسول الله ».

ولكن « أمانة » أبي رية أجازت له تحريف هذا النص ، ليثبت ما ادعاه من أن كعبا كان يحدث عن رسول الله ﷺ وأن الصحابة كانوا يأخذون عنه الحديث.

وهذه الفرية نسجها المستشرقون اليهود أمثال « جولد زيهر » ليدعوا تأثير اليهودية في الدين الإسلامي ، فتلقفها منهم « المحقق العلمي » أبو رية ، وتبرع لهم بإثبات الأدلة عن طريق « التزوير » !

٣ – ونقل في ص ١٦٣ عن البداية والنهاية لابن كثير ص ١٠٦ جـ ٨ أن عمر رضي الله عنه هدد أبا هريرة بترك الحديث أو ليلحقنه بأرض دوس « أو بأرض القردة ».

وهذه الزيادة « أو بأرض القردة » من مفتريات أبي رية على عمر وابن كثير معاً. وإنما قالها عمر لكعب كما مر تهديده في ترك الحديث عن « الأول » أي الأمم الماضية ، كما نقل ذلك ابن كثير.

٤ – نقل أبو رية في عدة مواضع من كتابه عن أبي هريرة مطاعن في تكذيب عمر وعثمان وعلي وعائشة وغيرهم لأبي هريرة ، ثم نسبها إلى ابن قتيبة في « تأويل مختلف الحديث » وترجم أبو رية لابن قتيبة في هامش كتابه بأنه كان لأهل السنة كالجاحظ للمعتزلة في قوة البيان والحجة.

وقصده من ذلك تأكيد تضليل القارئ بأن رجلاً كابن قتيبة له مكانته بين أهل السنة يطعن في أبي هريرة هذا الطعن دليل على صحة ما يذهب إليه أبو رية من تكذيب أبي هريرة فيما يرويه عن رسول الله ﷺ.

مع أن ابن قتيبة ألف كتابه « تأويل مختلف الحديث » للرد على من طعن في أئمة الحديث منذ الصحابة حتى عصره ، وأخبر أنهم هم رؤساء الاعتزال كالنظام وأمثاله

وآخرين . ثم ساق ابن قتيبة شتائم النظام لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي هريرة وغيرهم من كبار الصحابة ، ثم ذكر الرد عليه وتفنيد ما قاله عن كل واحد من هؤلاء .

فنجد « أبو رية » ما قاله النظام في أبي هريرة ونسبه إلى ابن قتيبة ، وتعامى عن رد ابن قتيبة على النظام . وهكذا تكون الأمانة « لأمانة العلمية » عند هذا « المحقق العلمي » !

٥ — ونقل في ص ١٩٥ عن المرحوم السيد رشيد كلاماً عن كعب ووهب بن منبه قال فيه :

« وما يدرينا أن كل الروايات ... أو الموقوفة منها ... ترجع إليهما » مع أن العبارة :

« وما يدرينا أن كل (تلك) الروايات الخ » فأسقط أبو رية كلمة « تلك » التي أشار بها السيد رشيد — رحمه الله — إلى مرويات كعب ووهب عن أهل الكتاب ، لتجيء العبارة موهمة أن كل روايات الصحابة ترجع إليهما ... فانظر إلى هذا الدس والتلاعب في نقل النصوص لتتفق مع أهوائه وأغراضه .

هذه أمثلة لا محل للمناقشة فيها تدل على تلاعبه في النصوص التي ينقلها ، ونسبتها إلى غير قائليها .

وأشهد أني لا أعلم أحداً من أشد المستشرقين تعصباً ودساً بلغت جرأته في تحريف النصوص والتلاعب فيها كما بلغت جرأة أبي رية هذا الذي يدعونه في هذا « العلامة المحقق الأمين » ؟! . هـ

إن مقاييس الأسلاف ، بل مقاييس البحث العلمي الصحيح في كل عصر ، تسقط عدالة أبي رية وتنفيه عن دائرة الباحثين ، وتسمه بكذب ، وكمحرف للكلم عن مواضعه وكخائن للأمانة العلمية ، وتسحب الثقة منه كلية .

وأبو رية لا يعدو أن يكون صبياً من صبيان المستشرقين . وللمستشرقين صبيان في الشرق معروفون . إن لهم صبياناً مأجورين ، وإن لهم صبياناً ملاحدة . وإن لهم صبياناً تابعين مقلدين !

فلنتحدث إذن عن المستشرقين في صورة صريحة ... إن من المعروف أن

الاستشراق - في طائفة كبيرة منه - إنما هو امتداد للحروب الصليبية

إن الغربيين يريدون بكل وسيلة القضاء على الإسلام كقوة لها ذاتيتها ، وأصالتها ، ومنهجها في الحياة ، وهم يستعملون من أجل ذلك كل الوسائل

إنهم يستعملون السلاح في قسوة قاسية ، وفي عنف عنيف حينما يمكنهم استعمال السلاح ، فإذا لم تواتهم الظروف استعملوا أسلحة أخرى منها الاستشراق

وكثيراً ما يرافق الاستشراق المدفع والديانة في الأقطار المستعمرة ، وهدف الاستشراق إفساد ما يمكن إفساده من الدين ، ومن ثم من الخلق . وقد وضح على مر الأيام - أن خصائص الاستشراق أنه

١ - متأثر بالبيئة التي نشأ فيها المستشرقون . ولقد عبر عن هذه الحقيقة أبلغ تعبير أحد الغربيين الذين كانوا يريدون معرفة الحقيقة عن سيدنا محمد ﷺ ، فقرأ كتباً عنه بعدة لغات ثم قال :

إن صورة نبي الإسلام صورة فرنسية إذا كانت بقلم الفرنسيين ، وهي ألمانية إذا كانت بقلم الألمانيين ، وهي أمريكية إذا كانت بقلم الأمريكيين ، وهي ... وهذا فيما يتعلق بالبيئة الاجتماعية

٢ - والاستشراق متأثر بالبيئة الدينية ، ومن الطبيعي الواضح أنه إذا كان المستشرق مؤمناً بدينه فإنه يكتب عن الإسلام مؤمناً بأنه دين مزيف

ولا أدري كيف يعزب ذلك - مع بداهته - عن أذهان المسلمين الذين يقرءون الإسلاميات بقلم المستشرقين ، فيولونهم شيئاً من الثقة أو يولونهم كل الثقة على حسب درجة استعداد القارئ للتقليد والمتابعة

٣ - ومن المعروف اليقيني أن الاستشراق - في أغلبه - يسير في ركاب الاستعمار أو في ركاب الكنيسة

إن ذلك ظاهر واضح لكل من قرأ تاريخ الاستشراق وصلته بالكنيسة والاستعمار ، ومن أجل ذلك لم يكن غريباً أن يزيف الاستشراق الحقائق . وهو إن لم يزيفها وطنية يزيفها تديناً ، وإن لم يزيفها تديناً زيفها وطنية ، فإذا لم تقو الوطنية وحدها أو التدين وحده على حمل الاستشراق على التزييف - تكاتف التدين

والوطنية معاً محملاه متعودين على التزييف ، فزيف تديناً ووطنية . » إنك لا تنتظر من قسيس يعيش في الكنيسة مثل « أرين بلاسيوس » ، حينما يكتب عن الإسلام إلا مسخاً وتشويهاً كما فعل ذلك حينما كتب كتابه المعروف بالعنوان الذي لا يتسم بأدب ولا بمجاملة وهو « الإسلام المسيحي » !

أما القسيس لامنس فقد وهب حياته لمحاولة هدم الإسلام عقيدة ، ولمحاولة هدم الإسلام تاريخاً ، ولمحاولة هدم الإسلام رجالاً ، ولمحاولة هدم الإسلام في كل ما يتعلق به . إن مستشرقين القساوسة عدد لا يحصى ، أما المستشرقون في وزارات الخارجية الغربية .

وفي وزارات الدفاع والحربية .

وفي وزارات الإعلام والدعاية

فإنهم أيضاً عدد لا يكاد يحصى

ماذا تنتظر من مستشرق هو مستشار في وزارة الدعاية ، أو في وزارة الحربية ، أو في وزارة الخارجية ؟ إن السذاجة مهما وصلت درجتها لا يتأتى أن تولى مستشرقاً يأكل عيشه من سيره في ركاب الكنيسة ثقتها

٤ – وطائفة من المستشرقين مستعدة أن تسير في أي ركب ، لأنها تسير في ركاب الشيطان : تلك هي طائفة المستشرقين اليهود .

إن كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » أو كتاب « الخطر الصهيوني » بين في وضوح أن اليهود قد آلوا على أنفسهم أن يفسدوا على الإنسانية دينها وخلقها وثقافتها .

وقد مني الإسلام بطائفة من المستشرقين اليهود على درجة من الخبث والمكر والدهاء يعجب بها الشيطان نفسه

أرأيت إلى الذكاء الحاد الخبيث حينما يستعمله صاحبه جاهداً لا يفتر في أغراض شيطانية يريد بذلك أن يفسد على المسلمين مثلهم العليا في الفضيلة والخير وإيمانهم الراسخ في الله وفي رسوله . . . ؟

إن هذا الذكاء الحاد الخبيث الذي أخذ يعمل لا يفتر قد تركز في بضعة أفراد

من اليهود – كأخبث ما يكون اليهود – على رأسهم جولد زيهر :

ولقد كان جولد زيهر حركة لا تفتر فى الإفساد والتشويه ، وساعده مال اليهود ودعايتهم ، فترجموا ونشروا أفكاره فى كل مكان ؛ حتى لقد ترجمت كتبه الخبيثة إلى اللغة العربية نفسها ونشرت فى مختلف الأقطار الإسلامية : تذيع الكذب فى صورة البحث العلمى ، وتنشر التشويه فى صورة الحقائق الثابتة ، وتدعو إلى الشك فيما لا يتاتى فيه الشك ، واغتر به طائفة من المغرورين وظنوا أن أبحاثه علمية ، وأنه باحث متثبت ، وعالم يتحرى الحقائق .

وإلى هؤلاء ، وإلى كل من يثق بالمستشرقين نذكر مثالين اثنين – من عشرات الأمثلة – التى تعمد جولد زيهر أن يكذب ، وأن يحرف الكلم عن مواضعه فيها .

وهذان المثالان إنما هما نموذج لأعمال كثير من المستشرقين العلمية .

يقول المرحوم مصطفى السباعى :

زعم جولد زيهر أن الزهرى اعترف اعترافاً خطيراً فى قوله الذى رواه عنه معمر : «إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة «أحاديث» وأن ذلك يُفهم استعداد الزهرى لأن يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند الأمة الاسلامية .

قدمنا لك عند الحديث عن صدق الزهرى وجرأته أنه أبعد الناس عن الإذعان لأهواء الحاكمين ، وذكرنا لك من الوقائع التاريخية بينه وبين خلفاء بنى أمية ما نجزم معه بأنه ليس ذلك الرجل المستعد لأن يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند المسلمين .

أما هذا النص الذى نقله ففيه تحريف بسيط يقلب المعنى رأساً على عقب وأصله كما فى ابن عساكر وابن سعد : أن الزهرى كان يمتنع عن كتابة الأحاديث للناس – ويظهر أنه كان يفعل ذلك ليعتمدوا على ذاكرتهم ، ولا يتكلوا على الكتب كما ذكرنا من قبل – فلما طلب منه هشام وأصر عليه أن يملى على ولده ليمتحن حفظه كما تقدم ، وأملى عليه أربعمائة حديث خرج من عنده وقال بأعلى صوته : « أيها الناس إنا كنا منعناكم أمراً قد بذلناه الآن لهؤلاء ، وإن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة « الأحاديث » فتعالوا حتى أحدثكم بها فحدثهم بالأربعمائة «حديث » هذا هو

النص التاريخي لقول الزهري ، وقد رواه الخطيب بلفظ آخر وهو : كنا نكره كتاب العلم – أي كتابته ، حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء فرأينا ألا نمنعه أحداً من المسلمين . اهـ . « تقييد العلم ص ١٠٧ » .

فانظر كم الفرق بين أن يكون قول الزهري ، كما روى جولد زيهر « أكرهونا على كتابة أحاديث » وبين أن يكون كما رواه المؤرخون : « أكرهونا على كتابة الأحاديث » أو كما رواه الخطيب « على كتاب العلم ؟ » .

ثم انظر إلى هذه الأمانة العلمية « حذف » « ال » من الأحاديث فقلبت الفضيلة رذيلة . حيث كان النص الأصلي يدل على أمانة الزهري وإخلاصه في نشر العلم ، فلم يرض أن يبذل للأمراء ما منعه عن عامة الناس إلا أن يبذله للناس جميعاً ، فإذا أمانة هذا المستشرق تجعله ينسب للزهري أنه وضع للأمراء أحاديث أكرهوه عليها ، فأين هذا من ذاك ؟

أما ما نقله « جولد زيهر » من قول وكيع عن زياد بن عبد الله من أنه كان مع شرفه في الحديث ! كذوباً – فهذه إحدى تحريفات هذا المستشرق الخبيث فأصل العبارة كما وردت في التاريخ للإمام البخاري : وقال ابن عقبة السدوس عن وكيع : هو (أي زياد بن عبد الله) أشرف من أن يكذب اهـ من القسم الأول الجزء الثاني ص ٣٢٩ .

فأنت ترى أن وكيعاً ينفي عن زياد بن عبد الله الكذب مطلقاً ، لا في الحديث فحسب ، وإنه أشرف من أن يكذب ، فحرفها هذا المستشرق اليهودي إلى أنه كان – مع شرفه في الحديث – كذوباً . وهكذا تكون أمانة هذا المستشرق !

إن المستشرقين وأتباعهم من الملاحدة والمأجورين والمقلدين هم الوضاعون في العصر الحاضر .

ولكن الله سبحانه قد هيأ للسنة تدويناً صحيحاً ، وتسجيلا متقناً ورجالا كرسوا حياتهم لها ، يدافعون عنها عصراً بعد عصر ، وينشرون أريجها جيلا بعد جيل : مذيعين وشارحين ، ناشرين وموضحين .

فهرس

رقم الإيداع	٢٠٠٢/١٩٩٧٧	
الترقيم الدولى	977-02-6389-3	ISBN

١/٢٠٠٢/٦٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



يُعدّ الإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود صاحب ورائد مدرسة الفكر الإسلامي والتصوف في العصر الحديث ، ولقب بأبي التصوف في العصر الراهن ، فقد أثرى المكتبة العربية بأمهات الكتب بين تحقيق وتأليف وترجمة، فمنها دراساته القيمة عن الإمام الغزالي وكتابه « المنقذ من الضلال » ، و « دلائل النبوة » ، و « القرآن في شهر القرآن » إلى جانب ما كتبه عن رواد التصوف على مر العصور الإسلامية المختلفة .

والإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود له عمق وغزارة الآراء الفقهية ودقة الاجتهادات مما جعله يكسب صفوف المعارضين قبل المؤيدين ، إلى جانب اللباقة والدراية الكاملة في عرض أي موضوع أو مسألة تتعلق بأمور الدين، وأيضا يمتاز بقوة ورصانة الأسلوب والعبارات ، مما يدل على المهارة الفائقة والملكة اللغوية فلهذا اكتسب هذا العالم الجليل احترام كل الفرق والمذاهب الإسلامية في شتى بقاع العالم ، وسيبقى هذا العالم وتراثه في قلوبنا على مر العصور .



دار المعارف

٠٠٠٩٩٥ /٠١

